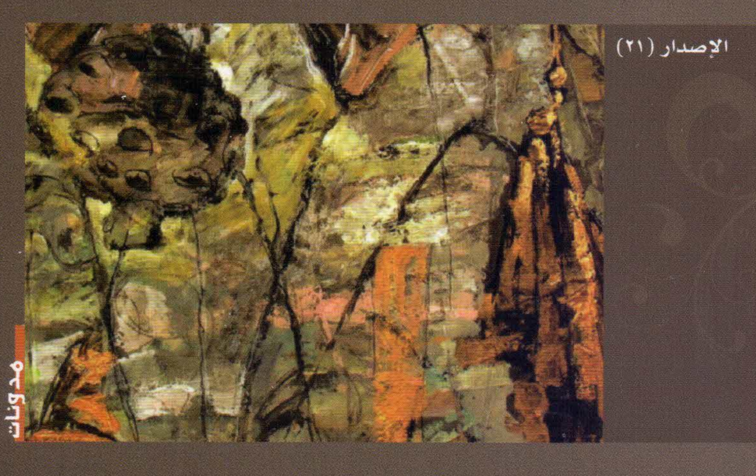


خارج عن المألوف

مدونات رحالة في القارة العجوز

الإصدار (٢١)



د. مازن مطبقاني



الإصدار (٢١)

مدونات



خارج عن المألوف

مدونات رحالة في القارة العجوز

المألوف في المدونات الخاصة بالرحالة ، هو وصف المكان والناس وعادتهم وطرائقهم في الأكل واللباس ونحوها كما هو معروف في أدب الرحلات ، لكن هذا الكتاب يخرج عن هذا العرف بطبيعة الرحلات التي قام بها المؤلف .. فقد شارك في مؤتمرات للاستشراق في أوروبا ولذا كان وصفه للمؤتمرات وموضوعاتها والمشاركين فيها ..وهو مدونة رحلات المؤلف لمؤتمرات وورش عمل وندوات في إيطاليا وهولندا ، وبولندا ، وأسبانيا ، وفرنسا.

الناشر

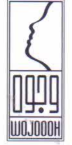


المملكة العربية السعودية

هاتف 966114539883 فاكس 966114532157

ص.ب 242193 الرمز البريدي 11322

daralwae@gmail.com



تصميم الغلاف



خارج عن المألوف

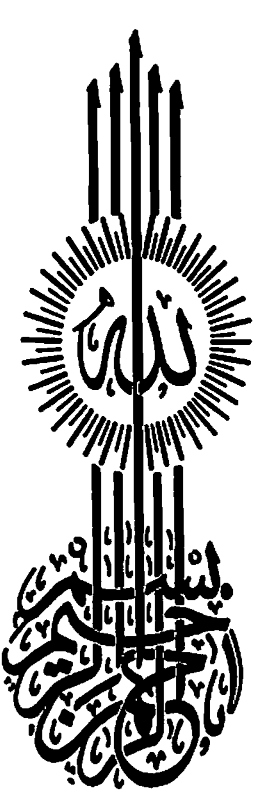
مدونات رحالة في القارة العجوز

رحلاتي إلى أوروبا

إيطاليا ، وألمانيا، وهولندا، والسويد ، وإسبانيا ، وبولندا

د.مازن مطبقاني

ⓗ دار الوعي للنشر والتوزيع ، ١٤٣٥هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
مطبقاني ، مازن صلاح
خارج عن المألوف- مدونات رحالة في القارة العجوز/ مازن صلاح مطبقاني-
الرياض ، ١٤٣٥هـ
٢٠٨ ص ؛ ٢١ سم
ردمك : ٩-٢-٩٠٤٦٩-٦٠٣-٩٧٨
٢- الرحلات أ.العنوان
ديوي ٩١٠.٤ ٣٩١/ ١٤٣٥



الطبعة الأولى

١٤٣٥ هـ

دار الوعي للنشر والتوزيع

المملكة العربية السعودية – الرياض

ص . ب ٢٤٢١٩٣ الرمز البريدي ١١٣٢٢

هاتف ٩٦٦١١٤٥٣٩٨٨٣ فاكس ٩٦٦١١٤٥٣٢١٥٧

daralwae@gmail.com

المحتوى

إهداء

إلى روح أمي الحبيبة

لم يكن لحنانها ورعايتها وحبها حدود، كما لم يكن لبركتها في حياتي حدود، فأسأل الله

أن ينفعني بها في الدارين، وأدعو الله عز وجل أن يجعلها وأبي من أهل الفردوس الأعلى من الجنة.

مازن

مقدمة

كانت أمي رحمها الله تردد دائمًا عندما تسمع عن رحلة من رحلاتي: « من أحبه ربُّه، أطلعه على خلقه »، تقصد أنه ييسر له السفر ورؤية أماكن مختلفة من العالم، فإن كانت المقولة صحيحة فأحمد الله عز وجل على ما يسّر من رحلات شرقًا وغربًا وشمالًا وجنوبًا، وأحمده كذلك أن فتح لي لأكتب عن هذه الرحلات. ولعل رؤية الدنيا تكون امتثالًا للآيات الكريمة ومنها قوله تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [العنكبوت : ٢٠] ، وقوله تعالى : ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾ [الملك: ١٥]، وقوله تعالى : ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج :٤٦].

وكم تأملت قول الرسول صلى الله عليه وسلم:«إن الله زوى لي الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها وإن أمتي سيبلغ ملكها ما زُوِيَ لي منها»[أخرجه مسلم ، رقم (٢٨٨٩) ، (٤ / ٢٢١٥)]، وقد أكرم الله عز وجل سيدنا محمدًا صلى الله عليه وسلم بالإسراء إلى بيت المقدس والمعراج إلى السموات العلا. وصحيح أن خبر الرسول صلى الله عليه وسلم عن مدى ما يبلغه ملك أمته في رواية أخرى للحديث ، ولكن هنا أنه صلى الله عليه وسلم رأى المشارق والمغارب.

وكانت لي رحلات إلى دول كثيرة دَوّنتُ في بعضها أكثر من غيرها ، ولكن كانت الحصيلة جيدة والحمد لله، فلم أكن سائحًا عاديًّا أبحث عن نزهة سريعة تنقضي وتضيع آثارها ، ولكن كان في رحلاتي بحث ومشقة وتعب، وفيها دروس وعبر. كان فيها لقاءات فكرية وعلمية ودعوية. حاولت أن أصدع بالحق حيثما استطعت.

ويأتي كتاب الرحلات هذا بعد أن سبقته عدة كتب ، أولها رحلاتي إلى أمريكا ، ثم جاءت رحلاتي إلى بلاد الإنجليز، ورحلاتي إلى مشرق الشمس ، ولكن الحقيقة : أن رحلتي إلى كل من إيطاليا وألمانيا كانت هي الانطلاقة الحقيقية للكتابة عن الرحلات، والسبب أنني كنت عضوًا في عدد من المنتديات في الإنترنت ، ومن أولها : (ابن الإسلام) و(منتديات جامعة الملك سعود ، وجامعة الإمام، وجامعة طيبة ، ومنتدى أهل التفسير) وغيرها، وكنت أكتب عن كل رحلة عدة مقالات لا تتجاوز المقالة الألف كلمة، ثم فكرت في أن أجمعها ، فبعثت بنسخة منها إلى الأخ الكريم الأستاذ الدكتور يحيى مراد، فقام بجهد مبارك في التصويب والترتيب. ثم قرأ الكتابين السابقين - الذين صدرا عن مكتبة العبيكان - الدكتور يحيى محمود بن جنيد الأمين العام لمركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية ، فلم يترك صفحة دون تعليق أو تصويب أو اقتراح، واستجبت لمعظم تصويباته واقتراحاته؛ ذلك أنه كان النطاسي البارع في القراءة المخلصة والمحبّة.

وهاهي الرحلات بين أيديكم مع بعض الصور التي التقطتها حين تيسر وجود كاميرا معي فأرجو أن تجدوا فيها ما يسرّي عنكم ويسليكم، والحمد لله أولًا وآخرًا.

رحلة إيطاليا

٢١-٢٩ صفر ١٤٢٧هـ / ٢١-٢٩ مارس (آذار) ٢٠٠٦م

تذكرون حسني البرزان - رحمه الله- الممثل في مسلسل (صح النوم) حينما كان يحاول أن يكتب مقالة صحفية، ولكنه كان يجد صعوبة في الكتابة فتوقف طويلًا عند عبارة: « إذا أردنا أن نعرف ماذا في إيطاليا، فعلينا أن نعرف ماذا في البرازيل» وانتهت الحلقات ولم نعرف شيئًا لا عن إيطاليا ولا عن البرازيل. أما في الأسطر القادمة فإنني سأقدم إليكم بعض مشاهداتي وانطباعاتي عن رحلة قمت بها إلى كل من إيطاليا وألمانيا في المدّة من ٢١صفر إلى ٢٩ منه عام ١٤٢٧هـ.

علمت عن منتديات المعهد الجامعي بفلورنسا قبل أشهر عديدة، ودخلت موقع المعهد لأتعرف إلى هذه المنتديات التي تسمى «ورش عمل» يجتمع في كل ورشة عشرة إلى اثني عشر. شخصًا يبحثون في قضايا تخص مجتمعات البحر المتوسط، فاسم المنتديات هو منتديات البحر المتوسط. وقد بدأ عقدها منذ سبع سنوات، أي منذ عام ٢٠٠٠م. وتكوَّن المنتدى هذا العام من إحدى عشرة ورشة منها في الاقتصاد وفي السياسة وفي الاجتماع وفي تقنية المعلومات وفي المسائل الحدودية وفي العمران والفن.

كنت أرغب في المشاركة في ورشة المشاركة السياسية في الأنظمة الشمولية أو الدكتاتورية، ولكني وجدت أن العنوان غير مناسب لأطلب الإذن للمشاركة في مثل هذه الجلسة، وربما لا يمكن السماح بحضورها أو أن الكياسة أن يبتعد الإنسان عن مثل هذه الأمور. فقررت أن أطلب الإذن لحضور موضوع الأسرة في الشرق الأوسط. وتقدمت بموضوع هو «وضع المرأة السعودية في الأسرة» وقُبل الموضوع مبدئيًا ولكن القبول النهائي لم يأت ؛ لأنَّ الورشة اكتملت. فطلبت الإذن أن أحضر مستمعًا.

وبعد مراسلات كثيرة أشهد فيها للخواجات (معذرة ليس هذا إلّا من باب الإنصاف) أنهم يردون على الرسائل في موعدها ويحرصون على أي باحث من أي بلد كان. وكان هناك الخوف أن لا يتوفر لي التمويل الكافي للحضور (ما أشق على الباحث أن تعوقه المادة عن المشاركة في المنتديات

العالمية) ، ولكن الله هو الرزّاق ذو القوة المتين يسر لي الحصول على التذكرة، وشرعتُ في الرحلة بعد منتصف يوم الاثنين الواحد والعشرين من صفر. وكانت الرحلة إلى إيطاليا أو مدينة فلورنسا حسب ترتيب المكتب السياحي تمر عبر فرانكفورت، ولما كان مطار فلورنسا مغلقًا، كان لا بد من السفر من فرانكفورت إلى بيزا (المدينة التي فيها البرج المائل) ووصلت بيزا وكان الوقت نهارًا، وكان الفندق الذي حجزت فيه تقول المعلومات من موقع الياهو إنّه في وسط المدينة وأجرته ١٢٥دولار على حين يوجد فندق آخر بعيد عن المدينة وأجرته أقل، فقررت أن أنزل في الفندق الذي في وسط المدينة. ولما وصلت الفندق إذ به بعيد عن وسط المدينة والفندق الآخر هو الذي في وسط المدينة. والياهو محرك بحث أساسي، وبيزا مدينة سياحية يأتي الناس من أنحاء العالم لمشاهدة برجها المائل والكاتدرائية القريبة من البرج والمتحف، وربما هناك أشياء أخرى. والكاتدرائية (ربما هي الكنيسة الكبيرة): مبنى قديم فيه كثير من التماثيل والتصاوير والنقوش والزخرفة. والدخول إليها برسم هو اثنان من اليوروات. وفي الداخل بعض الأجهزة التي يمكن أن تطلع على مزيد من مزايا أو ملامح المكان مقابل رسوم معينة. فتعجبت أن يجعل النصارى كنيستهم مكانًا ليدر الدخل أو للكسب المادي، وتذكرت هنا أننا نترفع بالمسجد أن يكون مكانًا لمثل هذه الأمور حتى إن الإنسان لا يجوز له أن ينشد ضالته في المسجد، ومن فعل ذلك يقال له: (لا رد الله عليك ضالتك) ، فالمساجد لم تُبْنَ لمثل هذه الأمور.

وتحملت أجرة التاكسي من المطار إلى الفندق حوالي العشرين يورو، أي : ما يعادل التسعين ريالًا، في حين أن المسافة في الحافلة لا تتجاوز مسيرة عشر دقائق والأجرة أقل من عشرة ريالات.

تجولت في منطقة البرج ورأيت ميلان البرج وأحد الرسامين رسم صورة يتخيل البرج ينهار، وقال أحدهم: لو انهار البرج لحطم بعض المباني التي أمامه. ولكن لم يحن بعد في مشيئة الله - سبحانه وتعالى- أن ينهار

البرج. ومدينة بيزا فيها جامعة تضم كلية طب وكلية علوم إنسانية وكلية علوم يراها المرء وهو يمر بالشوارع المحيطة بالبرج. ومباني الجامعة قديمة ولكن الغربيين يعرفون كيف يجعلون المباني القديمة تضمن كل التقنيات الحديثة.

هناك من يقول: لولا البرج ما زار أحد هذه المدينة، فهي متواضعة في شوارعها ومبانيها وأسواقها، ويلاحظ الإنسان التفاوت في المدن الإيطالية؛ فميلانو في الشمال ليست مثل باليرمو في جزيرة صقلية في الجنوب، فالمدينة الجنوبية أقرب إلى المدن العربية المتواضعة ذات الشوارع التي تحتاج إلى إصلاح، وفيها فراغ لدى الناس فهم يقضون أوقاتًا طويلة في الأسواق وعلى الأرصفة وفي المقاهي، حتى إنك تراهم في باليرمو يُمضون وقتًا في الشوارع حتى وقت متأخر.

لم أكن أعرف أن الندوات ليست في فلورنسا وإنما في مدينة صغيرة بالقرب منها، حتى اتصلت بالمنظمين للندوة فسألتهم: أنتم تقولون إنكم سوف توفرون حافلات لنقل المشاركين من مطار بيزا، قالوا: نعم، فذهبت إلى المطار، وبالفعل وجدت الحافلات وسارت بنا إلى المدينة التي تسمى (مونتي كاتيني) وهي مدينة راقية في شوارعها وتنظيمها، وصغيرة جدًا، وفيها عدد كبير من الفنادق. وكأن صغر المدينة مُغْرٍ لأصحاب المؤتمرات والندوات أن يعقدوها هنا، فبالإضافة إلى الفنادق التي فيها قاعات للمؤتمرات هناك مبنى خاص للمؤتمرات. ومونتي كاتيني قريبة جدًا من فلورنسا ويمكن الإنسان أن يجد قطارًا كل ساعة إلى فلورنسا.

بعد أن وصلت إلى الفندق ، انطلقت إلى مقر الندوة وكانت في فندق آخر قريب فسجلت، وقبلوا تسجيلي مستمعًا في اليوم الأول رغم أنه معلن أن التسجيل في اليوم الثاني للمستمعين. فهاهم الأوروبيون يتنازلون أحيانًا عن بعض النظام لتكون معاملتهم لطيفة. وحصلت على الملف الذي يحتوي على معلومات واسعة عن الندوات والأشخاص المشاركين

وأسطوانة مدمجة تضم الندوات للسبع سنوات الماضية كلها. ومهما أنفق الإنسان من مال ففي سبيل العلم والمعرفة فهو يستحق، ولكن قديمًا كتبت: (من يحملني إليهم؟)، وكتبت: (رحلة غنائية ورحلة علمية)، فالباحث يتجشم المصاعب والمتاعب ويسافر في الدرجة السياحية بينما المطرب(X) أو س أو ص، يركب الدرجة الأولى هو وفرقته مهما كان عددهم وينزلون في أفخم الفنادق ويحصلون على أعلى الأجور. وحدث حوار ذات مرة بين أمريكي وفرنسي، فقال الفرنسي للأمريكي: نحن في تلفزيوننا نحتفي بالعلماء والمفكرين والفلاسفة، بينما أنتم تحتفون بالمغنين والمطربين والراقصين والراقصات، فنحن أكثر ثقافة منكم. والصحيح أنه حتى بعض محطات التلفزيون الأمريكية تحتفي بالعلماء والمفكرين وتستضيفهم وتجري معهم اللقاءات. أما التلفزيونات التجارية فهمُّها الأول الترفيه والترفيه والترفيه، والدعاية لأفكار معينة وفقًا لمالكي القنوات.

واجتمع شمل المشاركين والمستمعين (وعدد المستمعين قليل) في تلك الليلة على الساعة السابعة للاستماع إلى المحاضرة الافتتاحية للدكتورة سعاد جوسف بعنوان: **«أبيض وأسود: تمثيل العرب والمسلمين الأمريكيين والإسلام في الصحافة الأمريكية المطبوعة: دراسة تطبيقية على صحيفتي نيويورك تايمز وواشنطن بوست»**، والدكتورة سعاد هي مديرة دراسات الشرق الأوسط وشرق وجنوب آسيا في قسم علم الإنسان بجامعة كاليفورنيا بمدينة ديفس. وهي حاصلة على الدكتوراه من جامعة كولومبيا بنيويورك عام ١٩٧٥م، وتقوم بتدريس علم الإنثروبولوجي ودراسات المرأة والجندر في جامعة ديفس، وهي المحررة الرئيسة لموسوعة المرأة والثقافة الإسلامية التي تصدر عن دار بريل، وهي مؤسسة وأول رئيسة لرابطة دراسات المرأة في الشرق الأوسط. وهذه الموسوعة أصبحت متاحة على شبكة الإنترنت من خلال الرابط:

/http://sjoseph.ucdavis.edu/ewic

وكان مجمل عرضها أن هاتين الصحيفتين أساءتا كثيرًا لصورة العرب والمسلمين الأمريكيين وللإسلام عمومًا. وقدمت نماذج من دراستها وذلك عن الألفاظ التي تتكرر في وصف العرب والمسلمين أو التي تصف الإسلام. ولم يسمح الوقت إلّا بسؤالين أو تعليقين كان أحدهما ما سألته حيث قلت: هل هناك رد فعل من المسلمين والعرب على هذه الصحف، وما رد فعل هذه الصحف على ردود الأفعال تلك؟ ، فأجابت: إن هاتين الصحيفتين لا يهمهما كثيرًا ردود الأفعال، كما قلت: إذا كانت الصحيفتان تقدمان هذه الصورة السيئة فأين الجهود العربية والمسلمة في توضيح صورتهم وصورة الإسلام؟ أعرف أن المؤتمر السنوي لرابطة المسلمين في أمريكا الشمالية يستقطب أكثر من خمس عشرة ألف مشارك وهم يقدمون صورة رائعة للإسلام، أين الأفلام الوثائقية عن المسلمين؟ وكان ردها جيدًا بأن الجهود كبيرة والقضية بقدر ما هي مؤلمة فإن المستقبل مشرق.

لقد كان من ضمن فقرات الافتتاح الحديث عن المعهد الجامعي بمدينة فلورنسا بإيطاليا بأنّه تأسس عام ١٩٧٦م من قبل الدول الأوروبية الأعضاء في الاتحاد الأوروبي حينذاك، وهو مُعَدٌّ لأعداد طلاب الدكتوراه والبحوث في أعلى مستواها، ولديهم الآن مائةٌ وخمسون طالبًا يعدون لدرجة الدكتوراه. ومن فروع المعهد مركز روبرت شومان للدراسات المتقدمة Robert Schuman ويرأسه هلن ولاسHellen Wallace. وهذا المركز مخصص للباحثين فيما بعد الدكتوراه. وقد تأسس المركز عام ١٩٩٢م. ومن أقسام المركز: القانون، والاقتصاد والتاريخ والحضارة والعلوم السياسية والاجتماعية. ويعمل فيه أساتذة متفرغون وأساتذة يعملون بتفرغ جزئي. ولدى المركز مشروعات بتمويل من اللجنة الأوروبية منها عن نماذج جديدة للحكومات، والمواطنة والديمقراطية في أوروبا، وبحوث أخرى حول أوروبا الشرقية والقيم الاجتماعية والسياسية في ثماني عشرة دولة من دول الاتحاد وجنوب شرق آسيا.

انطلقت منذ اليوم الأول أشغال الورش المختلفة التي بلغت إحدى عشرة ورشة أذكر فيما يأتي بعضها:

الأولى: الإقليمية والأقلمة في الشرق الأوسط: بحث في النواحي النظرية والعملية.

الثانية: النتائج القانونية الاجتماعية للهجرة في منطقة الشرق الأوسط.

الثالثة: التقسيم أو المشاركة السياسية: إدارة الحدود والأراضي في عالم معولم.

الرابعة: من المحلية إلى العولمة: الفنون المرئية في شرق البحر المتوسط بين الأسواق العالمية والتوقعات المحلية.

الخامسة: مناظرة حول الأسرة في الشرق الأوسط.

السادسة: المشاركة السياسية تحت الحكم الشمولي في الشرق الأوسط وشمال أفريقيا.

السابعة: النقد الثقافي والنقد الجندري في الشرق الأوسط: إسهام الفكر النسوي (نسبة إلى حركة تحرير المرأة) في النقد الثقافي في المجتمعات المتوسطية.

الثامنة: المناقشات العامة حول الإسلام في أوربا: لماذا أصبح المهاجرون مسلمين كيف ذلك؟

شاركت في معظم جلسات الورشة الخاصة بموضوع الأسرة، وذلك لأنني كنت قد قرأت بعض الأوراق، وكان يهمني أن أعرف ماذا يقولون عن الأسرة في الشرق الأوسط. وقد تناولتْ هذه البحوث قضايا حول الأسرة في عدن منذ نهاية عهد الاستعمار حتى العصر الحاضر، كما تناولت قضايا التشريعات الخاصة بالأسرة في كلٍّ من إيران ومصر وجنوب تركيا. وقدمت باحثتان موضوعين عن الأسرة من خلال مسألة الميراث: إحداهما عن الوقف من خلال فتاوى الوزاني في المغرب العربي، على حين كان البحث الآخر حول القضايا الأسرية من خلال وثائق المحاكم المصرية

في أواخر العهد العثماني. وتناولت باحثة أمريكية موضوع الحركات المطالبة بحقوق المرأة في المغرب العربي، وكيف أن الأسرة تشكل عائقًا نحو تحقيق المرأة بعض حقوقها.

لاحظت في أثناء استماعي إلى الحديث عن المرأة غياب المعرفة الشرعية المستندة إلى نصوص الكتاب والسنّة أو نماذج من حياة السلف في القرون التي كان التطبيق الإسلامي في أعلى مستوى له. وقد ذكرت لهم أن قضية الوقف مرتبطة بقضية شرعية وهي قول الرسول صلى الله عليه وسلم (إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلّا من ثلاث: علم ينتفع به، وولد صالح يدعو له وصدقة جارية). وعمل الخير أيضًا ينطلق من قول المصطفى صلى الله عليه وسلم: (أيكم مال وارثه أحب إليه من ماله؟ فقالوا: مالنا يا رسول الله، فقال لهم: (مالك ما أنفقت، ومال وارثك ما أبقيت) وأخبرتني رئيسة الجلسة- سوزان دالقرام أستاذة علم الإنثروبولوجي بجامعة هلسنكي بفلندا- أنها تنوي البدء في دراسة الفقه، فقلت لها هذا قرار سليم، ولكن إحدى المشاركات قالت: إنها لا تحتاج إلى الاستشهاد بالنصوص الإسلامية من حديث أو قرآن.

وحدث أن انتقلت إلى جلسة أخرى وهي حول الجندر، وفي تلك الجلسة استمعت إلى بحثين أحدهما عن المدونة المغربية لإدماج المرأة المغربية في التنمية، وهي مدونة كثر حولها النقاش في المغرب، وقد اعترض عليها العلماء ورأوا فيها خروجًا عن الشريعة الإسلامية في عدد من المواضع. وقدم البحثَ باحثٌ وباحثة من المغرب. وكانت المرأة أكثر تحدثًا. وكانت تتحدث بلهجة المنتصر أن المدونة قد أصبحت قانونًا وأن الحكومة المغربية استطاعت أن تسكت أصوات المعارضة الإسلامية. وذكرت من المدونة أنها لم تسمح للرجل بالزواج من ثانية إلّا بموافقة الزوجة الأولى، وأن الطلاق لا يمكن أن يقع إلّا أمام المحكمة، وتحدثا عن حقوق أخرى، ولكنهما كانا ينتظران أن تساوي المدونة بين الرجل والمرأة في الميراث. وانتقدت المدوّنة

أو قانون الأحوال الشخصية الأخير مسألةَ عقد النكاح أو عقد يسمح للرجل بالممارسة الجنسية بل هو عقد زواج. وتعجبت أن الأمة قبلت هذه التسمية ألفًا وأربعمائة سنة ويأتي من يعترض اليوم على التسمية، حتى على المضمون، ناسين أن القرآن سمّاه ﴿مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾ [النساء/ ٢١]، ووصف العلاقة بين الرجل والمرأة بالمودة والرحمة وقال عن الزواج: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾، وانظر كيف قُدِّمت المرأة في اللباس. واعترضوا على مسألة الطاعة، ومطالبة المرأة بطاعة الزوج. وانتقدوا الاستعمار بأنه كرّس ذكورية المجتمع، مع أن بذور حركة ما يسمّى تحرير المرأة جاء به الاستعمار. ونسوا أن المؤتمر العالمي الثالث للمرأة عُقِد في الجزائر في مدينة قسنطينة عام ١٩٣٤م، وغابت عنه المرأة الجزائرية التي رضيت بالحجاب، عدا نساء قليلات كنّ متغربات.

ولم أتحدث في أثناء الجلسة لأنني كنت أشعر أنني لو قلت شيئًا لقالوا ما الذي أتى بهذا الأصولي المتطرف إلى اجتماعاتنا؟ ولا بد من الكياسة في مثل هذه الأماكن وربما وصل بهم الغضب إلى محاولة إخراجي من القاعة، فما كان الجو مناسبًا لأي اعتراض. ولكن خارج القاعة شاء الله أن يكون معي كُتَيِّبٌ صغير بعنوان (موقفنا من المشروع الوطني لإدماج المرأة في التنمية)، فقدمت الكتيب إلى رئيسة الجلسة، فقالت: ما هذا الكتيب؟ قلت لها: إنه رأي للعلماء المغاربة يعترضون على المدوّنة. فقالت: لماذا تروج لهم؟ قلت لها أنا لا أروج لهم ورأيي أنه لا رأي لي حتى أقرأ المشروع كاملًا، ولكن في جلسة علمية كان ينبغي أن يكون هناك توازن في عرض وجهات النظر. فكما سمحت بوجهة النظر المؤيدة للمشروع كان ينبغي وجود الرأي المعارض. ولعلي أكتب رسالة إلكترونية لتلك المرأة. وسألتها: ألا تريدين أن تعرفي الرأي الآخر؟ للمشروع

أما البحث الثاني الذي سمعته فهو حول: النساء السحاقيات، بين العلن والخفاء. وكانت الباحثة سورية، وكأنها كانت تشيد بهذا الأمر



صورة رقم (١) : برج بيزا المائل - إيطاليا

صورة رقم (٢) : مدينة بيزا الإيطالية

صورة رقم (٣) : جسر الحب - إيطاليا

وذكرت الكثير من الكاتبات اللاتي كتبن عن العلاقات الجنسية بين النساء أو ميل بعض النساء لبنات جنسهن، وذكرتْ من الكاتبات: حنان الشيخ وليلي أحمد وغيرهما، وذكرت من الروايات: باب الواد، وحجر الضحى وغيرهما. وأذكر أن مؤسسة بريطانية مسرحية قدمت إحدى مسرحيات حنان الشيخ في لندن، وافتخرت بها إحدى الصحف العربية الصادرة في الغرب وكأن الأمر فتحٌ كبير مع أن الغرب لا يحتفي إلّا بمن شذ أو انحرف من أبناء الأمة.

وبالمناسبة فإن المشرفين على المؤتمر يقدمون دعمًا ماليًّا لمن يقدم بحثًا مقابل البحث وكذلك مقابل المصروفات التي تحملها، وفي نهاية تلك الجلسة قالت الرئيسة إليزابيث كسّاب: قوموا بنا نحصل على نقودنا من المسؤول المالي فاليوم هو اليوم الأخير. وقلت في نفسي ليتهم حفظوا كرامة الباحثين وقدموا إليهم ما يسمّى مكافأة بطريقة أخرى لا تضطرهم إلى الوقوف بباب المسؤول المالي.

وأما الورشة التي كنت أرغب في حضورها فهي بعنوان: «المشاركة السياسية تحت النظام الشمولي» وهي برئاسة كل من سلوى زرهوني من جامعة محمد الخامس بالرباط، وإلين لست أوكار من جامعة ييل (Yale) بالولايات المتحدة، وتقول مقدمة الورشة إن المشاركة السياسية في الأنظمة الشمولية قد بدأت في العالم العربي الإسلامي ببعض المشاركة السياسية والحديث عن الانتخابات وغير ذلك، ولكن هذه المشاركة السياسية قليلًا ما تُناقش أو تبحث في المنتديات العلمية. وسيكون الحديث عن المشاركة السياسية في المؤسسات السياسية أو غيرها، وتناولت الورشة المفاهيم الخاصة بالمشاركة السياسية وتعريفها. وهل ما يحدث من بعض المشاركة السياسية هو حقيقة أم مجرد ديكور؟ وتناولت الأوراق المشاركة السياسية عمومًا وكذلك التجارب في دول معينة كالأردن ومصر، وكذلك الحديث عن وسائل الإعلام وأثرها في نشر التوعية بأهمية المشاركة السياسية. ومن

أبرز الباحثين والباحثات الذين قدموا بحوثهم ليلى الحمّاد من البنك الدولي بواشنطن، حيث كان عنوان بحثها: «المشاركة السياسية في الشرق الأوسط وشمال أفريقيا: توسعة الشبكة».

قبل أن أشرع في السفر إلى إيطاليا تلقيت دعوة من مركز دراسات الشرق الحديثة لحضور محاضرة حول (الحرية الأكاديمية في الجامعات الأمريكية بعد الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١م) يقدمها البروفيسور بشارة دوماني أستاذ التاريخ بجامعة كاليفورنيا - بركلي . ودوماني هو المحرر لكتاب حول الحرية الأكاديمية التي تتعرض لهجوم ضخم منذ أحداث سبتمبر٢٠٠١م، وقد بدأ مركز برلين بإرسال دعوات أو أخبار المحاضرات منذ عقدت في الرياض في العام الماضي ندوة حول ألمانيا والثقافة العربية، وقدمت فيها بحثًا حول موقع (القنطرة) الذي أسسته وزارة الخارجية الألمانية للحوار مع العالم الإسلامي. وقابلت عددًا من أساتذة الجامعات الألمانية ومنهم أساتذة من مركز الدراسات الشرقية الحديثة (ZMO).

ورأيت أن فلورنسا أو بالأحرى مونتي كاتيني (وهي المكان الذي عقدت فيه ورش العمل)، القريب من بيزا وفلورنسا (مطارها كان مغلقًا) يمكن أن تكون قريبة من برلين بألمانيا، وسألت الوكالة السياحية في الرياض أن تسأل لي عن تذاكر القطار من إيطاليا إلى ألمانيا، ولكني بدأت أسأل بعد وصولي بقليل عن طريقة الوصول إلى ألمانيا، وذهبت إلى وكالة سياحية فقالوا: ثمن التذكرة من بيزا إلى ميونخ فبرلين في الطيران الألماني أربعمائة وثلاثون يورو وهناك ضرائب تبلغ سبعين يورو، والمكتب السياحي يتقاضى خمسين يورو عمولة ولا بد من الدفع بالنقد. ففكرت في الأمر قليلًا ولكني رجعت إلى الفندق وطلبت من موظف الاستقبال أن يحجز لي مع الشركة الألمانية وفي المطار أشتري التذكرة. ولكني قلت لنفسي: أحاول مع إحدى موظفات المؤتمر بسؤالها عن أفضل طريقة للسفر إلى برلين، فقالت: هناك شركات رخيصة كل ما تحتاج إليه أن تحجز عن طريق

الإنترنت وتسدد ببطاقة الائتمان وفي المطار سيعطونك بطاقة صعود وليس في الطائرة مقاعد محددة ولا خدمة على الطائرة إلّا أن تدفع. وكانت قيمة التذكرة حوالي عشرين بالمائة من التذكرة العادية. وقررت السفر بهذه الوسيلة. وقامت الموظفة بعمل الحجز وأيضًا إرسال رسالة بالبريد الإلكتروني إلى برلين ليحجزوا لي في الفندق، وشكرتها على هذه الخدمات فقالت: هذه وظيفتنا. ورغم علمي بأن هذا ليس عملها، فهي من المنظمين للندوات، ولكن الغربيين يسعون إلى خدمة الباحثين. وتذكرت أمر الإركاب في جامعتي وكيف عليّ أن أمر على أربعة أو خمسة مكاتب لأحصل على التوقيعات العظيمة، ونسخ أمر الإركاب ثم الانطلاق إلى مكتب الخطوط لوضع السعر، فقلت: ما أرخصَ وقتَ الأستاذ الجامعي عندنا! حتى إنني قلت لأحد الموظفين لماذا تضطرون أستاذًا كبيرًا في السنّ مثلي للقيام بكل هذه الإجراءات؟ فرد علي بسكوت جميل وكأنه يقول: إن أردت السفر فعليك القيام بهذه الإجراءات وإلّا سافر على حسابك. (تحسنت الإجراءات حين تعاقدت جامعة الملك سعود مع إحدى الوكالات السياحية، ومع ذلك لم يخل الأمر من استغلال تلك الشركة للجامعة والأساتذة).

وفي اليوم الذي سبق سفري إلى ألمانيا قرر مجموعة من المشاركين في ورش العمل زيارة مدينة فلورنسا، وهناك قطار كل ساعة ينطلق من مونتي كاتيني وفلورنسا من المدن الإيطالية السياحية الجميلة، فهي تقع في منطقة توسكاني المشهورة تاريخيًا وفيها عدد من المباني الكنسية الكبرى التي يحب السيّاح أن يقضوا وقتًا ينظرون إلى ما فيها من تماثيل وصور. وفيها طبيعة خلابة وأسواق جميلة. ومن أسواقها المتاجر المفتوحة. وفيها بضائع يمكن أن تكون أسعارها طيبة. كما في فلورنسا جسر جميل على نهرها ، وعلى الجسر بنيت بعض المساكن؛ ليسكن فيها الباعة على الجسر، وفي الأماكن القريبة. كما لاحظت وجود اليد العاملة الأجنبية من كل دول العالم. ولاحظت أيضًا بعض الأفارقة الذين

يبيعون الساعات الرخيصة والأحزمة ويتجولون في الشوارع يتحدثون فيما بينهم اللغات الأفريقية ولكنهم يتحدثون الإيطالية. قد يكون بعض هؤلاء ممن ليس لديهم إقامات نظامية ولكنهم يعملون في كل مكان.

الرحلة إلى ألمانيا

السفر إلى برلين بألمانيا :

كانت الطائرة التابعة لشركة إيزي جت (Easy Jet) مزدحمة، وأكثر من فيها شباب لا يهتمون كثيرًا بالنظام ويتدافعون، ولكن الطائرة جيدة من حيث الشكل، ولا بد أن لديهم معايير فنية تجعلها صالحة للطيران، والأعمار بيد الله فقد تسقط الطائرة الجديدة وتبقى الطائرة القديمة في الجو، وقد ينفجر الإطار الجديد والإطار القديم تسير به مئات الكيلومترات. فعندما تأتي المنية لا يردها لا طائرة جديدة ولا سيارة مصفحة ولا حرس، وقد سمعت مثلًا يقول: «يموت الحارس ويبقى المحروس» حين سقطت طائرة مليئة بحرس أحد الرؤساء.

وحتى لا أبحث عن فندق بعد وصولي طلبت من إدارة مركز الدراسات الشرقية الحديثة في برلين أن يحجزوا لي مكانًا في فندق قريب من مقر المحاضرة، وفعلوا ذلك وكان الفندق بالفعل قريبًا، ولكني قمت في الصباح الباكر وكان الجو ماطرًا وسرت في الشوارع القريبة، حتى إذا ضعت- أو ظننت أنني ضعت - أخذت تاكسي ليأخذني إلى مقر المحاضرة. وهناك عرفت كيف أرجع إلى الفندق. وعرفت أن الشارع الرئيس في المنطقة اسمه فردريك أو فردريتش سترات، وفيه محطة كبيرة لقطار المترو تنطلق منها خطوط كثيرة إلى معظم مناطق برلين الشرقية والغربية.

وفي أثناء تجوالي في برلين الشرقية وجدت أن فيها بعض الكآبة والمشروعات غير المكتملة والأراضي غير المعمورة أو البور، كما وجدت أن أعمدة الإشارات الضوئية غير مثبتة في الأرض وإنما موضوعة على الرصيف وعليها أجسام ثقيلة لتثبيتها. لم أجد منتصف برلين الشرقية مزدحمًا أو فيه تلك الحيوية والنشاط التي أعرفها في المدن الأوروبية التي زرتها، حتى باليرمو عاصمة جزيرة صقلية رغم تخلفها عن بقية المدن الأوروبية لكن فيها حيوية الشرق والعالم العربي.

أما الفندق الذي نزلت فيه فتملكه كنيسة أو شركة كنسية وفيه قاعة

للصلاة النصرانية يتوسط أحد جدرانها صليب كبير. ولو لم أنزل إلى غرفة الإنترنت لما رأيت تلك الغرفة. ووجدت في الغرفة إنجيلًا لم أعرف لأول وهلة أنه إنجيل لكثرة الصور الفوتوغرافية فيه، ومن الصور صورة خرائط جغرافية وصور لأشخاص في مهن مختلفة، وصور لرياضيين وصور لعروس وغيرها من الصور. ولكني فحصت عناوين الفصول فعرفت أنه الإنجيل. وفي داخله بطاقة صغيرة تقول: قبل أن تبدأ برحلتك السياحية للتجول في المدينة زر الكنيسة في الفندق أو ابدأ يومك بالعبادة. وهنا تساءلت هل يمكن لجمعية خيرية إسلامية أن تستثمر أموالها في الصناعة الفندقية؟ هل يسمح لها عدو «الإرهاب» الكبير أن تمارس التجارة؟ بل إننا ما زلنا حتى اليوم نفتقد المصحف في كثير من فنادقنا في العالم العربي وحتى اتجاه القبلة وهو أمر أساسي يفتقد كذلك. ولو سرنا خطوة إلى الأمام لقدّمت الفنادق ورقة بأوقات الصلوات للضيوف القادمين من خارج البلاد وبخاصة البلاد السياحية.

ومن الجميل في الفندق ورغم أن فيه قنوات تلفزيونية ألمانية تعرض إعلانات للجنس لكنه يمتنع عن وضع قناة التلفزيون المدفوع للأفلام بأنواعها. كما علمت في زيارتي ذات مرة لجامعة نيويورك أن الجامعة تستثمر بعض أموالها في قطاع الفنادق؛ وذلك حينما طلبت منهم أن يستضيفوني لأحضر ندوة عندهم. فهم عادة يكتفون بالمشاركات المحلية؛ لأن أمريكا قارة، ولكني أصررت أن أشارك بشرط أن تكون الاستضافة على حسابهم ؛ فأفادتني المديرة المشاركة أن الجامعة تملك أسهمًا في الفندق. أين استثمارات جامعاتنا حتى تنفق على الأساتذة والبحث العلمي بسخاء؟

وفي أثناء تجوالي في برلين الشرقية وجدت أن بعض الشركات الكبرى أسست مقارَّ لها في هذا الجزء كما هي خطة لنقل برلين الشرقية من حياة التقشف والفقر التي كانت فيها إلى حياة الترف والرفاهية للغرب، وربما يوجد الآن أثرياء في برلين الشرقية لكنهم أكثر في الغربية. كما شاهدت

لوحة على مبني للمركز الفرنسي الألماني لبحوث العلوم الاجتماعية. وكم كان بوُدّي أن أدخله لأتعرف على نشاطاتهم وما يقومون به من أعمال. لكن الفكرة أعجبتني، فأين مراكز البحوث المشتركة في بلادنا العربية الإسلامية؟ واسم المركز مكتوب باللغتين الفرنسية والألمانية

كان موعد المحاضرة التي قدمت من أجلها إلى برلين هي: «**الحرية الأكاديمية في الولايات المتحدة بين الإكراه والخصخصة: دراسة حالة الدراسات الشرق أوسطية والإسلامية في الجامعات الأمريكية بعد الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١م**» الساعة السابعة مساءً، وقد حضرت قبل الموعد بقليل. وفي أثناء تجولي في ممرات المبنى الذي تقام فيه المحاضرة رأيت إعلانًا عن أربع محاضرات لمركز الدراسات البريطانية ودونت بعض العناوين ووقعت في نفسي رغبة في زيارة هذا المركز لأعرف كيف يدرس الألمانُ البريطانيين.

أما المحاضر فهو البروفيسور بشارة دوماني المولود في السعودية وعاش فيها حتى سن الثالثة عشرة ثم انتقل إلى لبنان ومنها إلى أمريكا حيث يعمل في قسم التاريخ بجامعة كاليفورنيا فرع بركلي. وقد أشرف الدكتور دوماني على تحرير كتاب عن الحرية الأكاديمية في أمريكا بعد ١١ سبتمبر، ويتكون الكتاب من قسمين رئيسين: أحدهما يتناول الجانب النظري في الحديث عن الحرية الأكاديمية عمومًا وفي أمريكا خصوصًا، ثم في قسمه الثاني يتناول الهجوم على هذه الحرية من جهات عدة، منها المحافظون الجدد وأصحاب الشركات والمؤسسات المالية والمؤسسات والجمعيات الخيرية. ولا بد من كلمة هنا: فهل نحفل بالكتاب في العالم العربي كما يحفلون في الغرب؟ صحيح أن الكتاب يتناول قضية حساسة وخطيرة وهي تعرض الحرية الأكاديمية في الجامعات لمن يحاول أن يدمرها ويحطمها، ولكنهم يهتمون عمومًا بالكتاب والكاتب.

وعندما حان موعد النقاش طلبت الإذن لأسأل، فقلت له: كنت أتوقع

منك أن تـذكر أسماء بـارزة في الهجـوم عـلى الحريـة الأكاديميـة مثـل برنـارد لويس ومارتن كريمر ودانيال بايبس وليزا أندرسون، وتذكر موقع كـامبس واتش (Campus-watch.com) وموقع مشروع ديفيد (David) Project. أما الهجوم على الإسلام فهو أقـدم بكثـير مـن الهجـوم عـلى الحريـة الأكاديميـة، وأذكر محاضرة برنارد لويس في الكـونجرس الأمريكـي عـام ١٩٩٠م التـي عنونها: «نظرة المسلمين للحضارة الغربية ولماذا يكـره المسـلمون الغـرب؟» ونشرها بعد ذلك في مقالة في مجلة كبرى -(The New Republic) بعنـوان: «جذور الغيظ الإسلامي» ولويس هو مخترع مصطلح «صـدام الحضـارات» الذي أخذه منه صموئيل هتنفتون عام ١٩٩٣م. وزاد العداء للإسلام بعـد سقوط الشيوعية وانتهاء الحرب الباردة. وهنا تدخلت مديرة الحوار -لأنها ألمانية ولأسباب تخصها – ربما لأن الألمان يحذرون من اليهود- وقالـت: لا نحب هنا ذكر أسماء الأشخاص. وأجاب المتحدث باقتضـاب، ولكنـه فـيما بعد عندما تحدث عن الكتاب وأشـار إلى بحـث لجويـل بنـين (Joel Benin) عن هؤلاء وأنه ذكرهـم واحدًا واحدًا. و«بنين» يهودي وكـان رئـيس رابطـة دراسات الشرق الأوسط ولا يتعاطف مع إسرائيل؛ لذلك يهاجمه الصهاينة ويهاجمهم.

كانـت مـديرة مركـز الدراسـات الشرـقية الحديثـة (ZMO) ،أولريكـا فريتاخ، قد اتصلت بي في الفندق ترحب بي وتعرض عليّ أي مسـاعدة، ثـم اتصـلت بعـدها باحثـة جزائريـة اسـمها نـورا لافي أستاذة للتـاريخ تكـرر الترحيب وتدعوني في اليوم التالي للمشاركة في ورشة عمل غير رسمية مدة ثلاث ساعات يشارك فيها المحاضر بشارة دوماني حول التاريخ الاجتماعي للدولة العثمانية، وأن أتناول الغداء معهم. فشكرتهم على الترحيب وقلت: يسرني أن أحضر وأن أستمع.

وبعـد نهايـة المحـاضرة انتقـل عـدد مـن البـاحثين والعـاملين في المركـز للترحيب بالمحاضر في عشاء في مطعـم فخـم قريـب مـن مكـان المحـاضرة.

واستمرت حفلة العشاء حتى الثانية عشرة ليلًا، وسألت عن الذهاب إلى الفندق مشيًا وأنه لا خوف من ذلك. فقيل لي: إن البلاد أمان. وكان الأمر كما قالوا فقد مشيت ما يقارب الربع ساعة ورأيت الناس يتحركون في الشوارع المحيطة بأمان تام.

ذكرت أنني وصلت قبل موعد المحاضرة لأعرف المكان بدقة وحتى لا أتأخر عن البداية، وفي أثناء تجولي في المبنى رأيت إعلانًا من مركز الدراسات البريطانية، وأخذت القلم ودونت عناوين المحاضرات ومنها ما يأتي:

١- نهاية اللعبة ضيقة الأفق: اللاعبون الأجانب في بريطانيا بالمقارنة مع ألمانيا يقدمها البروفسور بيير لانفرانشي، أستاذ البحث التاريخي في المركز الدولي لتاريخ الرياضات والثقافة بجامعة دومونتفورب بمدينة ليستر البريطانية. ٢٤ أبريل ٢٠٠٦م.

٢- متى كان أول كأس عالمي حقيقي؟ ٨مايو ٢٠٠٦م.

٣- الرياضة والبطل الإنجليزي١٥ مايو ٢٠٠٦م.

٤- المواطنة والهجرة في بريطانيا ما بعد الحرب: الأصول المؤسساتية لأمة متعددة الثقافات، ويقدمها الدكتور راندال هانس، أستاذ كرسي كندا للبحوث في الهجرة والحكم بجامعة تورونتو بكندا. ٢٩مايو ٢٠٠٦.

رأيت هذه العناوين ووقع في نفسي- أنّي لو وجدت الوقت والطريقة لزيارة المركز ومعرفة تفاصيل أكثر عنه لفعلت. وفي اليوم التالي بدأتُ الساعة الثامنة حيث ذهبت إلى محطة المترو وكنت قد اشتريت تذكرة يوم كامل من الفندق، وعرفت المحطة التي سأنزل فيها والاتجاه، وكان الاتجاه اسمه وانزي (Wannsee K) والمحطة هي محكة نيكولازي (Nikolassee) وبعدها سرت في الطريق الذي يقع في المنتصف بعد الخروج من المحطة حيث هناك أربعة طرق كلها تتشعب بعد الخروج. وسرت وتذكرت

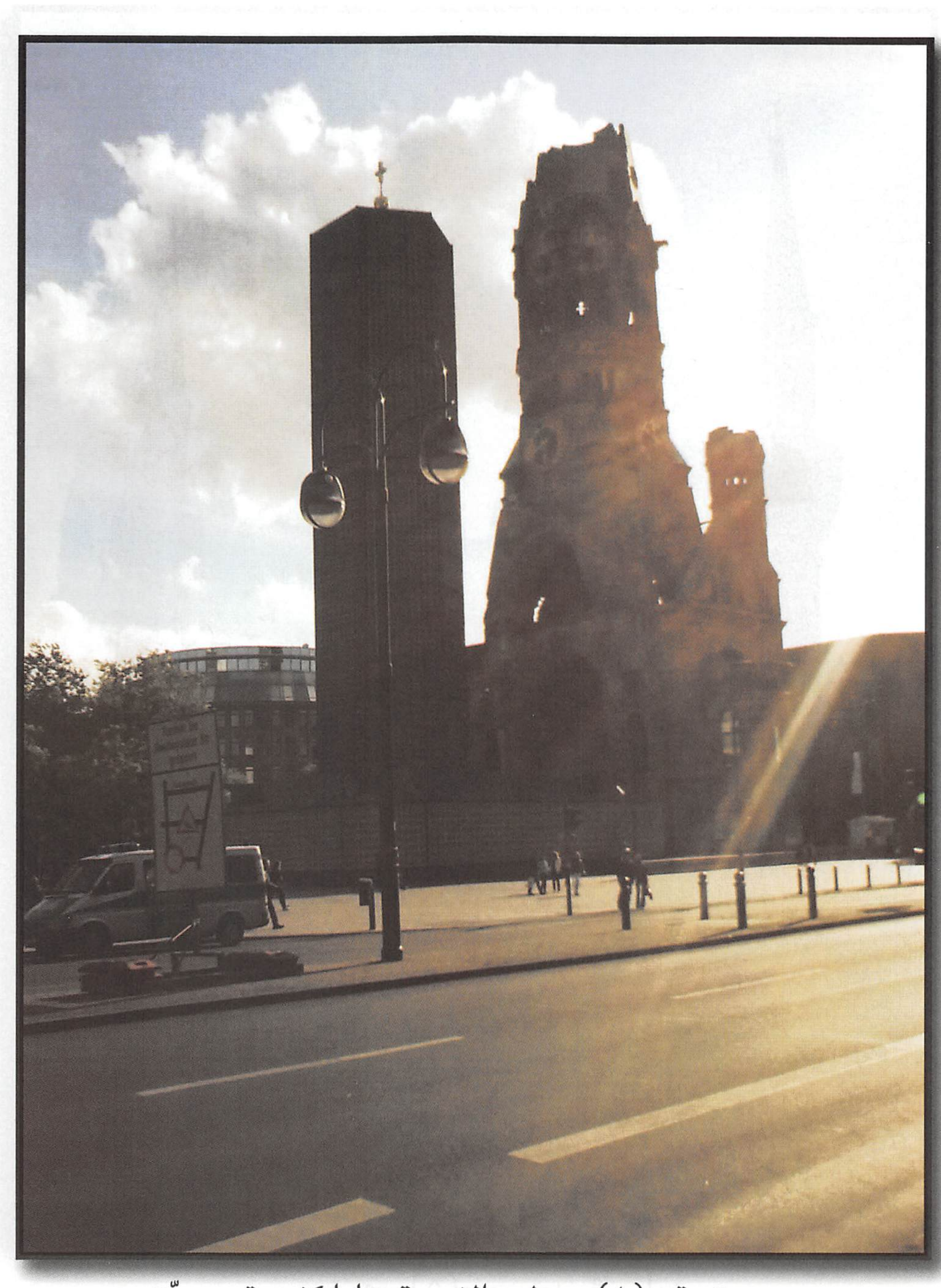
تعليمات الدكتورة نورا لافي باني سأجد درجًا فعلي أن أصعد الدرج، المهم أنه وان جزء من خريطة برلين الخاص بذلك الحي معي - وأعرف اسم الشارع - فسرت حتى وصلت إلى المكان الذي يقع في وسط حي سكني يتكون من مجموعة من الفلل في وسط غابة جميلة، فلا تجد بقالة ولا دكانًا من أي نوع حتى المشي كان على الأقدام فلم أجد أحدًا. والمكان هادئ جدًا يساعد على التركيز والبحث.

و كانت الساعة الثامنة والنصف صباحًا: أي أنني وصلت قبل معظم الباحثين والعاملين في المركز عدا المديرة، والسكرتيرة التي رأتني غريبًا فقالت: أتريد مقابلة المديرة؟ قلت: نعم إن كان وقتها يسمح بذلك. فأوصلتني إلى مكتب المديرة (فرايتاخ) التي رحبت بحضوري وذكرت لي أننا نستطيع أن نتحدث الآن قبل بدء ورشة العمل التي دعيت لها وكانت تبدأ في العاشرة تمامًا.

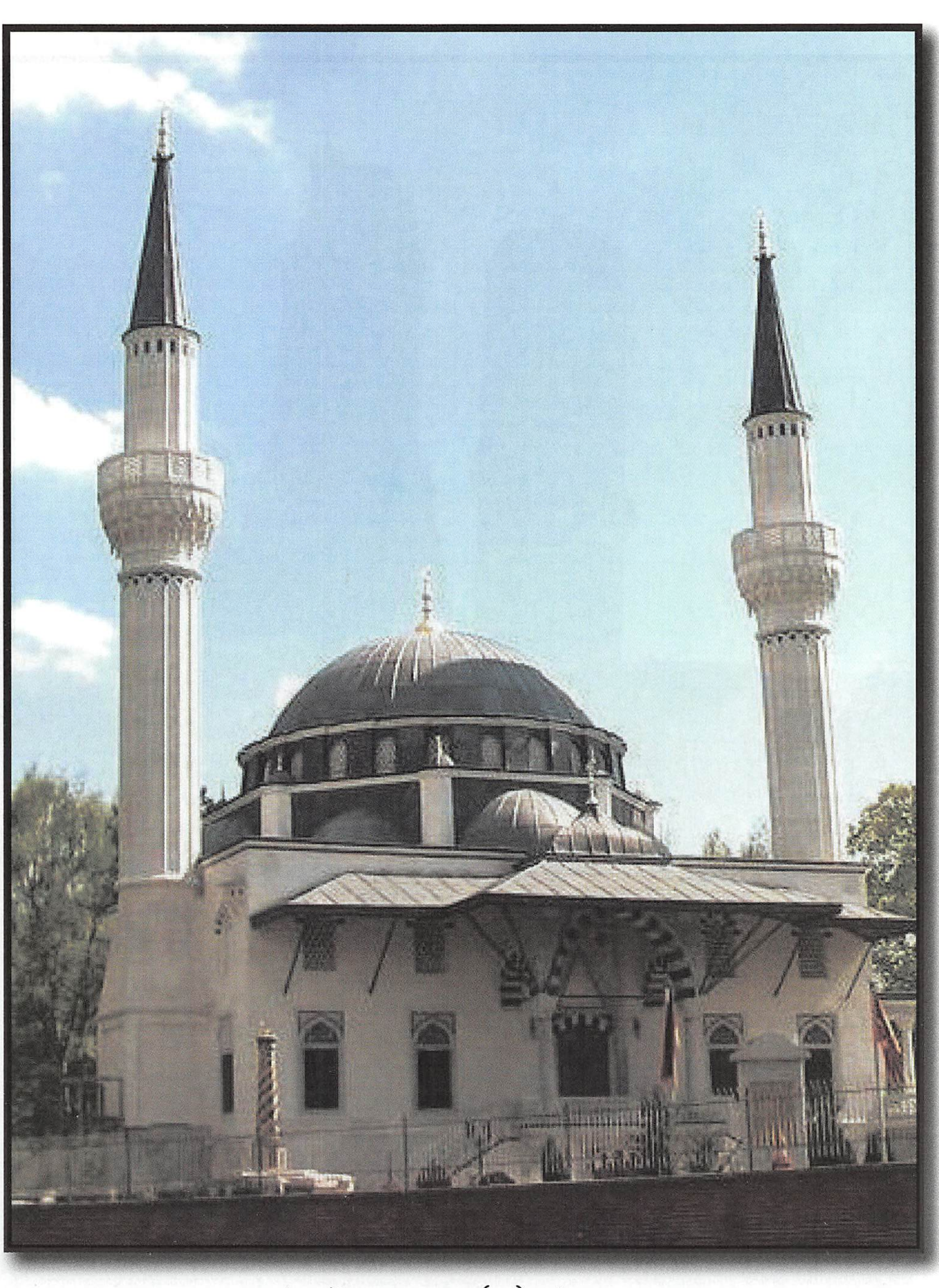
وصولي مبكرًا كان مفيدًا، وهكذا أحاول في سفري أن أنطلق إلى الموعد قبل ساعة أو ساعتين حتى إذا حدث أن ضعت وجدت الوقت لتصحيح الخطأ وقد أجد فوائد من الحضور مبكرًا.

اللقاء مع فرايتاخ كان مثمرًا حيث تحدثت معها عن قضايا التعاون العلمي والثقافي مع مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، واتفقنا على عدة أمور لتعزيز التعاون العلمي. وفي أثناء الحديث ذكرت لها أنني رأيت إعلانًا لمركز الدراسات البريطانية ولدي رغبة في زيارته، قالت: سأتصل لك بهم فزوجي يعمل هناك. وبالفعل رتبت لي موعدًا في الساعة الرابعة عصرًا.

وفي الساعة العاشرة بدأت ورشة العمل العلمية المعنونة بـ «التاريخ الاجتماعي للشرق الأدنى خلال عصر الدولة العثمانية»، وشارك فيها عدد من الباحثين من جامعة برلين الحرة، ومن مركز الدراسات الشرقية الحديثة



صورة رقم (٤) : برلين الغربية بقايا كنيسة مدمرّة
شاهدة على ويلات الحرب



صورة رقم (٥) : مسجد في برلين

(برلين) وبشارة دوماني من جامعة كاليفورنيا، كما شارك فيها باحثون ينتسبون لجامعات أخرى. وبدأت ورشة العمل. وكان الحديث عن الوثائق العثمانية وبخاصة سجلات المحاكم، والقضايا التي يرفعها بعض أفراد الأسرة ضد بعضهم، وكذلك الوثائق الخاصة بالأفراد. وكيف يتصرف الناس أمام المحكمة وكيف هم في حياتهم العادية. وتحدث كل واحد منهم عن البحث الذي يقوم به. وكان في بداية الجلسة تعارف؛ حيث قدم كل شخص نفسه والجهة التي ينتمي إليها واهتماماته العلمية. وذكرت اهتمامي بالاستشراق الذي أرى ضرورة تحويله إلى الاهتمام بالغرب. فما كان من إحدى الباحثات في علم الإنسان إلّا أن قالت: (**من الضروري أن تقوموا بدراسات حولنا، وحبذا لو كان عندك طلاب ليأتوا إلى ألمانيا لدراسة المجتمع الألماني وثقافته وعقائده وغير ذلك**).

انطلقت بعد الندوة لأذهب لموعدي مع مدير مركز الدراسات البريطانية. ووصلت قبل الموعد بقليل وبحثت عن الغرفة. وكان اللقاء مثمرًا حيث أمطرتهم بأسئلة عن البرنامج، وعن الطلاب والمناهج والنشاطات والمطبوعات ونوعية الطلاب والتدريب العملي الذي يتلقاه الطلاب، كما أكدوا لي أن زيارتي لو كانت مرتبة من قبلُ لأطلعوني على المحاضرات وعلى تفاصيل المناهج من الأساتذة حيث كان لديهم عطلة في تلك الأيام.

وقدموا لي كتيبًا عن العشر سنوات الأولى من حياة المركز. ويهمني أن **أقدم هذه المعلومات لعل عَيْنَ مسؤولٍ تقع عليها فيسعى إلى تطبيق الفكرة**، فهذا المركز أنشئ بعد انهيار جدار برلين حيث أسهم مكتب العلاقات البريطاني الذي كان لدولته قوات عسكرية في تلك المنطقة (لحماية برلين الغربية من الشيوعية).

افتُتِحَ المركز في يونيه ١٩٩٥م بحضور السفير البريطاني وحاكم مقاطعة برلين، وقد كان للملكة البريطانية كلمة في أثناء زيارتها الرسمية لألمانيا عام

١٩٩٢م تشجع قيام مثل هذا المركز، كما زار ولي العهد البريطاني المركز في السنة التي افتتح فيها. والمركز مرتبط بجامعة هبمولت (Humboldt) . أما مجلس أمناء المركز فيتكون من عشرة أعضاء بعضهم أساتذة جامعات والبعض الآخر مسؤولون في القطاع السياسي والاقتصادي البريطاني والألماني، ورئيس مجلس الأمناء هو السير بول ليفر (Sir Paul Lever KCMG)، ومن الأعضاء رئيس المجلس الثقافي البريطاني في ألمانيا مايكال بيرد (Michael Bird).

والمركز يقدم برنامج ماجستير في الدراسات البريطانية تتضمن دراسة منهجية مدتها سنة، ثم مدّة تدريبية في مؤسسة بريطانية (مثل هيئة الإذاعة البريطانية، أو الخارجية البريطانية أو مجلس النواب ومجلس اللوردات أو الغرف التجارية البريطانية، وغيرها من المؤسسات). ويقبل الطلاب من أي تخصص كان فلا مانع أن يكون الطالب متخصصًا في الهندسة أو الكيمياء أو الطب أو الفيزياء، فالمهم أنه يريد أن يعرف بريطانيا أكثر، أو يطمح إلى العمل في بريطانيا، فحين يتقدم لوظيفة هناك ومعه درجة علمية في هذا التخصص يكون ذلك أدعى لقبوله.

ويبلغ عدد الطلاب الحالي خمسة وعشرين طالبًا، رغم أن عدد المتقدمين للبرنامج أكثر من مائة وعشرين طالبًا، لقد أصبح للبرنامج سمعة علمية كبيرة. لذلك فشروط القبول ليست سهلة من ناحية القدرات العلمية والعقلية. والطلاب ينتمون إلى دول عديدة منها الولايات المتحدة الأمريكية وأوكرانيا والفلبين والبوسنة وكندا وفرنسا وبلغاريا وبولندا وروسيا وكرواتيا والصرب وألمانيا والصين. وليس بينهم أحد من العرب وربما كان البوسنيون مسلمين.

ويذكر التقرير السنوي لعام ٢٠٠٥م نشاطات أعضاء هيئة التدريس والمؤتمرات التي حضروها واللجان التي شاركوا فيها والكتب والمقالات والبحوث التي نشروها. فمن هذه النشاطات على سبيل المثال ترؤُّس

البروفيسور دانمان (Dannemann) الاجتماعَ السنوي للرابطة الألمانية للدراسات البريطانية لدراسة التاريخ والسياسة، وكان عنوان اللقاء: «تحديث بريطانيا: تأثير حزب العمال الجديد».

وللمركز ندوة سنوية تصدر بحوثها في كتاب وقد أهديت أربعًا منها وعناوينها كالآتي:

١- الثقافات البرلمانية: وجهات النظر البريطانية والألمانية.

٢- مستقبل دولة الرعاية.

٣- مناظرة حول الإعلام: وجهات النظر البريطانية والألمانية.

٤- قانون الجمعيات الخيرية والتغيير: وجهات النظر البريطانية والألمانية.

وكانت رحلة العودة من برلين إلى المملكة تنطلق الساعة السابعة والأربعين دقيقة، فقد اضطررت إلى الخروج مبكرًا وكان سائق سيارة الأجرة رجلًا عجوزًا يسير ببطء حتى إن بعض الإشارات تصبح حمراء قبل وصولنا إليها بوقت قصير، فقلت: أهو عيب في الإشارات كما عندنا هي دائمًا حمراء أي ليس لها نظام تسير عليه أو أن السائق يتعمد السير ببطء حتى تزداد الأجرة؟ لا أدري! وبالرغم من وصولي مبكرًا فقد كان هناك عدد من الرحلات قبل رحلتي وحاولت أن أسافر قبل الموعد حتى لا أحتاج إلى الركض في مطار فرانكفورت، ولكن قيل لي: إن جميع الرحلات مملوءة بالكامل. وهذا عجيب، رغم أن اليوم كان أربعاء فهو ليس عطلة نهاية الأسبوع، ولكن ربما كان عندهم موسم لا أعرفه.

وتأخر إقلاع الرحلة ووصلت فرانكفورت ولم يكن باقيًا على موعد الرحلة إلى الرياض سوى عشرة دقائق فاضطررت إلى السير بسرعة حتى إذا وصلت مكتب الخطوط الألمانية قالوا لي: إن الرحلة تأجلت ربع ساعة. وبعد ذلك عرفت أن الطائرة تأخرت بسبب الركاب القادمين من

مدن ألمانية أخرى أو من خارج ألمانيا.

ماذا أفدت من هذه الرحلة وما فيها من متع ومشاق:

أولًا: زرت أربع مدن في أقل من عشرة أيام: حيث زرت: بيزا وبرجها المائل، ومونتي كاتيني وفلورنسا، وبرلين (الشرقية والغربية).

ثانيًا: اطلعت على النشاطات الاستشراقية في كل من إيطاليا وألمانيا، وتعجبت: لماذا ينفق الغرب كل تلك الأموال لدراستنا، ويستضيف باحثين عرب ومسلمين ليقدموا دراسات وبحوثًا عن بلادهم.

ثالثا: المدن مثل الأحياء، بعضها للفقراء المساكين وبعضها للأثرياء المترفين، فبيزا مسكينة على حين أنّ مونتي كاتيني للأثرياء المترفين.

رابعًا: أسست لصلات علمية أرجو أن تستمر وتكون فيها فرصة لتقديم معلومات عن الإسلام وشريعته إلى الغربيين وتقديم وجهة نظر لا يسمعونها عادة، حيث إن معظم مَنْ التقيت بهم من المتأثرين بالفكر الغربي.

الرحلة الهولندية

١٦-يناير – ٥فبراير ٢٠٠٩

جامعة ليدن:

يجذبك لبعض البلاد أشياء لا تدري كُنْهَها، فهولندا في حياتي وذاكرتي قديمة جدًا، ففي أيام الدراسة في أمريكا كنت مغرمًا بالمراسلات فكنت أكتب إلى شخص في هولندا نسيت كيف تعرفت إليه، وحتى إني أسهمت في حل بعض مشكلاته العاطفية بأسلوب قال عنه: إنه حكيم. وكانت لي مراسلات مع شاب في نيجيريا مازلت أذكر اسمه بعد أكثر من ثلاثين سنة وهو أغستو أدمولا (وهو من أسرة أصولها مسلمة ولكنه تنصّر) وبعد عدة مراسلات بدأ يطلب المساعدة المادية، وكنت أكثر حاجة منه، فانتهت المراسلات.

وفي إحدى رحلات عودتي في الإجازة في أثناء دراستي في الولايات المتحدة قررت أن أزور هولندا وفي هذا تغلب على قرار الخطوط السعودية أنك لا بد أن تستخدمها من أي نقطة أوروبية إلى المملكة، فلا أدري كيف تحايلت عليهم وجئت هولندا ومنها إلى إيطاليا ومن إيطاليا إلى بيروت ثم عمّان (الأردن)، ومن عمّان إلى جدة (وكان خط سير الرحلة الذي لم أعرفه يمر بالمدينة وفي مطار المدينة صعد موظف الجوازات فرآني وهو يعرفني. واسمه عبد الله أبو الطاهر (رحمه الله) فقال لي: لماذا تذهب إلى جدة فيسر لي الهبوط في المدينة فأخذ جوازي وقال: سأحضر لك حقيبتك) ونزلت بالفعل في المدينة بدلًا من جدة.

المهم أنني جئت إلى هولندا بعد أن أمضيت في مطار نيويورك أكثر من عشر ساعات في محاولات عنيدة لتغيير خط سير رحلتي التي كانت في الأصل من مدينة بورتلاند إلى نيويورك ثم لندن ومنها إلى جدة فأصررت مع موظفي خطوط تي دبليو إي (TWA) التي كانت وكيلة للخطوط السعودية حينها أن يغيّروا خط السير ونجحت (يبدو أن العناد والإصرار قديمان لدي وإن كنت لا أعترف كثيرًا)، وصلت إلى مطار أمستردام حوالي الساعة الثانية بعد الظهر وفي المطار بحثت عن فندق. فوجدت فندقًا صغيرًا

مناسبًا لإمكاناتي المتواضعة حينها (وحتى الآن والحمد لله)، وكان الدرج في الفندق شبه عمودي وكل درجة أكثر من أربعين سنتيمترًا. ومع البقاء في المطار مدة طويلة ومع السفر الطويل من نيويورك إلى أمستردام وصلت ومعدتي في حالة يرثى لها. فما أن دخلت الغرفة حتى نمت نومة طويلة (وما العيش إلّا نومة وتبطح تحت النخيل وماء)، وكان يوم وصولي الخميس وكنت أنوي أن أذهب إلى السفارة الإيطالية لأحصل على تأشيرة لزيارة إيطاليا. فبعد أن نمت عدة ساعات استيقظت الساعة الثامنة (مساءً) وظننتها الثامنة صباحًا فحسبت عدد الساعات التي نمتها فكانت حوالي سبع عشرة ساعة (ولكن في الحقيقة كانت أربع أو خمسًا من الساعات).

خرجت من الفندق متوجهًا إلى السفارة فوجدت الباب مغلقًا، فقال لي الحارس: (لم تكن الحراسات مشددة في تلك الأيام) تعال غدًا. فقلت له كيف آتي غدًا وغدًا السبت ؟، قال: غدًا هو الجمعة، فلم أصدقه. وعدت أدراجي راضيًا بالهزيمة. وسرت في شوارع أمستردام وأسواقها، وكان الجو غائمًا وممطرًا فظننت أن النهار عندهم مظلم، ولكن بعد قليل بدأت المتاجر تغلق أبوابها فعرفت أنني مازلت في يوم الخميس ولست في يوم الجمعة. فعدت أدراجي إلى الفندق لأنام وفي اليوم التالي أذهب إلى السفارة الإيطالية التي منحتني التأشيرة دون تعطيل.

لا أذكر شيئًا عن إقامتي تلك في هولندا. ولكن شاء الله أن تكون لي عودة إلى هولندا في رحلة أخرى مع وفد من الخطوط السعودية (عملت فيها أكثر من اثنتي عشرة سنة) وأقمت ليلة واحدة في وسط العاصمة وكانت الرحلة مدتها يوم واحد.

ثم تعرفت إلى أحد الموظفين في إدارة الشؤون الدولية في الخطوط الهولندية KLM وكان متخصصًا في التاريخ ولعله كان يحمل درجة الماجستير ولكنه قرر العمل في الطيران، فكان ثمة تشابه بيني وبينه. فتفاوضت معه على أن يعطوني دورة تدريبية في كيفية عمل إدارة الشؤون

الدولية. فخططت مع مديري أن يستضيفوني مدة أسبوع (على حساب الخطوط السعودية) وهم سوف يرتبون لي الاطلاع على كيفية عمل إدارتهم. وبالفعل جئت إلى أمستردام ومقر الخطوط الهولندية في مدينة أمستلفين في ضواحي أمستردام، وفي منطقة غابات. وقد زُرِعت تلك الغابات في وقت كانت هولندا تمر بمرحلة كساد اقتصادي فكيف يجعلون الناس يعملون أي شيء مقابل أن يوفروا لهم ضرورات الحياة لذلك كلفوهم بزراعة تلك الغابة. (**فكرة طريفة، لو تفعلها الدول التي تعاني من البطالة، مع أن التجنيد الإجباري أو الخدمة الوطنية يمكن أن تكون فرصة للمترفين من أبنائنا أن يتعلموا مهنة أو يتقووا وتشتد سواعدهم بدلًا من إضاعة الوقت في قيادة السيارات دون فائدة**).

وأمضيت أسبوعًا في تلك الإدارة. سألت كثيرًا وسمعت كثيرًا ورجعت وكتبت تقريرًا لرئيسي المباشر أقترح بعض الأمور. ووضع التقرير في الدرج. ولكن رئيس الإدارة (أعلى من رئيسي المباشر) وهو مساعد المدير العام للشؤون الدولية (الخطوط السعودية فيها مناصب نائب الرئيس وليس هناك رئيس وإنما مدير عام) وهو رضا حكيم - رحمه الله - فلم يعجبه ما قمت به. ظن أن هذا تمرد مني عليهم واختراع أشياء لا وجود لها. وبعد سبع سنوات من مغادرتي الخطوط علمت أنهم طبقوا بعض اقتراحاتي ومنها: بدلًا من فصل إدارات الشؤون الدولية إلى اتفاقيات ثنائية، واتفاقيات تجارية، واتفاقيات الصندوق المشترك، يقسم العالم جغرافيًا وتصبح كل إدارة مسؤولة عن جميع الاتفاقيات، وكان من بين الاقتراحات عدم التقيد بدفتر حضور وانصراف لموظفين يكلفون بأعمال معينة فعليهم أن ينجزوها في وقت محدد فإن جاءت السابعة والنصف أو الثامنة أو التاسعة فعيب أن نطلب منه أن يوقع وأن يكون جمادًا فوق جماد.

ولما تركت الخطوط السعودية وامتيازات الطيران ظننت أن عهدي بالسفر قد ولّى، فقد كان من حقي في تلك الأيام الخوالي أن أحجز حجزًا

مؤكدًا على السياحية وإن توفرت مقاعد في الأولى صعدت إلى الأولى، كما كان بإمكاني الحصول على تخفيض في الفنادق يصل إلى خمسين في المائة، وكان الراتب أضعاف راتب المحاضر المسكين في الجامعة. (حصلت على الدكتوراه وعملت أكثر من عشر سنوات في الجامعة لم يصل راتبي إلى ما كان عليه أيام عملي في الخطوط). ومع ذلك فلم أكن كثير السفر لظروف لا أستطيع البوح بها. وجاءت أيام الجامعة، فكنت أستأذن لحضور المؤتمرات عسى الجامعة أن توافق، فكان كثير من طلباتي أو استئذاناتي يحفظ في الأدراج أو يلقى في المهملات، ويتفضلون أحيانًا بالرد بالموافقة وهو الأقل.

وفي يوم من الأيام ذهبت إلى البريد ووجدت ظرفًا كُتِب عليه (الولد مازن مطبقاني) فتعجبت من كلمة الولد، ولكن فتحت الظرف فإذ به معلومات عن المؤتمر العالمي الأول حول الإسلام والقرن الواحد والعشرين يعقد في جامعة ليدن في أواخر شهر يونيه سنة ١٩٩٦م. فأدرت جهاز الحاسب وكتبت فكرة موضوع عن ابن باديس والتنمية. وكان البحث لدي باللغة العربية، وأرسلته بالفاكس من البيت (كان لدي فاكس منذ وقت مبكر وكان الهاتف مفصولًا عن الفاكس) وبعد وقت تلقيت الموافقة. وكان المنظمون للمؤتمر سألوا الدكتور قاسم السامرائي أتعرف هذا المطبقاني الذي يريد أن يحضر المؤتمر، ما مستواه العلمي؟ فرد بما يرضيهم. وكان الدكتور قاسم هو الذي بعث إلي تلك الرسالة المعنونة بـ (الولد) ثم علمت أن الولد كلمةُ تَحَبُّبٍ لدى العراقيين، وليست تقليلًا من شأن من تكتب إليه)، والعجيب أنني كنت الوحيد من السعودية على حين حضر من الأزهر ومن مصر أكثر من عشرين باحثًا وكان السفير المصري يرافق الباحثين وأقام لهم دعوة للعشاء أو الغداء.

وقدمت للجامعة في وقت مبكر وجاءت الموافقة من المقام السامي على تمثيلي للمملكة، حتى إن وزارة الخارجية أبلغت السفارة بذلك، وقامت السفارة بدورها بالاتصال برئاسة المؤتمر أني أمثل المملكة، وأنا لم أكن أريد

أن أمثل أحدًا، كنت أريد أن أحضر المؤتمر وأتعلم. وبالفعل حضرت المؤتمر في ليدن. ولقيت أحد موظفي السفارة أو -إندونيسيًا متعاونًا مع السفارة- وقلت له قل للسفير بلا احتشام مقال مذكر ما قد نسيه: إذا كنت ممثلكم كما تقولون لم لا يتصل بي؟ لمَ لا يأتي للسلام عليّ؟ إن مقام العلم أعلى من مقام المنصب. ولم يحر جوابًا، وكتبت ذلك في تقريري للجامعة ولوزارة التعليم العالي ولكل من يصل إليهم التقرير.

الوصول إلى ليدن وبحث التفرغ :

حضرت المؤتمر الدولي حول العالم الإسلامي والقرن الواحد والعشرين، وكان المؤتمر يتكون من ثلاثة محاور(أُعِدّت بعناية) الأول: عن التنمية، والثاني: عن التعليم، والثالث: عن المسلمين والعولمة. وكان الحضور من جنوب شرق آسيا واضحًا ومميزًا، ولكن الحضور المصري كان واضحًا أيضًا (عقد المؤتمر الثاني في مصر وكان من المقرر عقده في إندونيسيا والثالث في المغرب). وتجدون في موقع مركز المدينة المنورة تفصيلات عن المؤتمر على الرابط الآتي:

http://madinacenter.com/post.php?DataID=285&RPID=285&LID=3

وعدني الأخ محمود صيفي (طالب مصري يحضر للدكتوراه في قسم الأديان في جامعة ليدن) بمساعدتي في الحصول على شقة، وحاولت الاتصال به قبل وصولي إلى ليدن وتعثرت الاتصالات، وشاء الله أن يعرف يوم وصولي من استوكهولم بالسويد، ولكن توفيق الله - عز وجل- يسر لي أن ألقاه في مطار أمستردام هو وبعض الزملاء كانوا قد جاؤوا لوداع زميل لهم متوجه إلى الحج. فصحبتهم إلى ليدن حيث أخذني إلى الشقة التي يملكها أخ مصري مقيم بين مصر وليدن. وكانت أجرتها خمسمائة يورو (لو كانت معي زوجتي وابني، ومائتان وخمسون لو كنت وحدي وهذا الذي كان).

ها أنا في هولندا في شهر ديسمبر في السابع عشر منه، وليدن مدينة صغيرة على بعد نصف ساعة تقريبًا بالقطار من أمستردام، وهولندا كلها بلد صغير لا تزيد أطول مسافة من أقصاها لأقصاها عن أربعمائة كيلومتر، ومع ذلك فقد اشتهرت بصناعاتها واحتلالها إندونيسيا، وما زال لها تأثير هناك حيث عقدت الحكومة الإندونيسية، وبخاصة وزارة الشؤون الدينية، على أن يواصل الإندونيسيون دراساتهم العليا في الدراسات الإسلامية في هولندا، وتستقدم إندونيسيا أساتذة من هولندا. والتأثير في الغالب من طرف واحد وهو المستعمر القديم في التابع الجديد. وهولندا ربما تكون هي صاحبة شركة شل العالمية المتعددة الجنسيات، وهي التي يباع النفط الحر على شواطئها، ولكن ما معنى النفط الحر؟ لا أعرف. وهل يفيد أن نعرف؟ أترك لكم التفكير والإجابة.

وصلت الجامعة وذهبت للقاء البروفيسور كوننجزفيلد (von Konningsveld) وبعد الترحيب والمجاملات دخلنا إلى الموضوع، فقال لي: كيف تفكر في هذا الموضوع وأنت لا تعرف اللغة الهولندية، إن كثيرًا من الرسائل العلمية بهذه اللغة، وكذلك التقارير والمراسلات الرسمية باللغة الهولندية. لا بد أن تتعلم الهولندية. وإن لم يكن بإمكانك فالأفضل أن لا تبحث في هذا الموضوع. وأفضل لك أن تذهب إلى بريطانيا وتبحث في الاستشراق الإنجليزي. حاولت أن أقنعه من أنني أعرف أن كثيرًا من الرسائل باللغة الإنجليزية وأنتم تعقدون مؤتمراتكم باللغة الإنجليزية. فأصر أن الموضوع لا يصلح. ومع ذلك فقد أعطاني رسالتَيْ دكتوراه: واحدة حول الأوروبيين الذين أسلموا وأثرهم في المجتمعات الأوروبية وفي العالم الإسلامي ومن هؤلاء على سبيل المثال: مراد هوفمان وجارودي وغيرهما. وهي رسالة ضخمة طبعت باللغة العربية في دار نشر في بيروت ومعدّها باحث عراقي شيعي. أما الرسالة الثانية فكانت باللغة الإنجليزية حول الإصلاحات في تونس في زمن الدولة العثمانية.

خرجت من عند كوننجزفيلد وأنا أفكر كيف أبحث في موضوع صعب كهذا؟ وماذا أقول للجامعة التي أعطتني تفرغًا عامًا كاملًا لأعد بحثًا عن هذا الموضوع؟ لقد أخذت أسير في شوارع ليدن على غير هدى. لقد استطاع كوننجزفيلد أن يعكر مزاجي ويقلب أفكاري. وكأنه هو مفتاح البحث، أو لعلي ظننت هكذا عندما قابلته. وهمتُ على وجهي ذلك اليوم. فأخذت أمشي على غير هدىً، خطواتي ثقيلة كأنني أحمل هموم الدنيا، ولو رأيتني لقلت ما لهذا العجوز يمشي وحيدًا شارد الذهن! أقرأ أحيانًا لافتات المحلات وأحيانًا أنظر في المتاجر والناس، هذه تجُرُّ ابنًا وتلك تجر ابنة، وهناك مجموعة من النسوة يجرون مجموعة من الأطفال، فأتساءل هل لهؤلاء الأطفال آباء؟ لقد قرأت عن الأسر في الغرب ذات الوالد الواحد (أب أو أم) فصرت لا أتخيل إلّا النادر من الأطفال عندهم مَنْ يعيش في أسرة من أب وأم. كما أنني تساءلت: كم من هؤلاء الأطفال يعرف أباه حقيقة؟ عندما تقرأ الإحصائيات التي تقول إن ربع المواليد بلا آباء وربما أكثر. وقد ذكرتْ إحصائيات عن بريطانيا أن أكثر من أربعين في المائة من الأطفال يولدون سِفاحًا، وفي بعض المناطق أكثر من خمسين في المائة.

ومعرفة الأب جعلتهم في لوس أنجلوس -كما قالت الصحف ذات يوم- يؤسسون مختبرات لفحص حامض ال(دي إن اي DNA) ليتأكد الفرد أن من يدعي أنه أبوه هو أبوه. وقد اشتهرت أغنية فرنسية عن شاب يبحث عن عروس فكلما وجد واحدة تعجبه يذهب إلى أبيه ويقول له:فلانة جميلة اخطبها لي، فيقول الأب: ولكنها أختك، حتى إذا ضاق به الحال ذهب إلى أمه وقال لها ما يقول أبوه، فقالت له: ولكن يا بني حتى أبوك قد لا يكون أباك.

وأسير في الشارع فيقابلني عرب أسمع منهم اللهجة المغربية ولكنهم حين يلتقون يحيون بعضهم بالفرنسية :سافا سافا، أو سافا بيان، أو كومن سافا؟ ويأتي الرد: بيان بيان (لا تنطق النون حين تكون متقنًا للفرنسية) ثم

يتحدثون بعد ذلك بلغة مختلطة بين العربية والفرنسية والإنجليزية والهولندية. وأتساءل: هل هذا لعدم القدرة على الحديث بلغة واحدة أو إنهم لا يستطيعون أن يفصحوا عن أنفسهم إلّا بهذه الطريقة.

وأستمر في المشي على غير هدى، أدخل محل أحذية ومحل ملابس فأجد تخفيضًا هنا أو هناك فأضرب اليورو بخمسة)، وبعد عملية الضرب الحسابية أجد أن الأسعار أكثر من قدراتنا المحدودة، فأشكو حالي إلى الله (في الشعر العربي باب اسمه شكوى الحال) عامل محطة بنزين أفضل حالًا من أستاذ جامعي،(ماسح الأحذية في اليابان ربما يكون أحسن حالًا من أستاذ جامعي في بلد عربي ما) ثمّ أخرج لا ألوي على شيء، وكيف لا ألوي على شيء؟ إنه تعبير قرآني وما أجمل التعبيرات القرآنية كلها. فهل معناها لا ألتفت إلى شيء أو لا أهتم بشيء.

ويستمر المشي والتفكر والتأمل، أو يكون الذهن كالصفحة البيضاء لا تَفَكُّر ولا تَأَمُّل ولا تَدَبُّر. أكون كالدراجة التي تركها صاحبها عند باب المحطة ولم يعد لها. فجمعتها البلدية وباعتها جملة. ماذا لو فتحت متجرًا لشراء هذه الدراجات وأعدتها إلى الحياة بتجديدها وبعثها إلى الحياة من جديد أو بعتها للدول العربية (قيل: إنهم يفعلون بأجهزة الكمبيوتر القديمة يبعثونها إلينا في العالم العربي) أو كما يفعلون بسلاحهم القديم يجددونه ويصنفرونه (الصنفرة عبارة حجازية) ويبيعونه لنا على أنه آخر ما أنتجت مصانعهم، وربما آخر هذه تعني الأخير في الجدة والتطور. المهم أنّ أحد الأساتذة في مؤتمر ثقافة الخوف الذي عقد في عمّان في جامعة فيلادلفيا قبل سنوات، تحدث عن صفقة الأسلحة التي اشترتها لبنان من الولايات المتحدة الأمريكية واقترضت المليارات لتسديد ثمن تلك الصفقة. من أين جاءت تلك الأسلحة؟ قال -والعهدة على الراوي- إن أمريكا أرادت أن تتخلص من أسلحة قواتها في ألمانيا التي أصبحت خردة فبدلًا من أن تتخلص منها بالرمي، رَشَّت بعض الهدايا والعمولات فاشترتها لبنان،

وأنشؤوا أضخم مصانع لإعادة تأهيل تلك الأسلحة، ولما وصلت إلى لبنان بدأت تظهر عيوبها بسرعة؛ فالشاحنات ما إن تتحرك قليلًا حتى تتعطل. فوا أسفاه على أموال الشعب الذي يدفع الضرائب ويكون سلاحه خردة، فافرحي يا إسرائيل. بالمناسبة عندما هزمنا في حرب ١٩٦٧م قال أحدهم: باعونا أسلحة فاسدة، وكانت الأسلحة الفاسدة للفاسدين.. وسكت مازن عن الكلام المباح.

مشاهدات في شوارع ليدن والجامعة:

وانطلقت هائمًا على وجهي ولكن كيف يهيم الناس على وجوههم؟ لا بد أن أسأل أحد هؤلاء الهائمين. ومما يقال في اللغة العربية: هام حبًّا، أو يهيم حبًّا، والعجيب أن يهيم غالبًا ما تأتي بصيغة المضارع. وكان اليوم الاثنين - فيما أذكر - ولكن المتاجر كانت مغلقة حتى الثانية عشرة ظهرًا، ثم بدأت تُفتح وقرأت على أبواب بعض المتاجر أنها تعمل من الثانية عشرة إلى الخامسة فحسبت الساعات فوجدتهم يعملون ذلك اليوم خمس أو ست ساعات. فهل يتقاضون راتبًا كاملًا عن هذه الساعات القليلة. ولكن تبيَّن لي أن ذلك اليوم يوم خاص، فالعمل يبدأ من التاسعة صباحًا أو العاشرة.

وقريباً من المكتبة ثمة مطعم، ولكن عند مدخل المطعم رأيت جمهورًا من الناس يشترون القهوة والشاي والماء الحار والحساء والشوكولاته من آلة تتحدث الألمانية والهولندية والإنجليزية وتعرفت إلى الآلة وتفاصيلها وبحثت عن مكان أضع فيه النقود فلم أجد فرأيت امرأة تقف أمام الآلة الأخرى التي بجواري وتستل بطاقة من محفظتها وتلقمها للآلة فتعمل، فعلمت أن الآلة لا تحب النقود المعدنية. وعرضتْ عليّ المرأة أن تشتري لي القهوة وسألتني عن شكل القهوة التي أريد (شكل هذه تعبير حجازي أي لونها وطعمها وتركيزها). فأعطتني القهوة ونقدتها الفلوس. وتذكرت أنه عندنا نقول كيف آخذ مبلغًا زهيدًا. وهنا أتذكر بعض الباعة المصريين عندما يضحك على الزبون (بعضهم قد يكون صادقًا) فيقول: (ما تخلّي)

يعني المبلغ علينا. ولكنها لم تفعل وأخذتْ الفلوس وشكرتها.

وفي هذا اليوم زرت قسم لغات وآداب الشرق الأدنى (ما زالوا يستخدمون المصطلحات الاستعمارية القديمة) يا جماعة، نحن لنا اسم فلسنا شرقكم الأدنى ولا الأوسط ولا الأقصى.) وعرفت أن القسم لديه ندوة مدتها يومان عن الأواني الخزفية والنحاسية والمعدنية في الحضارة المصرية القديمة والذي يقيم المؤتمر قسم المصريات. والاهتمام بالفراعنة أمر قال لنا عنه الدكتور جمال عبد الهادي عندما درسنا علم الآثار عام ١٣٩٤هـ: إنّه أمر يقصد منه إثارة النعرات الجاهلية والقوميات التي اندثرت، فتجد بعض المصريين اليوم يقول أنا لدي حضارة عمرها سبعة آلاف سنة. مهما بلغت من العلم والتقدم والرقي، يكفي أن ملوكهم كانوا يدفنون في مقابر تحتاج آلاف العمال ومئات الأيام لبنائها.

وبعد مشقة وصلت إلى من أسأله عن القسم كنت قد تعبت قليلًا، فقلت في نفسي: إن مثل هذا البحث كان ينبغي أن يقوم به باحث شاب لا عجوز اقترب من الستين، ولكن ماذا أفعل؟ تقدمت بطلب التفرغ عام ١٤٢١هـ ولم أحصل عليه إلّا عام ١٤٢٨هـ بسبب أن المدير (محمد السالم) كان يرى أن التفرغ منّة من الجامعة وليس حقًّا للأستاذ ولذلك أمر مساعِدَه محمد الربيع أن لا يعرض أوراقي في المجلس العلمي. (انظروا كيف يقع التآمر! ومتى يحاسب هؤلاء؟).

وخرجت من هذا القسم وأنا أردد: (ما أحلاها عيشة الفلاح) وماذا يفعل الفلاح؟ يستيقظ فجرًا فيصلي ويحلب شياهه أو بقراته أو جواميسه (مالفرق بين الجواميس والبقر؟) ويخرج إلى حقله ويعمل قليلًا ثم يتناول الإفطار المصنوع من كل شيء طازج. ويبقى في العمل حتى منتصف النهار فيقيل قليلًا (أقيلوا فإنّ الشياطين لا تَقيلُ) ولكن لا نستطيع أن نكون كلنا فلاحين، فمن يشتري بعد ذلك بضاعة الفلاح؟ ولكن في عالم الرأسمالية ظُلِم الفلاح كثيرًا: فإما أن تكون صاحبَ مزرعة ضخمة

وإلّا فعيشتك صعبة. ورأيت كيف أن مجموعة الفلاحين تعاني معاناة كبيرة هنا في إكستر، يرجون الناس أن يشتروا منهم حتى تتاح لهم الفرصة أن يعودوا إلى وسط المدينة بعد أن منعوا زمنًا.

وذهبت إلى المكتبة وأردت أن أكون نظاميًا (كما هي عادتي !! لا أحد يضحك) فقدمت للموظف خطاب الجامعة الذي يعترف بأنني متفرغ (إياكم والتصريفات الأخرى للكلمة) وأريته جواز سفري، فأخرج بطاقة من الدرج وعليها أرقام ما يسمى الباركود (الرمز التشفيري) ليمكنني من الاستعارة من المكتبة، وسأل: كم المدة قلت شهر، قال لا سأعطيك للسنة بكاملها كما جاء في إفادة جامعتك أنك متفرغ كل العام.

وكان عليّ أن أزور مكانًا آخر يسمى اختصارًا (إزم) وباللغة الإنجليزية (ISIM) ومعناه المعهد الدولي لدراسات الإسلام في العصر الحديث. ووجدت الباب مغلقًا، فرجعت. وكان علي أن لا أرجع، والسبب أن بجوار الباب جرس يمكن قرعه فيستجيب أحد الموظفين (لا ادري هل عندهم آلة تصوير أو لا) ولكن قرأت المعلومات التي على الباب فوجدت أن هذا المعهد يتبع ثلاث جامعات هي: جامعة أمستردام، وجامعة ليدن، وجامعة أوترخت.

وقد علمت فيما بعد أن المعهد واجه صعوبات مالية وربما توقف، مع أنه في إحدى السنوات الماضية قدم خمسين بعثة دراسية لأبناء العالم الإسلامي ليدرسوا في ليدن أو هولندا وكان منها ثمانية عشرمنحة للدكتوراه واثنتين وثلاثين منحة لدرجة الماجستير. فكيف يتعرض للإفلاس من يقدم كل هذه المنح؟ وينشر الكتب؟

الوصول إلى الشقة:

عرفت الحافلة التي تذهب إلى المنطقة التي أسكن فيها، وإن كان هناك عدة حافلات ولكن إحداها تصل إلى قريب من باب الشقة. ولكنني لم أحفظ اسم الشارع الذي أنزل فيه بالقرب من المنزل. أما الوصول إلى البلد

فالمسألة بسيطة لأن الكلمة في الهولندية وفي الإنجليزية والألمانية هي سنترال. المهم في اليوم الأول ركبت الحافلة وكنت قد جعلت علامة على البيت مرآب سيارات فيه سيارات إطفائية وفوق الباب لوحة. ولما رجعت في المساء كان المرآب قد أغلق فلم أرَ المكان وسرت مع الحافلة حتى شعرت أنني تجاوزت المكان فسألت السائق عن الشارع الذي أقطن فيه، فقال: تجاوزنا بكثير. فانتقلت إلى الجانب الآخر من الطريق وركبت حافلة أخرى أوصلتني إلى الشقة. وقررت أن أخترع طريقة أعرف بها مكان الشارع بأن ركبت في اليوم التالي وسجلت أسماء المحطات وعددتها. (ولكن يلاحظ أن الحافلة لا تقف أمام كل المحطات، فأحيانًا لا يكون هناك ركّاب ينتظرون ولا ينزلون فيضيع الترتيب. المهم استغرقت يومين، أو قُلْ أسبوعًا، حتى عرفت كيف أنزل من الحافلة في المكان الصحيح. ولعل من الأسباب أن ذكائي في حفظ الأسماء الهولندية ليس عاليًا أو أنني قليل الملاحظة أو غير دقيق الملاحظة. أو يمكن أن يكون السبب أنني كنت بدون خديجة وهاشم، ولي مقوله مشهورة (الرجل بلا زوجة بنصف عقل). والرجل المسافر بنصف عقل، فإن كان مسافرًا وبلا زوجة فماذا يكون ؟

وعدت إلى قسم العقيدة أطلب التقارير السنوية، فلم تكن متوفرة عند السكرتيرة وطلبتْ مني أن أعود بعد أعياد الميلاد والإجازة عندهم. وعدت، ووعدتني مرة أخرى بعد بداية السنة. ورجعت مرة ثالثة فنظرتْ إلي كأنها لا تعرفني، على الرغم من أنها تعرفني منذ المؤتمر الذي حضرته عام ٢٠٠٢ وبعد عدة زيارات كيف لا تعرفني.

تلطيفة:

قضى كل ذي دين فوفى غريمه وعَزَّةُ ممطولٌ مُعَنًّى غريمُها

سمعه بعض المشايخ فحاولوا حفظه، وكتابته، وكنت حاضرًا فقلت: ولم تكتبوه؟ احفظوه. وأخذت أكرره على كل من أحَبَّ أن يحفظه. ولكن لماذا؟ هل عزات المشايخ مماطلات؟

تلطيفة أخرى:

وما العيش إلّا نومة وتبطح   تحت النخيل وماء.

كنت أمر بقاعة فيها مقاعد وثيرة قريبًا من قسم الثقافة الإسلامية بجامعة الملك سعود وأرى طلابًا متكئين أو مستلقين أو نائمين، فأسألهم أحيانًا ألا تريدون من يلقي عليكم محاضرة أو تقومون بأي نشاط، وأتذكر هذا البيت الذي يعني أن الشخص يحب أن يأكل التمر ويشرب ويكون في الظل، ولكنه أهون من ذاك الذي طلب ما لا أستطيع أن أقوله هنا ولكنه كسول لدرجة أنه ينتظر الغمامة تمطر فتغسله. والسلام.

نماذج من الباحثين والدارسين للإسلام في ليدن:

تحدثت عن لقائي بالمستشرق كوننجزفيلد وكيف قمعني قمعًا، وأنني خرجت من عنده هائمًا على وجهي في شوارع ليدن حتى كأني أكلم نفسي. أقول: ضاعت سنة التفرغ ستعود خالي الوفاض، تعود بخُفَّيْ حُنَيْن أو حتى بدونهما. لا أدري لماذا درسنا تلك القصة في المدارس؟ ومما أذكره أن حنينًا أعرابي زار المدينة وأراد أن يشتري خُفًّا. فتذاكى مع البائع. فعمل البائع حيلة بأن رمى أحد الخفين في طريق حنين فأخذ أحد زوجي الحذاء ثم بدأ يبحث عن الثانية، وترك بعيره وما عليه من طعام وشراب ومشتريات. فجاء الحضري- أو بائع الأحذية- فأخذ الجمل وما حمل. وعاد حنين يبحث عن جمله فلم يجده فعاد بالخفين. فقيل «رجع بخفي حُنين».

وما أن انتهى النهار حتى استعدت بعض الثقة في نفسي وقلت: هل كل ليدن هي كوننجزفيلد؟ وهل مازن مَنْ يقبل بالهزيمة؟ فرجعت في اليوم التالي أبحث عن المعاهد الأخرى التي يُدرس الإسلام فيها أو من خلالها، فكان من الأماكن التي زرتها معهد دراسات العالم الإسلامي في العصر الحديث، وهو مشروع كبير. وممن وجدت لهم مكتبًا هنا نصر حامد أبو

زيد. الذي جاء إلى هولندا عام ١٩٩٦م عندما حضرت أول مؤتمر لي في هولندا. ورئيس المعهد باحث إيراني. ويمكن للإنسان أن يتساءل: هؤلاء الذين يزعمون أنهم يريدون دراسة الإسلام وفهمه فما هي معاييرهم فيمن يجتذبون من أبناء الأمة ليعملوا معهم؟ لماذا نصر حامد أبو زيد؟ أهو العبقري الذي لا يفرى فريه؟ أهو المبدع وحيد عصره وفريد زمانه؟ وهل مدير المعهد الإيراني كذلك؟ كنّا نشكو في الزمن الماضي أن الذين يأتون للالتحاق بالدراسات الإسلامية أو الشرعية هم النطيحة والمتردية وما ترك السبع، فهل هذه النماذج أصبحت مقدسة عند الغربيين؟

جئت إلى الجامعة في يوم الخميس الأول من ذي الحجة عام ١٤٢٧هـ ظانًّا أن لدي موعدين، وأستطرد هنا لأقول: إن الحافلة تقف في المحطة الرئيسية للقطار وللحافلات وبعدها أسير على الأقدام مسافة ربع ساعة أو أكثر قليلًا. ومن حب الاستطلاع أن أنوّع في الطرق التي توصلني إلى الجامعة، وكنت أقدر أنني إن سرت في هذا الشارع الموازي للشارع الآخر الذي وصلت من خلاله إلى الجامعة، فإني سأصل إلى النقطة نفسها. ولكني فوجئت أن ليدن لها هندسة خاصة حيث إنّ المدينة مجموعة من الشوارع والقنوات فتسير في الشارع فتقطعه قناة من القنوات فتضطر أن تنحرف (انحرافًا ماديًّا ليس معنويًّا) وتواصل السير فيما تعتقد أنه سيوصلك إلى الهدف، ولكنك تسير وتستمر في السير حتى لا تكاد تعرف من أين بدأت وأين وصلت. وهذا ما حدث معي في تلك الصبيحة من أول أيام شهر ذي الحجة. ولكن مع قليل من الإصرار وإعمال الحاسة السادسة أو حاسة الاتجاهات واصلت المسير حتى بدأت أرى مباني الجامعة. وبالفعل وصلت بعد مشقة ليست كبيرة، حتى وإن كنت في شهر ديسمبر وفي الشتاء لكن منظر المياه (وإن كان معظمها يبدو راكدًا أو هو راكد أو يسير ببطء شديد) لكن الخضرة المحيطة والترتيب الأنيق والسيارات التي تسير بدون إزعاج فلا أصوات المنبهات (البواري أو الزمور أو الكلاكسون

... لأنها جميلة ومحببة اخترعنا لها أسماء كثيرة في العالم العربي) تجعل الإنسان يرغب أن لا ينتهي المشوار إلّا إذا كان لديه موعد يجب أن يصل إليه.

وسألت فيما بعد: هل الأصل في ليدن القنوات أو الشوارع؟ هل كانت القنوات قبل أن تكون الشوارع؟ فلم أجد جوابًا شافيًا. المهم أنني وصلت إلى ما ظننته موعدي الأول فأخبرني الشخص الذي جئت إليه قائلًا: أنا لم أعطك موعدًا وإنما أخبرتك من أين تشتري الكتب أو كيف تحصل عليها من الإنترنت. وكنت ظننت أنه سيقدم لي بعض تلك الكتب. وخرجت من عنده إلى موعدي الثاني وكان مع منسّقة المعهد أو منسّقة البرامج التي وعدتني بتزويدي ببعض الكتب. وبالفعل أعطتني بعضها والبعض الآخر اعتذرت لعدم وجود نسخ منه.

ولما خرجت من المبني وإذ بشاب هندي واقفًا يريد الدخول فحدث بيننا كلام فعرفت أنه مدعو إلى المعهد لقضاء عدة أشهر باحثًا زائرًا وهو أستاذ جامعي من الهند وتخصصه في الحركات الإسلامية الهندية أو المشهد السياسي الإسلامي الهندي. أتساءل: كيف يعثر هؤلاء الهولنديون على أمثال هذا الشخص وكيف يفيدون منهم؟ وسألته: وما البحث الذي ستقوم به؟ وما النشاطات التي مطلوب منك تنفيذها؟ فعرفت أنه سيدرس مادة حول الحركات الإسلامية في الهند، ويواصل البحث في هذا المجال الحيوي.

وفي المعهد نفسه قابلت إحدى الطالبات واسمها فردوس وهي فتاة تونسية الأب هولندية الأم تدرس دراسات عليا وموضوعها التعليم العالي الإسلامي في أوروبا وبخاصة هولندا وبريطانيا. فقلت لها إنني سأكون في بريطانيا في المستقبل القريب ويمكنني أن أزودها بمعلومات عن بريطانيا إن هي اتصلت بي. وسألتها إن أمكن أن تجيب عن بعض تساؤلاتي، فأجابت بالموافقة ولكني لم أرسل الأسئلة بعد. وقد حضرت هذه الطالبة بعد أعوام مؤتمرًا في برلين عن الإسلام المعاش في أوروبا وقدمت بحثًا عن

التعليم العالي الإسلامي في أوروبا، وقد ركزت على عدد من المعاهد. ويبدو لي أن مثل هذه البحوث نوع من التجسس أو جمع المعلومات عن المسلمين من خلال أبنائهم.

ومن الباحثين في المعهد باحثة إندونيسية جاءت لتعد بحث الدكتوراه في علم الاجتماع مطبقًا على العالم الإسلامي. وموضوعها «الخادمات الإندونيسيات في السعودية وطرق معاملتهن»، وقد ذهبت إلى السعودية بتأشيرة عمرة وقابلت الكثير من الخادمات وعرفت كثيرًا من قصصهن. وطلبت أن تجري معي لقاءً تسجله حول هذه القضية. ووافقت. ولكنني تساءلت: لماذا تهتم جامعة ليدن بالخادمات الإندونيسيات عندنا؟ لو كان البحث لجامعة إندونيسية وهي في إندونيسيا لقلت لا بأس؛ هذه البلاد تريد أن تعرف كيف يعامل رعاياها في بلد يعملون فيه؟ ولكن أن تكون هولندا هي التي دفعتها لهذا البحث فأمر ينبغي أن نفكر فيه طويلًا.

ثم هي جاءت إلى السعودية بصفتها معتمرة فقامت بإجراء المقابلات حتى إنها دخلت بعض المساكن التي تلجأ إليها الخادمات وربما زارت بعض السجون (لم أتأكد من هذه المعلومة) وأجبتها بما أعرفه من تعامل البعض عندنا مع الخادمات وكيف أننا أعدنا الرق من جديد. فبعض الأسر تعمل الخادمات لديها أكثر من خمس عشرة ساعة في اليوم. ينبغي على الخادمة أن تستيقظ قبل الجميع وتنام بعد أن ينام الجميع، وبين ذلك تقوم بكل واجبات ربة البيت.

وأما التحرش بالخادمات فقد يحدث في البيوت التي فيها شباب إن كان الوازع الديني ضعيفًا. ولكن نسيت أن أخبرها أننا يجب أن نوجه بعض اللوم للخادمات الإندونيسيات، وبخاصة غير المتدينات منهن. والقرآن الكريم قدم الزانية على الزاني ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِئَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [سورة النور آية: ٢] والأنثى أحيانًا

هي التي تشعل الفتيل، فعلينا أن لا نضع اللوم كله على الأسر أو الشباب السعودي.

وذكرت لي تلك الباحثة طرفًا من نماذج سيئة من معاملة الخادمة فذكرت عن خادمة تزوجها مخدومها وعمرها ١٤ سنة (كيف تسمح إندونيسيا بإرسال خادمات في هذه السنّ؟ هل يزيفون أعمارهن؟) وبعد أن حملت أرسلها إلى بلدها. وقالت: إن طريقة الزواج فقط أن تقول الفتاة للرجل زوجتك نفسي.

من مشاهداتي في ليدن والمنح الدراسية:

بينما أنا أتصفح النشرات الموجودة في معهد دراسة العالم الإسلامي في العصر الحديث وجدت نشرة من جامعة بركلي بكاليفورينا بمركز دراسات الشرق الأوسط؛ المنحة الأولى باسم سلطان بن عبد العزيز والمنحة الثانية باسم منحة الفلاح ويقدمها الشيخ (هكذا والله) صلاح الدين يوسف حمزة عبد الجواد، وهم وكلاء سيارات أمريكية منذ ما يزيد على أربعين سنة وربما أكثر. وكتبت حينها بعد أن قرأت تفاصيل المنح التي سأقدم ملخصًا لها: (جميل أن يتبرع الثري للعلم، لكن ألا تستحق جامعاتنا السعودية بعض هذه التبرعات؟، وهل هي مسؤولية صاحب المنحة والمال؟ أو هي مسؤولية الحاشية التي لا تقدم له النصيحة الصحيحة؟ وهل يجب على صاحب المال أن تكون له حاشية تزين له شيئًا وتُقبِّح له آخر، أليس لديه العقل ليتخذ القرار السليم؟).

أبدأ بمنحة الفلاح، ويا له من اسم جميل! وهل هو فَلَاح حقًّا أن يضع الإنسان كل تلك الأموال في أيدي الباحثين الغربيين. وعلى اسم منحة الفلاح الاسم الطويل لهذا المحسن الكبير، ولكن هل يتوقع الناس أن يحفظوا هذا الاسم الطويل؟ ثم السؤال الذي يجب أن يسأل المسلم نفسه دائمًا: لماذا ينفق المال فيما أنفقه؟ ألا يذكر هؤلاء قول الرسول صلى الله عليه

وسلم: (لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن أربع.... ومنها: عن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه) وجميل قول القرآن الكريم عن المطففين: ﴿أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ، يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [المطففين: ٤-٦])

منحة الأمير سلطان لها برنامج لعام ٢٠٠٦/ ٢٠٠٧ والأشخاص الذين فازوا بالمنحة هم الآتية أسماؤهم:

١- د. منال جمال: حصلت على الدكتوراه من جامعة ما قيل، وكان عنوان رسالتها : «المؤسسات المجتمعية الإسلامية ومساعدة المتبرعين وتشجيع الديمقراطية في الشرق الأوسط».

٢- سارة بون سافانت(Sara Bowen Savant)أكملت الدكتوراه في الدراسات الدينية من جامعة هارفارد وموضوعها: «مكاننا في الماضي، الإنسان والعرقية في الإسلام».

٣- منحة لإكمال دراسة الدكتوراه أعطيت للطالبة آمي أيسون (Amy Aisen) من قسم التاريخ.

٤- منحة للمساعدة في إعداد خطة بحث الدكتوراه أعطيت لـ ميتشل ألن (Michael Allen) من قسم الأدب المقارن.

٥- منحة لطالبة دكتوراه أعطيت لباحثة موضوعها : «تأثير الحبس المكاني على الهوية الثقافية والسياسية: مقارنة الأحياء المنعزلة في المدن ومخيمات اللاجئين، والقرى غير المعروفة والأراضي المسوَّرة في إسرائيل/ فلسطين».

٦- منحة طالب دكتوراه أعطيت لريم صلاحي على بحثها: «الإصلاحات القانونية بخصوص المرأة في كل من الأردن وسورية»

٧- منح لمساعدة باحث في مرحلة الدكتوراه أعطيت لبحث بعنوان:

«دولة مؤجرة:الإصلاح المبني على السوق في قطاعات المياه والطاقة والاتصالات في الأردن»

٨- منحة للمرحلة الجامعية للقيام برحلات علمية والسفر إلى مصر للبحث في الحركات الإسلامية المتعددة الجنسيات، والطالبة التي نالت المنحة هي إدينا بوهانيك (Edina Bohanec) من قسم علم الاجتماع.

٩- منحة لأستاذ جامعي لدعم بحث بعنوان : «**أخلاقيات الإنصات: الخطب والمواقف الإسلامية المعارضة**» وذهبت المنحة للبروفيسور شارلز هيرتشكايند (Vahrles Hirshckind) من قسم علم الإنسان.

أما اللجنة التي تقرر هذه المنح فتتكون من الأشخاص الآتية أسماؤهم:

- نزار السيد: متخصص في العمران.
- بشارة دوماني: فلسطيني متخصص في التاريخ.
- مارغريت لاركين (Margaret Larkin): متخصصة في دراسات الشرق الأوسط
- لورا نادر: من قسم علم الإنسان.
- سيفانيا باندولفو (Stefania Pandolfo): متخصصة في علم الإنسان أيضًا.

والذي يرغب في التقدم لأيٍّ من هذه المنح فعليه الاطلاع على الشروط والأوقات في موقع المركز (CMES) بجامعة بيركلي.

وأما منحة الفلاح فلها تفاصيلها، وقد مللت -والله- من نقل التفاصيل، ولكم أن ترجعوا إلى مواقع هذه الجامعات أو تكتبوا اسمه: الشيخ الطويل، أو تختصروه كما تشاؤون وستجدون المعلومات بإذن الله.

كنت قد أردت أن أرفّه عن نفسي قليلًا بالسير في شوارع ليدن وكان اليوم هو الأحد فنظرت من النافذة فرأيت الشمس، وظننت أن الجو دافيء، وارتديت سترة الجنيز (بنطال أو سروال وجاكيت) والجنيز هذا مصنوع من القطن وهو من البدع الأمريكية التي غزت العالم فتمكنت. (هل يرتدي الناس الجنيز حبًّا في تقليد الأمريكيين أو أنها ملابس عملية وتتحمل اللبس مدة طويلة؟ لا أدري) وخرجت من البيت وبعد أن سرت بضعة أمتار شعرت بالبرد، وكان القرار الصحيح أن أعود إلى المنزل فأرتدي شيئًا أكثر سماكة ودفئًا، ولكني قررت أن لا أرجع. ولا أدري فقد أكون تأثرت بشيء من طباع البادية وهي أنّ البدوي لا يرجع إلى الخلف. ولذلك إذا شتم أحدهم الأخر قال له: ارجع وراك. فمن يستطيع أن يفسر لي هذه المقولة؟ وفي ذات يوم خرجت هام ١٤١٠هـ في الرياض حين عاقبتني الجامعة بالانتقال إلى الرياض بسبب أنني أصررت على البحث في موضوع تخصصي ولم يرق ذلك للعميد، أو لأنني وصفت العميد بأنّه مستبد ديكتاتور، كما اشتكى لوالدي، فقال له أبي: يا دكتور عبد الله أنت رئيس ومازن مرؤوس والشاعر يقول:

لا يحمل الحقد من تعلو به الرتب ولا ينال العلا من طبعه الغضب

وسرت حتى وصلت وادي حنيفة (وهو جميل إن كان فيه زرع ومياه، حتى وصلت إلى حي الدخل المحدود (يسمونه المقرود) ونفد البنزين في السيارة ولو رجعت إلى الخلف في مرحلة من مراحل الضياع لعرفت الطريق ولكنني مثل البدوي لا أحب الرجوع إلى الوراء. وأيضًا تعلمت من أبي أن السؤال مذلة ولو عن جادة الطريق.

وسرت في شوارع ليدن والبرد يكاد يقتلني ولكني لا بد أن أمضي بعض الوقت حتى أعود إلى الشقة فأطبخ طعام العشاء، وربما أتيت بطعام من السوق، وكنت متلطفًا فلم أرَ في الشوارع إلّا الذي طردته زوجته، أو الذي ليس له قريب أو حبيب. أو الذي ليس له عقل. ولما عدت إلى الشقة

أدرت التدفئة وربما تناولت طعام العشاء ثـم نمـت، واستيقظت بعـد قليـل أشعر ببرد شديد ووضعت كل ما لـدي مـن أغطيـة، وكـأن الـبرد دخـل إلى أعضائي إلى الأعماق فكان إحساسًا مزعجًا وكأنني أصبحت مريضًا. وشاء الله أن أتخطى تلك الأزمة والحمد لله.

ولكن رأيت بعض الناس فرأيت رجلًا يسير ومعه طفلان، إما ولدان أو بنتان أو ولد وبنت، لم أتبين ذلك، وتساءلت ما الذي يجعلـه يسير في الشوارع الخالية في يوم الإجازة؟ قد يكون بلا زوجة أو قد يكون طلقهـا أو طلقته أو هربت مع رجل آخر. كما رأيت رجلًا عجوزًا ومعه امرأة تقاربه في السن، فتعجبت: ما يخرجهما في مثل هذا الوقت؟ أليس لهما أطفال أو أحفاد أو أقارب؟ ومر شباب وشابات على درّاجات، فإنّ معظم ركوبهم يكون على الدراجات هنا.

ودلفـت إلى مطعـم لأتنـاول قهـوة وفي هـذا المطعـم رجـل عجـوز يجلس مع طفلين، وقد جلسوا على طاولة تتسع لثمانية أشخاص، وكان مـع الأطفـال بعـض الألعـاب اسـمها بالإنجليزيـة (Puzzle) فهـل يمكـن أن نترجمها إلى المحيّرة أو تركيب الصور. وكنت أظن أن لا أمَّ لهما، وبعـد قليـل وجدت امرأة تتحدث مع الطفلين ثـم تعـود إلى الوقـوف مـع مجموعـة مـن الرجال يشربون ويتكلمون ويضحكون. فتعجبت لعلها من جيل غير جيل العجوز (الأب) وربما (الجد) وجاءت لتقضي. وقتًا مع من هـم في سنّها. وتساءلت: هـل غيرتنـا الإسـلامية تسـمح بمثـل هـذا الأمـر؟ ليقولـوا عنّـا متخلفين، فتخلفنـا والله أفضـل -مليـون مـرة - مـن تحـررهم. ودخـل إلى المقهى مجموعة من الأشخاص يعرفـون العجـوز فأخـذ يضـحك معهـم ممـا يدل على أنه ليس بائسًا في حياته، وهـذا ذكـرني بـما كتبـه أسـامة بـن منقـذ في كتابه «الاعتبار» عن الرجل يكون مع زوجته فيلقاهما رجل يطلب أن ينفرد بالمرأة في حـديث خـاص فتـذهب معـه وتـترك بعلهـا ولا يكـون منـه إلّا أن يقول لها: أن لا تتأخر، أو يتواعدا على الالتقاء في مكان ما.

الجامعات الأجنبية ونشاطاتها:

جئت إلى جامعة ليدن لأكتب عن الدراسات العربية والإسلامية فيها، وكنت أظن الأمر سهلًا ؛ أجمع المادة في بضعة أيام، ولكن أرى أن الصعوبات بدأت بأنني جئت قبل أعياد الميلاد بقليل وبداية العام الميلادي الجديد ووجدت أن الأقسام التي تهتم بالعالم العربي والإسلامي كثيرة، فمن الذي يستطيع أن يحصي- ما فيها من نشاطات ورسائل ومحاضرات ومؤتمرات؟ ثم إنني وجدت أن هذه السّنة التي أُعْطِيتُ التفرغ فيها وصلتني عدة دعوات ولم أجد مفرًّا من تلبيتها،أولها زيارة اليابان حيث دعيت من قبل الحكومة اليابانية والمؤسسة اليابانية التي تعنى بالعلاقات الثقافية بين اليابان والعالم، ثم كان علي حضور مؤتمر في المدينة المنورة حول القرآن والدراسات الاستشراقية، ثم دعيت إلى السويد، ودعيت لأكون باحثًا شرفيًا في جامعة إكستر. ولو كانت الأمور طبيعية لجاءت هذه الأمور على مدى عدة سنوات. ثم إن التفرغ تأخر عدة أعوام.

وإنني كلما زرت جامعة أجنبية ورأيت ما فيها من نشاطات وأعمال أدركت مدى تخلفنا؟ لماذا لا يقوم وزير التعليم العالي الحالي أو الذي سيأتي بعده بزيارة الجامعات الغربية؛ ليست الزيارات ذات البسط الحمراء والبروتوكولات والذين يمشون في الخلف وفي الأمام. ولكن لو جاء الوزير (درس في الغرب في وقت من الأوقات ولعله نسي- كيف كانت الجامعات حينها) ومشى من قسم إلى قسم واطلع على اللوحات الإعلانية، ولو جلس وتحدث إلى طلاب الدراسات العليا وإلى الأساتذة من مختلف الرتب. لو فتح مواقع الجامعات الغربية ورأى تحت عنوان (آخر الأخبار) ولو فعل الوزير، ولو قام أيضًا بمثل هذه الزيارة مدراء الجامعات ولو لو لو .... هل تفتح هذه عمل الشيطان أو تفتح الأذهان والآفاق!!!

ماذا أقول عن الجامعات الغربية؟ هل أتحدث عن الميزانيات الضخمة؟ لا أفهم الأرقام ولكني أذكر مقالة لخالد المعينا في الشرق الأوسط ذات يوم يتحدث عن التبرعات التي تتلقاها جامعة هارفارد تكاد تكون أكثر من ميزانية بعض الدول. حتى لا نذهب بعيدًا: قسم الأديان أو العقيدة (وأصول الدين) – ليس في الجامعات الغربية أصول الدين– في جامعة ليدن قَدّم اقتراحًا لتأسيس برنامج لإعداد الأئمة والخطباء في هولندا مبرراً ذلك بزعمه أنه لا يريد الأئمة والخطباء المستوردين لأنهم يأتون بالتطرف إلى ديارهم، إذن علينا أن نعد برامج نخرج نحن من يعدهم ويدربهم. وماذا كانت ميزانية هذا البرنامج؟ كانت مليونين ونصف المليون يورو (مضروبًا في خمسة عند التحويل إلى الريال) .

أما المنح فهذا معهد دراسات العالم الإسلامي في العصر الحديث يعلن عن ثمانية وأربعين منحة منها ثماني عشرة منحة للدكتوراه وثلاثون منحة لمرحلة الماجستير والدراسة باللغة الإنجليزية لأبناء المسلمين، فهيا شمروا عن سواعد الجد واثبتوا أنكم تعرفون الإنجليزية والمنحة قادمة قادمة....

أما عن الأساتذة الزائرين والأساتذة الذين يأتون لبحوث ما بعد الدكتوراه فحدّث ولا حرج؛ قليل منهم من يتحمل مصروفاته والآخرون تتحمل الجامعات تكاليفهم، مع تكليفهم ببعض العمل.

وأمّا طلاب الدراسات العليا ونشاطاتهم فقد خصص مركز دراسات الشرق الأوسط في نشرته ربع صفحة ليتحدث عن المهمات العلمية من حضور مؤتمرات وندوات وعناوين البحوث التي قدموها. وفي قسم الثقافة الإسلامية بجامعة الملك سعود بالرياض عندما تقدم القسم يطلب الإذن لطالب دكتوراه لحضور مؤتمر جاء الرد من مدير الجامعة: إن صاحب الصلاحية لم يوافق. وكم هي غامضة هذه العبارة! صاحب الصلاحية من هو ولأي سبب لم يوافق؟ لا تستطيع أن تسأل. وقد طلبت الإذن لحضور مؤتمر ذات مرة فرد وكيل الجامعة بعدم الموافقة، فكتبت

خطابًا لمدير الجامعة وكان أيامها الدكتور الشبل موضحًا أهمية المؤتمر لتخصصي وأنه من الخطأ عدم السماح لي، فقام مدير الجامعة بالرد بالموافقة. ولكنها مرة وحيدة فريدة، وفي الحالة العادية يقال لك: كيف تعترض على خطاب وكيل الجامعة فقد تعودنا (الشيوخ أبخص). وبالنسبة لحضور المؤتمرات قبل الحصول على الدكتوراه فأحمد الله أن الله يسر لي ذلك وكان لنصيحة والدي - رحمه الله - وحثه لي أكبر الأثر في أنني سرت على هذا الخط من وقت مبكر.

فأول مؤتمر كان في الجزائر عام ١٤٠٨هـ(١٩٨٩أو ١٩٨٨) فقد اتصل بي الدكتور أبو القاسم سعد الله يقول: إن المجلس الشعبي البلدي يعقد مؤتمرًا هذا العام في ١٦ أبريل ويمكنك أن تشارك في موضوع عن ابن باديس. وأعطاني العنوان البريدي للمجلس، فكتبت إليهم أقترح أن أشارك، وبالفعل جاءت الدعوة وأعددت البحث، وأرسلوا برقية (لم يكن الفاكس منتشرًا ولا البريد الإلكتروني) ووعدوا بإرسال التذكرة ولكنها لم تصل، فقال لي والدي: اقترض أو تدين ثمن التذكرة وسافر، إنك سوف تتعلم. وتعجبت فوالدي لم يحضر مؤتمرات ولا يعرف هذه الأمور. ولكن نصيحته كانت في مكانها. فقد حضرت المؤتمر وتوطدت العلاقات بيني وبين رعاة المؤتمر فدعيت السنة التالية، حتى إنهم طلبوا مني أن ألقي كلمة الحضور وكان هذا تشريفًا لباحث في بداية طريقه العلمي. فرحم الله والدي وشكرًا للتمرد. فلو استأذنت لما أذن لي ولكن قلت للكلية: أريد إجازة عادية مدة أربعة أيام.

والجامعات لديها حرية الحركة والنشاط فعندما كنت في السويد وأردت أن أزور قسم الأديان في جامعة (لند) فقرر رئيس القسم أنه من المناسب أن أقدم محاضرة عن الاهتمام بالاستشراق في السعودية والاستغراب. فهل كتب رئيس القسم إلى العميد الذي كتب بدوره إلى وكيل الجامعة ثم مدير الجامعة ثم إلى جهات كثيرة أخرى؟ لا، إن من حق

رئيس القسم أن يدعو لمثل هذه النشاطات دون الاستئذان من أحد. كل ما في الأمر أنه كلف السكرتيرة أن ترسل رسالة في البريد الإلكتروني لأعضاء القسم ولطلاب الدراسات العليا أن باحثًا من السعودية سيأتي في اليوم الفلاني والساعة الفلانية، فمن كان عنده فراغ فليحضر . وبالمناسبة: كان باحث فرنسي اسمه جيل كيبل يريد زيارة المملكة واللقاء بعدد من الباحثين وكان اسمي من بينهم، فكان استئذانه لمقابلة هؤلاء الناس عن طريق جهات رسمية، ويمكن أن يكون للجهات الرسمية مبرراتها في مثل هذه الإجراءات لكن جامعاتنا تحتاج إلى مرونة أكثر لنشر الثقافة والعلم في المجتمع. فللجامعات الغربية تقليد ما يسمى (اليوم المفتوح) حيث تأخذ الضيوف في جولات على مرافق الجامعة وأقسامها. فهل نتعلم ونفتح جامعاتنا حقيقة للمجتمع. كما أني لاحظت أن اللقاء الأسبوعي في جامعة برنستون يحضره أشخاص من المجتمع من رجال أعمال وسياسيين وصناعيين وصحافيين ومثقفين.

العربان والزواج من الأجنبيات :

لاحظت أن بعض العرب والمسلمين يتزوجون من أجنبيات، والقرآن الكريم أجاز الزواج من الكتابية شريطة أن تكون عفيفة محصنة غير ذات أخدان، فكيف يستطيع الإنسان أن يجد هذه المواصفات في المجتمعات الغربية هذه الأيام؟ هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى يتزوجون عادة نساء ليس لهن من المواصفات إلّا أن تكون شقراء وكأن الشقار هو الجمال كله.

اللون الأسمر يزعج البعض هنا:

دخل أحدهم إلى المقهى ونظر إليّ فتجهم كأنه لم يعجبه لوني الأسمر أو شكلي الذي يوحي بتجهُّم الصحراء وقسوتها صيفًا وشتاءً، حرارة يغلي منها الدماغ وبرد لا يرده إلّا أن يجلس الإنسان أمام كومة حطب مشتعلة،

ويرتدي وبر الإبل. ولو عرف الأوروبيون ما يقدمه الجمل من دفئ في وبره وصحة في لحمه لتهافتوا على وبر الجمل وشعره وحليبه.

أرجوزة أردنية :

يا عباتي يا كحيلة (كحلاء) يا دفايا كل ليلة

لو أعطوني حجر مكة والذهب بالأقة

عميد وعمدة ليدن الدكتور قاسم السامرائي :

كنت أبحث عن مشرف لرسالتي حول الاستشراق الفرنسي، وكان الدكتور قاسم قد نشر كتابًا بعنوان :« **الاستشراق بين الموضوعية والافتعالية**» تناول فيه بصفة خاصة الاستشراق الهولندي، فبحثت عن عنوانه فعرفت أنه في هولندا فراسلته وأبدى استعداده للإشراف، ولكن ذلك الموضوع لم يكن مقبولًا للعميد (ليس لرئيس القسم أو لمجلس القسم، فالعميد عندنا في تلك الأيام كصاحب رتبة العميد في الجيش يُطاع والسلام) ثم تم تغيير الموضوع فراسلته أستشيره في الموضوع الجديد وما النصائح التي يمكن أن يعطيني إياها. فكتب غاضبًا: كيف تريد أن تبحث عن مستشرق ما زال بين الأحياء، أين لك بالوثائق عنه أو كتاباته وأنت قابع في المدينة؟ أنتم تحاولون موضوعات أكبر من قدراتكم وإمكاناتكم. فقلت له: مهلًا مهلًا يا أستاذي الفاضل، فإنني قد جمعت مادة علمية غزيرة ساعدني في جمعها أخي عبد الكريم الذي كان يدرس في جامعة ليستر، ثم إنني أنوي السفر لمقابلة لويس والاطلاع على كل كتاباته في الجامعة التي يدرس فيها الآن وهي برنستون. لم يرد علي الدكتور قاسم بشيء، وكنت حينها أمتلك جهاز تصوير المستندات وأحتفظ بصورة من كل رسالة أرسلها (كنت أكتب بخط اليد).

سافرت إلى أمريكا ومن هناك أرسلت له رسالة أستفسر عن سبب إهمال رسالتي الأولى وأرفقت نسخة منها، فأبدى إعجابه وقال: أما

رسالتك فلم يكن فيها ما يستحق الرد فلم أرد عليها. وظننت أن هذه قسوة وصلف من أستاذ كبير مع تلميذ مبتدئ. وشاء الله أنني بعد عودتي من أمريكا تتفاقم الأمور من جديد في المعهد العالي فأكتب له عن تطورات الأمور، فيرسل رسالة إلى مدير الجامعة الدكتور عبد الله التركي يشفع لي فيها في أن يعطوني الفرصة للابتعاث إلى هولندا مبديًا استعداده للمساعدة، وفي تلك الرسالة يخبر المدير أن معرفته بي كانت من خلال قراءته لبعض مؤلفاتي عن جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، وعبد الحميد بن باديس ، والمغرب العربي بين الاستشراق والاستعمار. ولكن الجامعة لا تسمح لمحاضر بأن يدخل في معركة مع عميد حتى لو كان العميد مخطئًا، فإن هيبة السلطة أهم من الحق في نظرهم (هذا ما قاله لي الشيخ ابن عرفة أحد ركني لجنة التحقيق).

واستمرت صلتي بالدكتور قاسم حين قمت بترجمة المقال الثاني في نقد المستشرقين الناطقين باللغة الإنجليزية وأردت نشره فأحببت أن أعرف عنوان الدكتور عبد اللطيف الطيباوي، فأخبرني أنه قد انتهى من ترجمة المقالين ودمجهما في كتاب سيصدر من جامعة الإمام. وأرسل لي صفحة من ترجمته وقال بصراحة: «قارن بين ترجمتي وترجمتك». كان محقًا هو حصل على الدكتوراه من بريطانيا قبل أربعين سنة، ولغته بلا شك أقوى وأرقى من لغتي. فترجمته أفضل، لكني أحتفظ بأن ترجمتي لم تكن سيئة(لأنني ترجمت كتبًا ومقالات وقبلت للنشر المحكم، وكان آخرها كتاب «صراع الغرب مع الإسلام:استعراض للعداء التقليدي للإسلام في الغرب» لآصف حسين الذي تم تحكيمه عن طريق المجلس العلمي بجامعة الملك سعود)، وقد نشر الكتاب والحمد لله لدى الندوة العالمية للشباب الإسلامي وإن كان توزيعهم أضعف من توزيع دور النشر التجارية. ثم أعيد طباعة الكتاب مؤخرا في مركز الفكر المعاصر .

وكـان للـدكتور السـامرائي صـلة بجامعـة الإمـام محمـد بـن سـعود الإسلامية في مجال المخطوطات، فدُعِي ذات مرة إلى الرياض بعد أن كان قد عمل في الجامعة مدة. فسافرت إلى الرياض للقائه. ولمثله تُشَدُّ رحال طالب العلم. وكم كانت لنا جلسات أنيقة مفيدة في فندق السعودية في الناصرية في الرياض. ثم شاء الله أن أُنقَل تعسفيًّا إلى الرياض مدة سنة في عام ١٤١٠هـ وجاء إلى الرياض مدة من الوقت فازدادت معرفتي به وقويت تلك الصلة.

واستمرت المراسلات بيني وبينه أستشيره في أموري العلمية وحتى الحياتية الاجتماعية، حيث كنت أعيش نكدًا من نوعين: نوع أستطيع أن أتحدث عنه، ونوع لا يليق أن أتحدث عنه. فالنكد الذي كان يخفف عني السامرائي فيه هو النكد العلمي العملي.

ثم جاءت مناسبة المؤتمر العالمي الأول حول العالم الإسلامي في القرن الواحد والعشرين، فأرسل إلّي يخبرني عن المؤتمر بطريقة طريفة وهي إرسال نشرة المؤتمر دون أن يكتب شيئًا عدا كلمة (الولد) على المظروف. فقلت هذا الولد سيحضر المؤتمر ويكون له صولات وجولات. ولم أعرف أن عبارة (الولد) ليست سيئة ولا تقليلًا من شان الشخص وإنما العكس تمامًا.

وصلتُ ليدن فقرأ البحث وبدأنا نعيد صياغة العبارات لتكون لغتها أجمل وأبهى وأصح. وبذل ،جزاه الله خيرًا، معي جهدًا كبيرًا. ولم يحضر هو المؤتمر، ولكن كان يعرف ما يدور في المؤتمر فالسامرائي يعمل في قسم الأديان كما عمل في أقسام أخرى في جامعة ليدن لأكثر من أربعين سنة، ويعرفه الصغير والكبير. حتى إذا استشرته أن أثير بعض الأمور في الجلسة الختامية، قال: لا تفعل فقد وصلتْ رسالتك.

وكان السامرائي في هذه الرحلة وفي غيرها كريمًا معي وهو طبع أصيل في الدكتور قاسم يعطيك من نفسه بلا حدود، ولكنه في الوقت نفسه صريح صادق لا يجامل ولا يداهن. يقول رأيه لا يخشى في الله لومة لائم.

وإن أخطأت معه فإنه يواجهك بصراحة ونزاهة، غير أنه صاحب قلب كبير لا يحمل حقدًا ولا ضغينة ولا حسدًا.

أما من الناحية العلمية فلا أرى أنني أهل لأن أكتب كلمة عن صاحب عشرات المؤلفات والكتب والتحقيقات. فهو خبير بالمخطوطات والخطوط وأنواع الورق وأنواع الأحبار، وبالمخطوطات عمومها ما تمت فهرسته وما لم تتم. تستعين به المكتبات للفهرسة والتحقيق والحكم على المخطوطات. ومعرفته بالاستشراق ليست كغيره فهو الذي عاش بين ظهرانيهم قرابة نصف قرن يعرف فكرهم أولًا ويعرف أخلاقهم وطباعهم ثانيًا. فلما شكوت إليه لقاءَ كوننجزفيلد معي قال: لا تحزن، فما زال الهولنديون إلى اليوم يطالبون الألمان بثمن درجات جداتهم. قلت وكيف؟ قال: احتلت ألمانيا هولندا فترة من الزمن فقام الجنود الألمان بالاستيلاء على درجات بعض العجائز الهولنديات لاستخدامها، فترى الشباب أو الأطفال الهولنديين اليوم يطالبون الألمان بثمن تلك الدراجات، فكيف عرف الأطفالُ تلك القصة لولا أنهم يتناقلونها فيما بينهم من جيل إلى جيل. قال: وأنت أخطأت ذات مرة في أنك لم ترسل رسالة الدكتوراه حين طلبها منك كوننجزفيلد ليوجه إليك دعوة للتفرغ في جامعة ليدن حتى وإن أرسلتها متأخرة فقد غضب منك لتأخرك. قلت: لم أكن أظن أن إرسال الرسالة شرط في الحصول على الدعوة، قال: هو كان يعتقد ذلك وكان عليك أن تلبي.

وفي ليدن مجموعة من الشباب المصري تعرفت إليهم عام ٢٠٠٢ حين حضرت مؤتمر التعددية الدينية وهم: عمرو رياض، ومحمود الصيفي ومحمد غالي. وهم قريبون من الدكتور قاسم يرعاهم كأبنائه ويمحضهم النصح والرأي.

ولا أذيع سرًا إن قلت إن بعض أهداف الدراسات الإسلامية في الجامعات الغربية أن تخرج طلابًا يتجرؤون على الإسلام وثوابته، فكان من برنامج تلك الدراسات في وقت من الأوقات الذهابُ في رحلة عمرة أو حج، ثم ألغي البرنامج. ووجود الدكتور قاسم كأنه صمام أمان إنما هو لإصلاح ما يمكن أن يفسده التفكير الاستشراقي أو التخريب. فأسأل الله أن يمد في عمر الدكتور قاسم ويمن عليه بالصحة والعافية والتوفيق، وأن يعين الإخوة الكرام الذين قدموا لي كل عون وترحيب في كل مرة زرت فيها ليدن.

الرسائل العلمية في جامعة ليدن :

كان من مهمات بحثي أن أتعرف إلى الرسائل العلمية التي أنجزت في جامعة ليدن والرسائل التي في طور الإنجاز وكذلك المؤتمرات التي تعقد هنا وهناك. وقد ذكرت أن كوننجزفيلد أطلعني على عدد من هذه الرسائل كما حصلت على بيان بعدد من الرسائل في المعهد الدولي لدراسة الإسلام في العصر الحديث. وأحب أن أشرككم ببعض المعلومات عن هذه الرسائل وتحليلي للموضوعات. والحقيقة أن الموضوع يستحق تفحصًا أدق لهذه الرسائل وللطلاب وجنسياتهم وخلفياتهم ومدى تدينهم أو تمسكهم بالإسلام أو اعتزازهم به. ولكن الوقت لم يسمح لي بكل هذا البحث. وأتمنى أن يقوم بهذا الأمر بعض الأساتذة الذين يعيشون في الغرب، ولو أتيحت لي الفرصة للعمل هنا مدة أطول وباستقرار اجتماعي ومالي لقمت بمثل هذه البحوث.

وقبل أن ألج إلى موضوع الرسائل العلمية أتساءل دون أن أعرف كل الإجابات؛ كم عدد الرسائل التي يعدها طلابٌ عربٌ مسلمون في الجامعات الأوروبية والأمريكية في مجال الدراسات الإسلامية واللغة العربية والعلوم الاجتماعية والتاريخ الإسلامي والتاريخ الحديث مقارنة بعدد الرسائل التي تنجز في الجامعات العربية والإسلامية؟ ما الفرق بين

إجراءات التسجيل للدراسات العليا في الجامعات العربية والإسلامية وفي جامعاتنا؟ ما الفرق بين الموضوعات التي يقدمها الطلاب في الجامعات الغربية وبين التي تسجل في الجامعات العربية الإسلامية؟ ما الفرق في نوعية الإشراف على الرسائل العلمية بيننا وبينهم؟

أعرف بعض الإجابات - كما قلت- فمن القصص التي سمعت من الدكتور قاسم السامرائي أنه قبل حوالي أربعين أو حتى خمسين سنة أراد أن يقدم إلى جامعة كمبريدج للالتحاق ببرنامج الدراسات العليا. فأخذ موعدًا من البروفيسور آربري (الذي لديه ترجمة لمعاني القرآن الكريم إلى اللغة الإنجليزية، ولديه اهتمام بالتصوف وبالأدب العربي واللغة العربية) وما أن انتهى اللقاء حتى قال له: أنت مقبول في برنامج الدراسات العليا في جامعة كمبريدج. وهنا سؤال يفرض نفسه هل الأستاذ في الجامعة الأوربية له من الصلاحيات أن يعلن عن قبول طالب أجنبي للدراسة في الجامعة؟ ما صلاحية الأستاذ في جامعاتنا؟ أما خطة البحث التي أبدعنا في جعلها كأنها اكتشاف معادلة صناعة القنبلة الذرية، ففي بعض الجامعات يحتاج الطالب إلى سنة أو سنتين حتى يمكنه أن يسجل. أما الإشراف فقد مرت بي تجربة: أن عميد الكلية هو الذي يختار المشرف وليس القسم هو الذي يرشح (كما هو النظام) ومجلس الكلية هو الذي يوافق في الغالب على ترشيح القسم. وبعد اختيار المشرف الذي قد لا يكون له أي صلة بالموضوع يقول للطالب اذهب واكتب الرسالة كاملة وأتني بها وبعد ذلك يكون لنا لقاء. ويمكن أن لا تزيد التصويبات أو متقرحات المشرف على أمور شكلية. ويمكن أن يكون المشرف من النوع الذي يبيع العلم ويجعل الإشراف مغنمًا. وكما قال لي الشيخ إبراهيم سرسيق (كان أستاذًا بالجامعة الإسلامية ومشرف الصفحة الإسلامية بجريدة المدينة المنورة وخطيب مسجد الجمجوم في جدة في التسعينيات من القرن الماضي): لا تتعجب من طمع الأساتذة المشرفين، فقد أصبح الإشراف في بلادنا فرصة للحصول

على الهدايا والخدمات والرشاوي، ففي كل جلسة لا بد أن تأتي بهدية تصل إلى ثلاجة أو غسالة أو موقد غاز أو فيديو أو ما سواه. قلت: أَوَ حلال هو؟ ولن أقول ما أجاب به، ولكني عانيت من مشرفي في مرحلة الماجستير حيث كتبت الرسالة خمس مرات بالقلم الرصاص ومن مقاس سبعة من عشرة ملم ويخط غامق (يتعب في أثناء الكتابة) فلما أخبرت الدكتور (أبو القاسم سعد الله) أني كتبت الرسالة خمس مرات، قال: الأصل أن يقرأ لك الفصل الأول ويعطيك التعليمات الأساسية ولا بد أن تسير عليها في بقية الفصول.

وبين يدي الآن قائمة مكونة من أربع عشرة صفحة فيها مجموعة من عناوين الرسائل العلمية من جامعة ليدن، وقد قرأت عناوينها ثم بدأت أصنفها وفقًا للموضوعات التي تناولتها، وفيما يأتي التصنيف المبدئي الذي توصلت إليه:

١-موضوعات تتناول العلوم الإسلامية: القرآن الكريم، والحديث، والفقه والتفسير، واللغة العربية.

٢-موضوعات تتناول قضايا المرأة.

٣-موضوعات تتناول قضايا المسلمين في أوروبا.

والحقيقة أن هناك موضوعات جادة لكن يبقى الحكم على النتائج من خلال قراءة تلك الرسائل ومن هذه الرسائل التي يمكن أن تكون لها نتائج خطيرة إذا ما تدخل الفكر الاستشراقي في توجيهها وهو أمر غير مُسْتَبْعَد ومنها:

- «الإسناد وصحة الحديث: إعادة النظر في موثوقية الرواية» (١٩٩٨م). ما النتائج التي يمكن أن يصل إليها طالب في هولندا قد لا يتقن العربية في حديثه عن الوثوق في الإسناد بعد ألف وأربعمائة عام؟

وتحت هذه التقسيمات الكبرى هناك اهتمام بما يسمى الأسلمة، والجهاد في سبيل الله، ومقاومة الاحتلال الهولندي لإندونيسيا.

وقد لفت انتباهي أحيانًا الموضوعات التي أتعجب أن تكون موضوعًا لرسالة ماجستير أو دكتوراه، ومن هذه الموضوعات ما يأتي:

- حضور احتفالات أعياد الميلاد: دراسة لفتوى مجلس العلماء الإندونيسيين (١٩٩٨م)
- الأذان والحرية الدينية في هولندا: دراسة حالة ليدن (٢٠٠٠م).
- الحوار الإسلامي النصراني في الدين : معالم وحقيقة (١٩٩٨م).
- ممارسات الدفن لدى المسلمين الجاويين السورناميين في هولندا (١٩٩٩).
- ارتداء المعطف والبنطلون: دراسة لفتوى أحمد زيني دخلان في تقليد ملابس الكفار، (١٩٩٩م).
- فتوى محمد بن جعفر الكتاني بخصوص ارتداء الجلباب.

وهذه الأفكار مجرد أفكار أولية فعندي. قائمة أخرى بالرسائل العلمية وهي أكبر وأوسع من هذه القائمة وسوف تتم دراستها. ولكن كما لاحظ الدكتور قاسم السامرائي أن الرسائل الحديثة لا تهتم بالقضايا الكبرى التي تجعل الطالب يتعمق في فهم القرآن الكريم والسنة النبوية والفقه، ومن الأسباب الواضحة لهذه الأمور أن أقسام الدراسات الإسلامية أو دراسة الأديان تحولت إلى دراسة القضايا المعاصرة أكثر منها للتعليم التأصيلي الصحيح. ويمكن للإنسان أن يستشهد بالمثل الذي يقول: (فاقد الشيء لا يعطيه) فأين الأستاذ الذي درس اللغة العربية حتى أصبح يقرأ القرآن الكريم قراءة صحيحة وبفهم صحيح- كما أشارت الباحثة الأمريكية في مؤتمر واشنطن — وأين الذي يستطيع أن يقرأ المصادر الإسلامية؟ فصار التركيز على قضايا خفيفة سريعة تسهل الحصول على الدرجة العلمية. كما

أن الجامعات الغربية تقوّم الطالب، وهنا تقوم بتوجيهه كما تحب لا كما يجب هو. فيمكن إثارة قضايا معينة وبتوجيه معين حتى يصبح الطالب عونًا للغربيين أكثر منه تعمقًا في فهم الإسلام على حقيقته.

مؤتمر عالمي حول الإسلام في هولندا:

تذكر كتب التاريخ أن الملك الفرنسي لويس التاسع - الذي قاد إحدى الحملات الصليبية التي باءت بالفشل - لمّا أُسر في مصر أخذ يفكر في هذه الحملات فتوصل إلى أن المواجهة الحربية مع المسلمين لا تجدي؛ لأن المسلمين سرعان ما يعودون إلى الوحدة والقوة مهما بلغ ضعفهم، ولذلك فعلى الدول الأوروبية أن تسعى لمحاربة المسلمين في عقيدتهم وثقافتهم.

ولم تستمع أوروبا إلى النصح تمامًا فعادت إلى المواجهة الحربية، حيث احتلت الجيوش الأوروبية معظم أجزاء العالم الإسلامي، ولكنها مع هذا الاحتلال لم تنس نصيحة الملك الفرنسي فنشطت الجامعات والمعاهد الغربية ومراكز البحوث في دراسة العالم الإسلامي عقيدة وشريعة وتاريخًا ولغة وآدابًا واقتصادًا وسياسة، حتى أصبحوا كما يقول الدكتور أبو بكر باقادر: يعرفون الجزئيات وجزئيات الجزئيات أو تفاصيل التفاصيل عن الأمة الإسلامية ويستخدمون هذه المعرفة في محاربتنا.

وفي عام ١٩٠١م تقدمت مجلة فرنسية متخصصة في السياسة هي «مجلة قضايا دبلوماسية واستعمارية» إلى عدد من المستشرقين تطلب منهم أن يقدموا توقعاتهم حول أوضاع الإسلام والمسلمين في القرن العشرين وكان من هؤلاء المستشرقين: إي جي براون (E.G.Browne) الإنجليزي، والألماني هارتمان (Hartmann)، والهولندي سنوك هورخرونيه، واليهوديان المجريان جولدزيهر وفان دن بيرج (Van den Berg) بالإضافة إلى خمسة عشر مستشرقًا آخرين.

إن هذا الاهتمام بمحاولة استشراف مستقبل العالم الإسلامي يعود مرة

أخرى مع اقتراب حلول القرن الواحد والعشرين، وهاهي جامعة ليدن تأخذ المبادرة للنظر في مستقبل العالم الإسلامي بالتعاون مع إحدى أكبر البلاد الإسلامية سكانًا وهي إندونيسيا ، مع التركيز على جنوب شرق آسيا الذي يعتقد بعض الباحثين الغربيين أنه سيكون مركز الثقل في العالم الإسلامي في المستقبل؛ لما يظهر فيه من نشاطات اقتصادية مهمة.

وفطن الغرب إلى أهمية إشراك باحثين من العالم الإسلامي معهم هذه المرة ليفيدوا من علمهم ومن خبراتهم وللتركيز على اتجاهات فكرية معينة؛ فعقد المؤتمر العالمي الأول حول الإسلام والقرن الواحد والعشرين في ليدن في المدة من ٣ إلى ٧ يونيو ١٩٩٦م. وقد قُدِّم فيه ثمانون بحثًا حول ثلاثة محاور هي: الإسلام والمجتمع الدولي، والإسلام والتنمية، والإسلام والتعليم.

بدأت الجلسة الافتتاحية بكلمة لرئيس جامعة ليدن البروفيسور ليرتوور(L. Leertouwer) أشار فيها إلى اهتمامه بدراسة الأديان، وأنه كان عضوًا في قسم دراسة الأديان في جامعة ليدن. وأشاد بالمستشرق الهولندي سنوك هورخرونيه وغيره من المستشرقين الهولنديين على جهودهم في دراسة الإسلام وتطوير دراسة الدين الإسلامي في هولندا. ثم تحدث وزير الشؤون الدينية الإندونيسي الدكتور هـ. ترمذي طاهر الذي أشاد بالتعاون بين اندونيسيا وهولندا وبخاصة جامعة ليدن في مجال الدراسات الإسلامية ووزارة التعليم والثقافة والعلوم الهولندية. ودعا الحاضرين إلى المشاركة في المؤتمر الثاني الذي سيعقد في إندونيسيا بعد سنتين.

وطرأ تغيير على الجلسة الافتتاحية حيث تحدث وزير الشؤون الدينية المغربي الذي قال بأن مشاركة بلاده، وإن جاءت متأخرة، لكنها مشاركة جوهرية، ودعا إلى عقد المؤتمر الثالث في المغرب. وأشاد بالتعاون العلمي بين العالم الإسلامي والغرب.

وتضـمنت الجلسـة الافتتاحيـة البحـث الـذي تقـدمتْ بـه الباحثـة الباكسـتانية رفعـت حسـن الأسـتاذة بجامعـة لويفيـل بالولايـات المتحـدة الأمريكية، ومن الداعيات المشهورات لتحرر المرأة المزعوم. وكانت ورقتها بعنوان (ماذا يعني أن أكـون مسلمًا في مشـارف القـرن الواحـد والعشرين) أكدتْ فيها على التعاون بين الغرب والشرق وأنـه لا بـد مـن الحـوار البنـاء. ولكنها بدأت بالحديث عما رأته شرفًا كبيرًا لهـا أن تقـدم البحـث الافتتـاحي وأن اختيار امرأة لذلك مزية انفردت بها جامعة ليدن.

ويهمني في هذا المقال أن أشير إلى ما ذكرتْه (رفعت) عن الحديث النبوي الشريف من افتراءات بأن معظم الحديث النبوي الشريف موضوع، واستشهدت لذلك بما قاله الباحث فضل الرحمن (كان رئيس قسم الدراسات الإسلامية في جامعة شيكاغو الأمريكية) من أن كثيرًا جدًا من الأحاديث موضوعة ومزيفة، وقام بذلك العلماء المسلمون التقليديون. وقالت في أثناء النقاش بأنها لو أخذت أربعة أحاديث من صحيح البخاري - رحمه الله تعالى- وأرادت أن تناقش سندها ومتنها لارتفعت الأصوات بالاحتجاج بأنه لا يمكن لامرأة أن تفعل ذلك بالإضافة إلى كونها غير عربية وباكستانية.

ومن العجيب أنه لم يتصد لها أحد في هذه النقطة، فقد كان من الواجب أن يوضح لها وللحضور بأن العلماء المسلمين بذلوا من الجهود في فحص الأحاديث النبوية ما لم تعرفه أمة من الأمم حتى توصلوا إلى تصنيف الأحاديث إلى الصحيح والحسن والضعيف، وحتى في الحسن والضعيف ثمة تصنيفات أخرى توضح دقة هذا العلم والمنهجية الصارمة التي استخدموها في الذب عن حديث المصطفى صلى الله عليه وسلم. وكان على هذه المرأة أن تدرك أن صحيح البخاري قد خضع لدراسات عميقة جدًا، وأن الأمة الإسلامية قد تلقت عمل الإمام البخاري ليس بالقبول فحسب بل بالإشادة والتقدير والثناء. أما كونها امرأة وغير عربية فكم من النساء

المسلمات اللاتي نبغن في علوم الحديث قديمًا وحديثًا، ولتنظر عدَدَ مَنْ روى الحديث من النساء. وأما كونها غير عربية فهل كان البخاري أو مسلم أو الترمذي أو ابن ماجة عربيًا وهل كان سيبويه وغيره من العرب؟

جلسات أخرى من المؤتمر :

كان من الصعب حضور كل المحاضرات، لأن الجلسات كانت تعقد متزامنة، لذلك من الصعب الخروج برأي أو حكم على مجمل المؤتمر دون الاطّلاع على أكبر عدد من المحاضرات وهو ما يتطلب وقتًا وجهدًا. ولكن ما لا يدرك كله لا يترك جلّه.

ففي الساعة الواحدة والنصف من يوم الثلاثاء بدأت جلسات المؤتمر وفي محور الإسلام والتنمية قدّم نصر حامد أبو زيد -الأستاذ الزائر بجامعة ليدن- بحثًا بعنوان «الإسلام والتحديث» تناول فيه تعريف التحديث بأنه إجراء لإنشاء نظام سياسي واقتصادي وثقافي واجتماعي ليحل محل نظام أصبح جامدًا، وأن لكل مجتمع حداثته أو تحديثه الخاص به. وهنا مكمن الخطورة: فالنظام الإسلامي لا يمكن أن يصبح جامدًا في أي وقت. أما عن تحديث الإسلام في بدايته فذكر أنه جاء لتحديث المجتمع الجاهلي وأنّ الجاهلية ليست مقابل العلم ولكنها سلوك اجتماعي وتوجه عقدي يخالف الإسلام. وركز كثيرًا على الفروق بين المجتمع الإسلامي القائم على قيم تخالف قيم العصبية القبلية. وذكر في محاضرته الفِرَق الإسلامية مثل الشيعة والخوارج والمعتزلة، وأشاد بالمعتزلة كما يفعل كثير من المستشرقين بأنهم الحزب الليبرالي أو أصحاب التفكير الحر وزعم أن الاعتزال بدأ حركة سياسية تهدف إلى محاربة الدولة الأموية.

وطلبت التعليق فقلت بأن تحديث الإسلام لم يكن في يوم من الأيام خاصًا بالمجتمع القبلي الجاهلي في جزيرة العرب بل هو تحديث وإصلاح لما كان العالم أجمع يعاني منه من انحرافات عقدية وسياسية واقتصادية

واجتماعية. وذكرتُ له أن رسالة الإسلام هي للعالم أجمع. وأوضحت أن القرآن الكريم اهتم ببيان انحرافات بني إسرائيل العقدية والاجتماعية والسياسية، فمن ذلك: قتلهم الأنبياء، وقولهم على الله غير الحق، وأكل الربا، وغير ذلك. وأضفت أن القرآن ذكر الانحرافات الاقتصادية لقوم شعيب والانحرافات العقدية والسياسية لفرعون.

ومجمل القول حول محاضرة (أبو زيد) أنها لم تكن بالقوة من الناحية العلمية التي تبرر لجامعة ليدن استضافته، وهذا ما ذكره لي أخ جزائري بأنه لم يجد في هذه المحاضرة فائدة كبيرة. ولكن لعل (أبو زيد) يخاطب الغربيين فيروا أنّ كل ما يقوله جديد بالنسبة لهم.

ومن المحاضرات التي ألقيت في هذا المؤتمر محاضرة بعنوان (فشل البديل الليبرالي) للباحث الهولندي من جامعة ليدن، جوهانز جانسن، (وينطق يوهانز يونسن) تناول فيها قضية واحدة وهي: لماذا فشل الليبراليون في أن يحركوا الجماهير للقبول بمشروعهم بالرغم من أن كتبهم تجد رواجًا وتطبع المرة تلو المرة؟ وتحدث عن كتاب فؤاد غلام (الإخوان وأنا من المنشية إلى المنصة).

وتناول المحاضر كتابات من سمّاهم بالنخبة من أمثال مصطفى أمين ونوال السعداوي وفؤاد زكريا وسعد الدين إبراهيم ومحمد سعيد العشماوي وغيرهم، وأن هذه الكتابات لم تستطع أن توجد تيارًا يستطيع منافسة المشروع الإسلامي أو تقاوم الحركات الإسلامية التي يسمونها بالأصولية الإسلامية أو الإسلام السياسي.

ولم تصل المحاضرة إلى وضع النقاط على الحروف بالنسبة لفشل المشروع الليبرالي. وقد ردّ أحد الحضور -وهو الدكتور عبد العزيز شادي (رحمه الله) -الذي يحضر للدكتوراه في العلوم السياسية في جامعة ليدن- بأن معلومات المحاضر غير دقيقة فكُتُبُ هؤلاء ليس لها رواج الكتب

الإسلامية وهي غالبًا باهظة الثمن وأسلوبها يتسم بالغموض على حين تكون الكتب الإسلامية واضحة الأسلوب رخيصة الأثمان لأن مؤلفيها أصحاب دعوة لا يريدون الكسب المادي.

وأتيحت لي الفرصة للتعليق فبدأت بإبداء إعجابي بعنوان المحاضرة وذكرت أن العنوان (فشل المشروع الليبرالي) يتضمن حكمًا عليهم وهو حكم صحيح وأنا أؤيده -وإن كان هذا عكس ما قصده المحاضر-. ثم قلت له: لقد ذكرت مجموعة من الأسماء :مصطفى أمين ، وفؤاد زكريا وسعد الدين إبراهيم وغيرهم بأنهم النخبة ولكن هذه ليست نخبة حقيقية بل نخبة زائفة لأنها مصنوعة في الخارج، بمعنى أن ثقافتها غربية وتوجهاتها علمانية غربية. ثم هناك مجموعات شبيهة بها في معظم البلاد العربية الإسلامية درست في المعاهد الأجنبية أو تلقت تعليمها في الخارج وتأثرت بالفكر الغربي. وأضفت بأن علينا أن نحدد معاني المصطلحات التي نستخدمها.

وحتى لا آخذ أكثر من الوقت المحدد للتعليق فقد توقفت ولو أتيحت لي الفرصة لقلت له بأن النخبة أو الصفوة هم علماء الأمة العاملون أو العلماء الربانيون كما يسميهم القرآن الكريم. أو النخبة هي أصحاب الأيادي المتوضِّئة والوجوه الوضيئة التي يشع منها نور الإيمان. ولقد كانت النخبة في مجتمع المدينة المنورة في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم، هي كبار الصحابة وأصحاب السابقة في الإسلام. بل يرى البعض أن النخبة هي أهل بدر من المهاجرين والأنصار أو هم أصحاب بيعة الرضوان. فهذه هي المعايير الإسلامية في تحديد النخبة. والنخبة في المجتمع الإسلامي هي التي تبذل في سبيل رفعة مجتمعها وتَقَدُّمِه، ولا تتسلط عليه فكريًا وتتعالى عليه كما هو الحال فيمن يطلق عليهم الغربيون النخبة. وقد ذكر الباحث الغربي أن هؤلاء يعيشون في بروج عاجية لا يعرفون حقًا معاناة شعوبهم. فكيف – بالله- يستحقون لقب النخبة؟ ولكن تعالي بعض الغربيين جعله

يصر على استخدام مصطلح النخبة لوصفهم، وأضاف أنه إذا لم يكن مصطفى أمين من النخبة فَمَنْ النخبة!! فهذا التعالي والعنجهية جعلاه لا يقبل بالرأي الآخر.

وقفة: لفتَ انتباهي أكثر من قارئ- حيث كانت هذه المقالات تنشر في صحيفة «المدينة المنورة» في زاويتي الأسبوعية (من آفاق الكلمة)- إلى أنه كان عليّ أن أتصدى للباحثة الباكستانية رفعت حسن حين طعنت في الحديث الشريف في الجلسة الافتتاحية. ولكن نظرًا لأن هذه أول مرة أحضر فيها مؤتمرًا عالميًا في بلد أوروبي وكانت القاعة مزدحمة بالحضور، فقد شعرت بشيء من التردد، ولكن أحمد الله - عز وجل - أن قمت بشيء من الواجب في الجلسات الأخرى.

متى ندرسهم نحن؟

بينما كنت أفكر في موضوع هذا الجزء من التقرير عن المؤتمر تخيلت أن مؤتمرًا عالميًّا بعنوان «الحضارة الغربية والقرن الواحد والعشرين» يعقد الآن في دولة إسلامية وقد دعي إليه الكثير من العلماء والمفكرين الغربيين ليقدموا لنا خلاصة علمهم وخبرتهم وتجاربهم فيما ستؤول إليه حضارة الغرب في القرن القادم، وربما كانت محاور المؤتمر: الإنسان في الحضارة الغربية، البيئة في الحضارة الغربية، الدين في الغرب...الخ.

لكن ما دام هذا المؤتمر سيعقد مرة أخرى فإن الفرصة ما تزال مواتية لتمثيل المملكة في محاوره المختلفة فقد لاحظت تمثيلًا كبيرًا لجمهورية مصر العربية وإندونيسيا (أحد المنظمَين للمؤتمر) وهولندا. وبالإمكان الاتصال بوزارة الشؤون الدينية الإندونيسية لمعرفة موعد انعقاد المؤتمر القادم ومحاوره المختلفة.

أعود إلى البحث الذي تقدمت به حول نظرات ابن باديس للتنمية، فقد حضرت اجتماعًا قبل أكثر من عام عقد في جدة حضره بعض

المثقفين من المملكة وكان ضيف الاجتماع باحثًا أمريكيا متخصصاً في العلوم السياسية. وبدأ الاجتماع بأن تحدث عن الحركات الإسلامية أو (الأصولية) زاعمًا أنها ستعيد البلاد الإسلامية إلى العصور الوسطى (الأوروبية) حين كان العلماء يقتلون ويحرقون. وأن الحركات الإسلامية تضطهد المرأة وأن الأقليات سوف تعاني. والحديث وإن كان ظاهره عن الحركات الإسلامية لكنه في الواقع طَعْنٌ في الإسلام، فالدول التي ظهرت فيها الحركات الإسلامية تخلت عن التطبيق الكامل للشريعة الإسلامية منذ زمن بعيد، ولذلك فالاتهام موجه للإسلام. وكتب مثل هذا الكلام «مستشرقون» من أمثال دانيال بايبس وبرنارد لويس. وقد كان لويس عنيفًا حاقدًا في نقده وكانت محاضرته التي ألقاها في مكتبة الكونجرس محاضرة تحريضية ضد الإسلام والمسلمين.

ولذلك كان اختياري لشخصية إسلامية مرموقة تناولتْ قضية التنمية بوعي إسلامي وفهم عميق للإسلام ولواقع الحضارة الأوروبية. فقد كان لابن باديس رحمه الله دروس في تفسير القرآن الكريم . ومن هذه الدروس حديثه حول قول الله تعالى:﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لله مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُم مِن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ [سبأ : ٤٦] حيث ذكر أن هذه الآية تستحق أن يطلق عليها «آية النهوض الإنساني»، فقوله: (قوموا) لا تعني القيام على الأرجل وإنما معناها النهوض، ولو كان هذا مرادًا وفهمته العرب منه لما سادوا المعمورة . ولا ينسى ابن باديس أن يحدد أهداف هذه النهضة كما فهمها من القرآن الكريم بقوله: « إن النهضة يجب أن تكون لله فإن كانت لغيره فإنها لا تخلو من ضرر يعود على نوع الإنسان من جهات شتى وإن نفعت قومًا من بعض الوجوه» .

وتحدث ابن باديس في تفسير قوله تعالى﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ،وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾

[الشعراء: ١٢٨-١٣٠]، وهنا تحدث ابن باديس عن التفاسير التي ذكرت أن معنى مصانع هي القصور أو مجاري المياه ويقول في ذلك ابن باديس: (وعلى القولين فهي دليل على معرفتهم بفن التعمير علمًا وعملًا) ويضيف: (ولكن ليت شعري ما الذي صرف المفسرين اللفظيين عن معنى مصنع الاشتقاقي، والذي أفهمه ولا أعدل عنه هو أن المصانع هي جمع مصنع كالمعامل من العمل وإنها مصانع حقيقية للأدوات التي تستلزمها الحضارة ويقتضيها العمران. والقرآن لم ينكرها لذاتها وإنما أنكر عليهم غاياتها وثمراتها، فإن المصانع التي تشيد على القسوة والقوة لا تحمد في مبدأ ولا في غاية، وأي عاقل يرتاب في أن المصانع اليوم هي أدوات عذاب لا رحمة، ووسائل تدمير لا تعمير، فهل يحمدها على عمومها؟

وختمت محاضرتي بعبارات حول التنمية والاحتفاظ بالهوية الإسلامية -وهو ما كنت أتمنى لو تحدثت فيه عن تجربة المملكة- فكان مما قلته: يجب أن تبدأ التنمية الحقيقية بالحفاظ على الهوية الإسلامية، وبعد ذلك فإن أي استعارة من الآخرين ستكون مقبولة ما دامت لا تؤثر أو تتعارض بأي طريقة مع الهوية الإسلامية. وبالإضافة إلى ذلك فالمحافظة على احترام الذات متطلب أساسي من متطلبات النهضة الحقيقية. ففي العصور المبكرة في التاريخ الإسلامي عندما بدأ أول اتصال للمسلمين بالحضارات الأخرى مثل الفارسية واليونانية والهندية، فإن المسلمين لم يصابوا بالانبهار بهذه الحضارات إلى درجة فقدان قيمهم وأخلاقهم. وفي الوقت نفسه لم يحتقروا هذه الحضارات ويقللوا من شأنها، فإنهم على العكس من ذلك؛ درسوا هذه الحضارات دون تحيز أو تعصب وأخذوا منها ما يلائمهم، وقدموا إسهامات أثْرَتِ المعرفةَ البشرية التي أخذها عنهم العالم وبخاصة أوروبا ليصنعوا منها حضارتهم المعاصرة. إن إنكار هذا الإسهام الإسلامي ورفض نهضة المسلمين وفق مسلّماتهم وثوابتهم لا يعد سلوكًا عاقلًا.



صورة رقم (٦) : الثلج في ليدن يجمد كل شيء



صورة رقم (٧) : قنوات مدينة ليدن الهولندية

الرحلة السويدية

جاءتني الدعوة لزيارة السويد حين كنت في زيارة اليابان في شهر نوفمبر ٢٠٠٦م (شوال ١٤٢٧هـ) من الأخ عثمان طوالبه الذي يعمل في مؤسسة ابن رشد للتعليم؛ للمشاركة بعدد من المحاضرات في برنامج «السلام في الإسلام» وتم ترتيب البرنامج: أن أعود من اليابان وبعد أسبوع في الرياض أتوجه من جديد إلى السويد. ولكن ما الذي جعل عثمان طوالبه يوجه لي الدعوة بالنيابة عن مؤسسة ابن رشد فتلك قصة تستحق أن أقدمها بين يدي زيارتي للسويد.

فقبل خمس سنوات أو ست وصلتني رسالة من الأستاذ عثمان يتحدث عن مركز المدينة المنورة لدراسات وبحوث الاستشراق ويقدم بعض الاقتراحات وها هو نص الرسالة:

« الحمد لله والصلاة والسلام على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وعلى آله ومن والاه، ومن تبعه هديه وذب عن دينه ونشر سنته إلى يوم الدين. أما بعد :

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

الدكتور الفاضل مازن المطبقاني وفقه الله لما يحبه ويرضاه.

بارك الله في هذا الجهد الضخم الذي تقوم به ونفع الله بك الأمة ونفعك الله بما عملت صدقة جارية، تجدها عند الله تعالى يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم، وأنا مداخلتي طويلة قليلًا ولكنني أرجو منها الفائدة بإذن الله تعالى:

أولًا : مجرد وجهة نظر

حقيقة لقد وجدت ضالتي في موقعكم المبارك الذي يُعَدُّ جهدا لا يستهان به لأجل المشاركة في رفعة الأمة الإسلامية ونهوضها من جديد، فنحن المسلمين طالت كبوتنا وآن الأوان لموجِّهي الأمة وقادتها وعلمائها أن يشاركوا في إعادتها لأصالتها، وإعطاءها دورها الريادي بين الأمم كافة

بإعادتها لشروط تحقيق الخيرية بين الناس، ولا يكون ذلك إلا باتباع منهج علمي رصين مبني على فهم الواقع المعاش، بحيث يستفيدون من الماضي ويحللون الحاضر ويستشرفون معالم المستقبل القادم.

لا غرو أن تكون انطلاقة هذا المركز المبارك من مدينة النبي صلى الله عليه وسلم، والتي يأرز الإيمان إليها كما تأرز الحية إلى جحرها كما أخبر الصادق صلى الله عليه وسلم، ويقف هذا المركز شامخا بجهود العلماء وطلبة العلم المشاركين فيه ليسد ثغرة عظيمة افتقرت طويلا إلى من يذب عنها بشكل منظم ومدروس. وهذا الجهد يمثل خطوة إيجابية نحو الجماعية والتنظيم في مواجهة آثار الغزو الاستعماري للعالم العربي والإسلامي بمختلف مجالاته ونواحيه، وليس غريبا على أمة النبي صلى الله عليه وسلم، والتي تحمل من خصائص ومقومات النهضة والتطور ما تحمل، أن تنفض الغبار عنها وتقوم من جديد بجهود المخلصين من أبنائها لتحمل راية البشرية نحو التقدم والسعادة لخيري الدنيا والآخرة.

لا أحبذ الاكتفاء بالجانب الوصفي ومجرد الثناء على هذا الجهد الطيب الذي يستحق كل الثناء فجزاكم الله خيرًا، ولكنني سأحاول إضافة لمسات أراها تساهم في تطوير هذا العمل نحو الإمام.

إذا أردنا دراسة الغرب دراسة موضوعية فعلينا أن نبدأ بخطة مدروسة واضحة المعالم موزعة الأدوار على القادرين والمتخصصين في مختلف المجالات، وبتوجيه من منابع الفكر ومصادر التوجيه المتمثلة في جهابذة الدعاة والمصلحين، بارك الله فيهم وفي جهودهم، التي تكون بمثابة مشعل يضيء الطريق لكل عامل في هذا المجال، ويُعبِّد الضوابط والمنطلقات التي تحافظ على مسيرة العمل دون إفراط أو تفريط.

الخطوة الأولى: تكون بوضع دراسة شاملة من خلال ورشات عمل ولجان متخصصة لأجل وضع الأهداف العريضة والوسائل العامة لهذا المشروع التاريخي الضخم.

الخطوة الثانية: التوجه إلى الخارطة السياسية للغرب (أوروبا وأمريكا)، بحيث نعمد إلى تقسيمها جغرافيا إلى عدة مناطق مثلًا (أوروبا الغربية، الشرقية، الشمالية...الخ)، بحيث يشمل هذا التقسيم كامل الرقعة الجغرافية الغربية، لأجل تسهيل دراستها فيما بعد.

الخطوة الثالثة: نعمد إلى توجيه نداء لكل الباحثين والمهتمين بدراسات الاستشراق من خلال صفحات مركز المدينة لدراسات الاستشراق على الإنترنت، لأجل المساهمة الفاعلة في دعم ونصرة المشروع، وأنا على ثقة من تجاوب الغيورين من أبناء هذه الأمة لهذا النداء!

- أن تشمل الدراسة في مرحلتها الأولية الأوضاع الحالية للدراسات العربية والإسلامية في الغرب. وهذا يعني :
- دراسة أوضاع الجامعات الغربية ومراكز البحوث الإسلامية فيها ومتابعة نشراتها ومؤتمراتها وبحوثها.
- عمل مسح شامل وسريع لأسماء هذه المراكز والمعاهد والجامعات وإعطاء عناوينها الإلكترونية على الإنترنت، حتى نسهل عملية الرجوع لها.(عمل خريطة لمراكز الاستشراق في العالم الغربي - صفحة متخصصة على الإنترنت).
- دراسة أوضاع الكليات والمعاهد المتخصصة في الاستشراق، والتي يتبع قسم منها للدراسات الأكاديمية الجامعية في حين نلحظ أن القسم الآخر هي مراكز استشراقية مستقلة عن الغطاء الجامعي.
- دراسة وتحليل المناهج المعتمدة لتدريس الإسلام في هذه المناطق، ومن ثم دراستها بشكل موضوعي متكامل، وهذا يحتاج إلى كادر متخصص لأجل ترجمة أهم الأعمال في هذا المجال.
- بعد اكتمال الأسماء التي تتطوع للعمل يُعلن عن جميع الأسماء ومناطق انتشارهم في الغرب، بما يشمل العناوين والهواتف،

ومواقعهم على الإنترنت (إن وجدت) بحيث نعمد إلى العمل المنظم على شكل مجموعات تتقارب أو تتباعد تبعًا للمناطق الجغرافية.

- اعتماد عقد مؤتمرات تتعلق بهذا الشأن بين المتطوعين لأجل الاتفاق على آلية عمل مشتركة فيما بينهم.
- تقوم صفحة مركز المدينة على الإنترنت بتغطية وبث أخبار لجان العمل هذه، وحبذا لو استطعنا جمع جميع العاملين في هذا المجال سنويًا أو حسب المستطاع.
- ضرورة التنسيق في هذا المجال مع الجمعيات والمؤسسات العاملة في أوروبا لأجل مساعدة الجالية العربية والإسلامية الأوروبية، للاستفادة من طويل خبرتهم في هذا المجال.

وبعدُ: فهذه نظرة أولية لتنظيم العمل من داخل أوروبا لأجل الإطلاع بعمق على واقع المراكز الاستشراقية من خلال دراسات مبنيّة على الواقع والإحصاءات، وهو جهد متواضع أقدمه لأخواني العاملين في هذا الحقل والمجال سائلًا المولى – عز وجل – أن يغفر لكاتبه زلة القلم وعثرة اللسان.

أتوجه إلى جميع الأخوة المهتمين بهذا الشأن أن يشاركوا في تقويم هذا «الاقتراح» سلبًا أو إيجابًا، لتتسع دائرة الحوار فتتعمق الفكرة وتنضج.

الداعي لكم بالخير: عثمان الطوالبة.

ماجستير في الحديث النبوي الشريف وعلومه – كلية الدراسات الفقهية والقانونية – قسم أصول الدين / جامعة آل البيت – المفرق – الأردن. المقيم حاليًا: السويد – مدينة هلسنبوري. الاثنين، ٢٠ ربيع الأول، ١٤٢٢هـ الموافق: ١١/ ٠٦/ ٢٠٠١م.

وسوف أتناول في الصفحات التالية كيف توصلنا إلى زيارة السويد وما تم فيها.

الجزء الثاني من رسالة عثمان الطوالبه:

كنت أود أن أتفاعل مع رسالة الأخ عثمان منذ زمن ولكن كنت في مرحلة صعبة في قسم يوشك أن يغلق- أو هو قد أغلق- وكانت الجامعة تريد منّي الانتقال إلى الرياض لإنشاء مركز للدراسات الاستشراقية (وَعَدُوا ولم يوفوا) فلم أتمكن من تحقيق مقترحات الأخ عثمان، وأسأل الله أن ييسر لي التلاميذ والمساعدين لتحقيق هذه الاقتراحات العظيمة. والآن إلى الجزء الثاني من رسالة عثمان.

ثانيا : وقفة مع الأخ الكريم (يحيى أبو زكريا)

لقد اطلعت في العدد الأخير (من النشرة التي كان يصدرها المركز) على ما كتبه الأخ الباحث الجزائري (يحيى أبوزكريا):- رئيس النادي العربي الثقافي في السويد، وبالرغم من احترامي وتقديري لما كتب، إلّا أنني لا أتفق معه فيما ذهب إليه: فمصطلح حوار الحضارات والثقافات ليس مجرد نغمة وحسب، بل لحن أصيل ومنهج إسلامي ثابت، دعت إليه نصوص الكتاب والسنة النبوية الشريفة، ومارسه النبي صلى الله عليه وسلم، وأصحابه والتابعون من بعده، فهو وسيلة فعالة من وسائل الدعوة إلى الله تعالى، ودعوات الحوار في عالمنا العربي والإسلامي تعبر عن عمق وأصالة الحرية الفكرية وعدم الخوف من الآخر، وليست قرينةً وامتدادًا لا ينفك عن «مؤامرة» نردد صداها صباح مساء: وإن كنت لا أنكر محاولة الكثيرين التلبيس على الأمة وسلب هويتها وإمرار مخططات استعمارية جديدة تحت دعاوى الحوار والثقافة، ولكن هذا لا يسلبنا النَّصَفَة في نظرتنا وتقويمنا للأمور. وهو في نفس الوقت -الحوار الثقافي- يعني الكثير للجالية العربية والإسلامية في الغرب، فمن خلاله تستطيع الجالية المغتربة أن تحقق ذاتها وتعبر عن وجودها وتدافع عن حضارتها وتشارك في بناء «أوروبا عام ٢٠٠١ » المتعددة الثقافات والتي أصبحت تعي أن مستقبلها دون «حوار

أو تفاهم» هو مستقبل غامض يشوبه الكثير من المخاوف على طبيعة العلاقة القادمة بين الثقافات المختلفة المتعايشة في أوروبا؛ التي جربت سياسة تذويب هوية الوافدين إليها وأثبتت التجارب فشل هذه السياسة وخلقها لكثير من المشاكل التي تتعلق بالتعايش والاندماج، والسويد خير مثال يضرب في هذا المضمار، ولذا بدأت أوروبا تعي خطورة الوضع القادم وتداعياته على مختلف الأصعدة، وبالرغم من عدم اقتناع الأوروبيين جميعًا بخطورة الموقف، إلا أن هذا هو الذي يدور في أروقة المجالس ودهاليز السياسة الأوروبية اليوم، ولكن هذا يصطدم دومًا بعقلية الرجل الأبيض الذي ورث العداء الأعمى والخوف غير المبرر من الإسلام والمسلمين.

إنني أقرأ النظرة التشاؤمية من بين السطور في كلام الأخ لكل حوار أو تقارب بين الحضارات والثقافات، فنحن إما أمام مجموعة «هواة» يمارسون علينا هواياتهم وحسب، وإما أمام سياسة «تذويب» تخدعنا ببريقها اللامع لأجل طمس هويتنا والقضاء على شخصيتنا وذاتيتنا، وخاصة عندما يتعلق الأمر بالأجيال الجديدة الناشئة في أوروبا !! وهذا ما لا أراه ولا أقول به، فبالرغم من الصورة المرعبة لنا كمسلمين في الغرب إلا أننا -من خلال الحوار والتلاقي بين الحضارات- نستطيع أن نأخذ غطاء واسعًا للدعوة إلى هذا الدين الحنيف الذي هو بحاجة إلى حسن العرض وتخير الأولويات الدعوية، بحيث نعرض من إسلامنا مثلًا ما يساعد في حل المشكلات الداخلية للمجتمعات الأوروبية، كمشاكل المخدرات، والكحول، وتربية الأطفال التي سببها خروج المرأة للمجتمع بأنانية وعدم مراعاة تكامل الحقوق والواجبات؛ مما أفقد الأسرة والعائلة، بل الطفل المعاني السامية والنبيلة، وغير ذلك من النواحي التي تعد ثغرات وما أكثرها في واقع الحياة الأوروبية. مما حدا الكثير من الباحثين الأوروبيين إلى التنبؤ بسرعة سقوط صرح الحضارة الغربية وهذا أنتج نزيفا ومعاناة شديدة للمجتمع الأوروبي بالرغم من العيش الرغيد والرفاهية العالية. فنحن نحاول ،على

الأقل، الحفاظ على أبناء جاليتنا العربية والإسلامية مما يقلل من معاناة المجتمع الأوروبي بشكل عام، ناهيك عن ضرورة مساهمتنا الفاعلة في المجالات الأخرى الخاصة بالحياة الأوروبية المعاصرة، وهذا كله لا يتأتى إلا بإبراز «الأنا» مقابل الآخر عن طريق الحوار والتفاهم.

وبدلًا من النظرة التشاؤمية و «النظارة السوداء» للتقارب والحوار مع الغرب -وهي تعود في جذورها إلى النظرة الكلاسيكية التقليدية التي لدينا عن كل محاولة للالتقاء والتفاهم والحوار- علينا أن نستغل «الممكن» لتحقيق ما نراه اليوم «مستحيلًا» لمستقبل الإسلام والمسلمين في أوروبا، وخاصة عندما يتعلق الأمر بالأقليات المسلمة التي تعيش بين الأكثرية النصرانية في الغرب، فدعوى التقوقع وعدم الانفتاح والحوار تؤدي إلى تراجع أبناء الجالية «ودفنهم» في الصفوف الخلفية في المجتمعات الأوروبية التي ستعاني في المستقبل القريب من اختلال التوازن السكاني حيث تظهر الإحصائيات نقصًا حادًا لسكان أوروبا الأصليين لحساب«سكان أوروبا الجدد» مما يعني نقصا حادا في الكوادر التي تنتمي إلى الناشئة في أعمارهم الأولى، فماذا أعددنا نحن «مسلمي أوروبا»لأجل التعامل مع هذا الفراغ القادم؟ وأين موقع أبنائنا وبناتنا على الخارطة الأوروبية المستقبلية؟ وماذا قدمنا لأجل المشاركة في البناء والتقدم من خلال هويتنا الثقافية والعقدية؟ وهل نجحنا في إظهار المسلم المنتج والمبدع بدلًا من المسلم المستهلِك و«البليد»؟ هل نحنُ «ونحن نعيش في الغرب» قادرون على انتشال الحضارة الغربية عند سقوطها وإبدال حضارتنا بها وتعاليم ديننا الحنيف، بحيث نكون «سفينة نوح» التي تعصمُ من أمر الله ؟! هذه التساؤلات المشروعة، بل والواجبة هي التي تشكل وتصوغ مستقبلنا في القارة الأوروبية.

لا أريد أن أحمِّل كلام الأخ الفاضل ما لا يحتمل «فلازم المذهب ليس بلازم»، ولكننا للأسف لا زلنا غير قادرين على مجرد تحليل «الواقع

الغربي» والتعرف إليه من الداخل وتحديد علاقتنا معه، وهذا أدى إلى ضياع الأولويات ونشوء أجيال مهزومة داخليًا ومبهورة خارجيا بما عند الغرب، وبالتالي تخلخل ميزان الثابت والمتغير، واختلط «التكتيك» بـ «الإستراتيجية» ، والأصول بالفروع، والحلال بالحرام. والله المستعان ولا حول ولا قوة إلا بالله !!.

ثالثًا: مجرد تساؤلات

- أستغرب تماما خلو هذا الموقع المبارك من دراسات تتعلق بالإنتاج العلمي الذي قدمه المفكر الإسلامي مالك بن نبي- رحمه الله تعالى- فله سبق وفضل في مواضيع النهضة وشروطها لا بد أن يشار إليها؛ لما فيها من تكميل لكل ما يثار في الموقع من مواضيع.
- أيضًا لم تدرس تجارب كل من: جمال الدين الأفغاني وتجربة إدوارد سعيد وغيرها من التجارب التي تستحق الدراسة والعناية، ويا حبذا لو أفرد بند خاص في «مجلة المركز» تحت عنوان «تجارب رائدة في الاستشراق أو الاستغراب».
- لم تُعْطَ دعوة حسن حنفي «مقدمة في علم الاستغراب» حقها من التحليل والتعليق في الموقع، وبغض النظر عن الحكم على الكاتب سلبًا أو إيجابًا إلا أن المادة العلمية أو المشروع الذي قدمه، هو مشروع يستحق البحث والدراسة التحليل.
- لماذا لا يكون للزائر الحق في دراسة رسائل الدكتوراه أو الماجستير كاملة، وكذا الحال بالنسبة لمجموعة كتب الدكتور مازن المطبقاني، بدلًا من الاكتفاء بالعرض الموجز والسريع ؟!
- لماذا يخلو الموقع من روابط بغيره من المواقع المتعلقة بالاستشراق، وإن كانت بغير اللغة العربية حتى لو من باب (أعرف عدوك) على الأقل؟!

وأخيرًا: فإنني أجد نفسي أمام هذا الجهد الكبير مَدينًا بالدعاء لصاحبه الدكتور مازن المطبقاني غفر الله له ولوالديه، بالتوفيق والسداد، راجيًا أن يجد فيما كتبت نصائح قد تفيد في دفع عجلة العمل إلى الإمام.

اللهم لا تعذب لسانًا ينطق بك، ولا عينًا تنظر إلى علوم تدل عليك، ولا يدًا تكتب حديث رسولك، فبعزتك لا تدخلني النار، فقد علم أهلها أني كنت أذبُّ عن دينك.

يقولون لي ما أنت في كل بلدة......

واستمرت الصلة بيني وبين الأستاذ عثمان طوالبه عن طريق الرسائل الإلكترونية، وعن طريق المرسال (المسنجر، عملًا بقول الاستعارة من اللغات وإخضاعها للقواعد العربية)حتى أجرى اتصالًا هاتفيًا معي وأنا في طوكيو فاتفقنا على أن تبدأ زيارتي إلى السويد وبعدها أكمل طريقي إلى ليدن حيث أقضي جزءًا من التفرغ العلمي. فكان الترتيب أنني حين أحضر إلى هولندا يمكن أن أزور السويد لأن المسافة قصيرة. ولم أكن أعلم أن زيارتي للسويد يجب أن تكون في موعد محدد لأن معهد ابن رشد لديه برنامج محدد.

وحصلت على تذكرة للسفر إلى هولندا عن طريق السويد، فوصلت ستوكهولم يوم السبت التاسع من ديسمبر ٢٠٠٦م فاستقبلني الأخ عثمان ومعه الأخ ياسين، المقيم في السويد وهو من أصل أرتيري (هناك جالية أرتيرية كبيرة في السويد). وبعد إجراءات قليلة في المطار انتقلنا إلى قرية نائية بالقرب من مدينة ستوكهولم، وقد لاحظت أن الغربيين يحبون أن يعقدوا ندوات ومؤتمرات ودورات علمية في مناطق نائية حتى لا ينشغل المشاركون بالأسواق والنزهات بل يكون كل اهتمامهم موجه للمهمة التي جاؤوا من أجلها، وتكون المواصلات أحيانًا صعبة للانتقال إلى المدينة القريبة. وهذا ما يصلح لبعض المشاركين العرب والمسلمين الذين لاحظت

أنهم يحضرون جلسة الافتتاح ثم لا تراهم إلّا في الجلسة الختامية حين توزع شهادات الحضور(بعض المؤتمرات تعطي هذه الشهادات السخيفة) ويقضون بقية أيام المؤتمر في النزهة والاستجمام. (هذا اتهام وجّهَه الدكتور محمد ربيع في كتابه عن البحث العلمي من منشورات عمادة البحث العلمي حين كان وكيلًا للجامعة للبحث العلمي).

وما إن وصلنا إلى تلك المنطقة النائية وكان الوقت عصرًا ارتحت قليلًا من عناء السفر وكان عليّ تقديم محاضرتين في تلك الليلة: الأولى كانت بعنوان (الإسلام في نظر الغربيين)، والثانية (الإسلام دين السلام) وقد حاولت أن أعد لهذه المحاضرات في المدة التي بدأت الاتصالات بيني وبين عثمان فيها كما أن خبرتي في معرفة نظرة الغرب إلى الإسلام ساعدت في إعداد

محاضرة في مسجد مالمو:

هي ثالث أكبر مدينة في السويد، وتقع في الجنوب على الحدود مع الدنمرك، يبلغ سكانها ٢٧٠ ألف نسمة وقد تنازعها السويديون والدنمرك فكانت تابعة للدنمرك ثم أصبحت تابعة للسويد عدة مرات. وهي مدينة قديمة يظهر ذلك من مبانيها، وفيها جامعة من أكبر جامعات السويد على الرغم من حداثة عهدها (تأسست عام ١٩٩٨م) ويقول موقع كريستيان ساينس مونيتور إن عدد المسلمين في مالمو يفوق أي مدينة أخرى في غرب أوروبا، ويوضح هذا التحديات التي تواجه المواطنين الأصليين أمام ازدياد عدد المسلمين غير الراضين عن أوضاعهم.

http://www.csmonitor.com/2005/1206/p07s02-woeu.html

وكما ذكر الموقع فإن نسبة المسلمين الألبان كبيرة في المدينة. وذكر خلافات بين المسلمين، وقد تعرض مسجد المدينة لإشعال النيران فيه، ولا تزال آثار الحريق موجودة. ومع ذلك وازدياد عدد المسلمين، فقد تمت



صورة رقم (٨) : في مدينة هلسنبورج بالسويد

صورة رقم (٩) : محاضرة في مسجد بالسويد

صورة رقم (١٠) : في مدينة هلسنبورج بالسويد مع عثمان طوالبة في هلسنبورج - المشرف على برنامج السلام في الإسلام - السويد

توسعة المسجد عدة مرات. وقد لاحظت وفودًا من السويديين يزورون المسجد وتعد الملابس الساترة في مدخل المسجد لترتديها النساء عند دخولهن المسجد. وقد أعجبني الاهتمام بالإسلام في السويد.

بعد رحلة فيها شيء من المشقة (نسيت تفاصيلها) كان من المفروض أن نصل إلى المسجد على الساعة السادسة والنصف ولكننا تأخرنا حتى التاسعة تقريبًا؛ لذلك لم يبق في المسجد إلّا عدد قليل كانوا ينتظرون خطيبًا أو واعظًا. وتحدثت إليهم عن اهتمام الأوروبيين والأمريكيين بالوجود الإسلامي في أوروبا، بل إن هذا الاهتمام يصل إلى حد الخوف بل الرعب أحيانًا. ولذلك فعلى المسلمين في أوروبا واجب كبير أن يعوا مكانهم، وأنهم إذا تحرروا من الظلم والاستبداد في بعض الأقطار التي هاجروا منها فعليهم أن يحمدوا الله عز وجل على نعمة الحرية ويسعوا إلى التمسك بالإسلام ونشره والدعوة إليه. كما على المسلمين أن يكونوا عناصر فعّالة في المجتمعات المضيفة بأن يدرسوا هذه المجتمعات ويفهموها فهمًا جيدًا ويتفاعلوا مع القضايا العامة ويقدموا ما يرونه مناسبًا لحل هذه المشكلات.

ولما كان الجمهور أقرب إلى العوّام فقد كان من الصعب عليّ أن أقدم محاضرة بالمعنى الصحيح ولذلك حاولت أن أكون بسيطًا في تناولي للأمور. وكان أحد الأخوة قد ترك سؤالًا لأنه لم يستطع البقاء حتى حضورنا (الأخ عثمان وأنا) فقرأت السؤال وقلت:نعم ثم، بدأت الحديث عن مكانة العلماء في حياة الأمة وأنهم القادة الحقيقيون وهم منارات السبيل والهداة وذكرت حديث (اثنان إذا صلحا صلح الناس وإذا فسدوا فسد الناس، العلماء والأمراء)، وهنا تدخل عثمان وقال: اقرأ السؤال: قلت له: بدأت بالإجابة حرصًا على التشويق، ونص السؤال هو: «حين يتحول العلماء الممثلون للعقيدة لتبرير ممارسات الموجهين للسياسة، فإن الخلل والفساد ينتشران في المجتمع حتى ينتهيا به إلى الانهيار والسقوط، فهل يقع هذا في عالمنا العربي اليوم؟

قلت: نعم وألف، ولكنه حدث قديمًا كما يحدث اليوم أيضًا، ثم ذكرت قصة سفيان الثوري مع أبي جعفر المنصور (فحل بني العباس ومؤسس دولتهم) حين جاء أبو جعفر إلى الحج فسأل عن سفيان، ولما قابله، قال له: يا سفيان، لمَ لا تأتنا فنستشيرك فما أمرتنا بشيء فعلناه، وما نهيتنا عن شيء تركناه ، فقال سفيان: يا أبا جعفر، كم بلغت نفقتك في الحج وهذه الأعداد الغفيرة تحج معك. فقال أبو جعفر إن لدي أعوانًا يقومون بذلك، فقال سفيان: ولكني أتذكر أن عمر بن الخطاب حين كان في الحج سأل غلامه: كم بلغتْ نفقتنا في الحج؟ فقال: ثمانية عشر دينارًا، فقال عمر: ويحك! لقد أجحفنا بيت مال المسلمين. ففي القصة دلالة على أن من واجبات العلماء محاسبة الحكام، وأن العالم إذا كان يخشى السلطان ويسير في ركابه مخالفًا بذلك الحق، فقد خان الأمانة.

وفي اليوم التالي خرجت من فندقي الصغير في مدينة هلسنبورج، أو هلسنبوري كما ينطقها السويديون– ويتكون الفندق من طابقين، وعددُ غُرَفِه عشرون غرفة، وكان رقم حجرتي هو (١)، اسم الفندق هو (ماريا) وفي شارع فرعي في وسط المدينة. ومصعده طريف، فإذا دخلت المصعد وأردت أن تصعد إلى الطابق الثاني فعليك أن تمسك بالزر حتى يصل المصعد ثم يفتح الباب آليًا. والفندق يتوقف عمل الاستقبال فيه عند الساعة العاشرة مساءً وعندها يعطى كل زبون مفتاحًا ليدخل الفندق. والفندق من صنف الثلاثة نجوم –مع بعض المبالغة– ولكنه لا ينقص عن الفنادق الراقية سوى اتساع الغرفة ووجود ثلاجة، أما النظافة ووجود جهاز تلفزيون فموجودة، وتنقصه خدمات الغرف، غير أن فيه جهازًا لصنع الشاي والقهوة. كما يتوفر في الفندق اتصال مجاني بالإنترنت.

ويبدأ نشاطي في مالمو (مشوار في السيارة حوالي نصف ساعة) حيث قابلنا البروفيسورة آنا صوفي رولد Anne Sofie Roald وهي مسلمة وكانت متزوجة من الدكتور عدلي حجر، وكانت محجبة ولكنها واجهت

ضغوطًا اضطرتها لخلع الحجاب، لكنها لم تتخلَّ عن إسلامها، وقد ظهرت في قناة اقرأ -لم أشاهدها- ولها علاقات جيدة مع الحكومة السويدية وكانت في جامعة لند ولم تحصل على ترقية تستحقها هناك -كما سمعتُ- فانتقلت إلى جامعة مالمو. ومن موضوعات اهتمامها في الوقت الحاضر قضايا المرأة المسلمة في السويد وفي غيرها من الدول. وهي تتحدث العربية والإنجليزية والسويدية وربما لغات أخرى. ودار حديث معها حول الاستشراق، وكانت مهتمة أن تعرف وجهة نظري في هذه الدراسات. وحرصت على تعريفي بعدد من الأساتذة والمسؤولين في الكلية، وقد سألتُ عن الدراسات الأوروبية والأمريكية، فقدمت لي المسؤولة عن هذه البرامج معلومات قيمة وكذلك عن هذه الدراسات، لم تصبح بعد متوفرة للجمهور.

ولما كان العالم صغيرًا كما يقولون فقد لقيت أحد الباحثين السويديين المهتمين بالإسلام وبالسعودية بصفة خاصة وهو يوناس أوتربك وقد لقيته أكثر من مرة في بيروت في المؤتمرات السنوية لمعهد بيروت لفنون الاتصال بالجامعة اللبنانية الأمريكية. ومن اهتماماته أيضًا الحركات الإسلامية. وحضر الدكتور عدلي وعثمان طعام الغداء في مدينة مالمو.

وكان لي لقاء في مؤسسة (سنسص) Sensus وهي مؤسسة تعنى بتعليم الكبار، وهذه طريقة سويدية خالصة لنشر الثقافة والوعي وإعطاء الفرصة لمن يريد أن يتعلم بطريقة غير رسمية لا تكون فيها شهادات ولا درجات، ولكن ما يدفع الناس للانخراط في برامجها هو الحرص على المعرفة والعلم. وهذه المؤسسة عقدت اتفاقًا مع مؤسسة ابن رشد لعدة أعوام تقوم (سنسص) بتقديم الرعاية والدعم الفني والمالي لتقوم مؤسسة ابن رشد ببرامجها، ومنها هذا البرنامج الذي حضرت للمشاركة فيه.

وأختم هذا الحديث بالكلام عن شخصية مهمة جدًّا وهو الأخ عبد المعين عيسي (أبو حسّان) الذي كان متطوعًا طوال الرحلة لنقلنا في سيارته

بين هلسنبوري ومالمو ولند، وبالعكس، والتجوال في هلسنبوري. وأبو حسان عمل في السعودية مدة طويلة، ولكنه قرر في النهاية الهجرة إلى السويد، وله خبرة في الكهرباء والمعدات الكهربائية. وفي البداية ظننت أنه يعمل مع مؤسسة ابن رشد مقابل أجرة معينة فإذ به يعمل متطوعًا ووجدتُ رابطة من الحب والتقدير والاحترام تجمعه بالأخ عثمان طوالبه. وشعرت أن الخير كما قال الرسول صلى الله عليه وسلم : (الخير فيّ وفي أمتي إلى أن تقوم الساعة) فجميل أن تجد شخصًا يتطوع بهذه الطريقة، وعلمت أيضًا أن له ابنة تعمل متطوعة في مكتب رعاية الرعايا الأجانب أو المقيمين في هلسنبوري.

محاضرة في جامعة لند ولقاء مسؤولي رعاية الأجانب في بلدية لسنبوري:

كان آخر الحديث في الصفحات الماضية عن أبي حسان، وقد كتبت بضعة أسطر في مذكراتي عنه ولكني نسيت أن أنقل ما كتبت، ولأن ما كتبت في حينها أحسن تعبيرًا عن شهامة هذا الرجل ونبله وأخلاقه فأحب أن أنقله إليكم فيما يأتي:

أبو حسان ليس لديه عمل، وهو ،فيما يبدو، تجاوز الستين، يتطوع مع الأستاذ عثمان طوالبه لخدمة الضيوف من المشايخ وغيرهم، وقد قابلنا في مطار هلسنبوري وكان معنا طيلة أيام الرحلة، لا يتقاضى شيئًا، يقود بنا سيارته إلى مالمو والعودة إلى هلسنبوري أربع مرات في يوم واحد، وكنت أظنه يؤجر سيارته لهذه الجمعية ويتقاضى أجرًا، فهو يخدمنا ويحمل العفش، ووالله ما أشرف أن يضع الإنسان نفسه في هذا العمل وفي خدمة العلماء والمشايخ. وإنه والله لتواضع عجيب.

كم أنت كبير يا أبا حسان، كم أنت راقٍ ومحترم وشريف، بارك الله فيك وفي مالك وعمرك وأبنائك وبناتك.

ولند (Lund) مدينة أسسها الدنمركيون عام ١٠٠٠م وهي ثاني أكبر

مدن السويد، وفيها معالم أثرية. لم أتمكن من التجوال السياحي في السويد لأن الارتباطات العلمية والأكاديمية كانت كثيرة وكانت مدة الزيارة تسعة أيام: أنفق منها ثلاثة أيام في السفر بين مختلف المدن السويدية والباقي في الارتباطات العلمية، وفي لند جامعة من أعرق الجامعات السويدية أو الأوروبية: تأسست عام ١٦٦٦م، وهي الآن من أكبر الجامعات وبخاصة في مجال البحث العلمي. وكانت الزيارة للجامعة للقاء أعضاء قسم دراسات الأديان وبخاصة الدين الإسلامي والتعرف إليهم. ولكنهم عندما عرفوا اهتمامي بالاستشراق رغبوا في أن أحدثهم عن الاهتمام بالاستشراق في السعودية ورأيي الشخصي في هذا المجال المعرفي.

وبالفعل وصلنا متأخرين ربع ساعة بسبب السفر من هلسنبوري إلى لند وكذلك البحث عن مكان قسم الأديان. ولكن- الحمد لله- لم يكن التأخر مزعجًا، غير أن الإزعاج حدث بعد أن سرنا بسرعة من مكان وقوف السيارة حتى مكان اللقاء، ثم كان علي أن أقف أمام أعضاء القسم أساتذة وطلابًا لألقي محاضرة. فوصلت وأنفاسي تكاد تنقطع. فوقفت أمامهم وبدأت بشكرهم على دعوتي وعلى رغبتهم أن أتحدث إليهم وإن كنت أحرص على أن أسمع منهم وأتعلم عن براجهم في تعليم الإسلام وتعلمه. وتحدثت عن كيف نشأت فكرة الاهتمام بالاستشراق في السعودية وقسم الاستشراق، ومن تخرج فيه وما أنتج القسم وما أنتج في السعودية حول الاستشراق. والقصور الذي حدث في دراسة هذا الفرع المعرفي. والدعوة التي أطلقها الدكتور السيد محمد الشاهد لإنشاء الدراسات الأوروبية والأمريكية ولكنه كان في جامعة الإمام عام ١٤١٠هـ وأنى لهم أن يفهموها، وكررت الدعوة مرة أخرى وبطريقة عملية حيث أعددت كتاب (الغرب من الداخل: دراسة للظواهر الاجتماعية) وكتبت مقالة: متى ينشأ علم الاستغراب ، ثم تحدثت في أكثر من قناة تلفزيونية عن أهمية التعرف إلى الشعوب والأمم الأخرى.

وبعد المحاضرة وقليل من الأسئلة التقينا لتناول فنجان من القهوة والتعرف إليهم ونشاطاتهم وبحوثهم ورسائلهم. وأعطيت نسخة من رسالة دكتوراه حول سلمان رشدي، ولم أملك نفسي عن أن أنتقدهم بشدة أن يتعب طالبٌ نفسه وأستاذه لإعداد رسالة دكتوراه عن مثل هذا الشخص المنحرف الضال، البذيء. ونسيتُ الدبلوماسية وأنني في جامعة أوروبية وأنهم ينظرون إلى المسألة بغير المنظار الذي أنظر به. ومن العجيب أن بريطانيا قررت أن تمنّ على سلمان رشدي بلقب تشريفي وهو (سير) أو فارس. ولم يعجب بعضَ الكتّاب البريطانيين أن يقبل رشدي هذا اللقب من بلد لا يكنُّ لها الاحترامَ بل إنه ينتقد بريطانيا، ووصف الملكة بألفاظ بذيئة في بعض كتاباته، وقد رحل من بريطانيا إلى أمريكا حيث يحقق مكاسب مادية أكبر.

ولكن رشدي نال تلك الشهرة بفتوى الخميني بإهدار دمه، وكنت أعتقد أن الخميني أسهم في شهرة سلمان، ولو كان صادقًا في غضبه من سلمان لما احتاج إلى فتوى مدوية فالشيعة لديهم طائفة الحشاشين وعمليات الاغتيال السرية، فلماذا لجأ إلى العلن، وهاهم الآن يثورون ضد الإنجليز لمنحهم سلمان هذا اللقب. والعجيب أن رئيس الوزراء شارك في مؤتمر يهتم بالإسلام ودراسة الإسلام وأن المسلمين عنصر مهم في بريطانيا، وأنهم مواطنون يسعون إلى خدمة بلادهم، فلماذا لا تمض أيام على هذا المؤتمر حتى يُعْلِن تكريم سلمان رشدي؟ أين عقل الغرب إن كان للغرب عقل؟ (أظنها تصلح شطرًا من بيت شعر).

وأطلعني الباحثون على بعض نشاطاتهم ومواقع في الإنترنت تحمل أفكارهم، وهم مهتمون بالصحوة الإسلامية في السعودية، وقد أرسلت لأحدهم بحثًا بعنوان (محاربة الإسلام تحت شعار محاربة الإرهاب) وقد ردّ عليَّ بتعليق طريف يرى فيه أن هذا النقاش جيد لأنه يدل على وجود حرية التعبير في السعودية. ونسي أن المسألة ليست مسألة حرية تعبير فالهجوم على

الدين وعلى ثوابت الأمة لم تكن مجالًا ولا ينبغي أن تكون مجالًا لما يسمى حرية تعبير. وعرفت من خلال تعليقه أنه يعرف موقع الكاشف وغيرها من المواقع السعودية. وأتمنى أن تتاح لي الفرصة للقائهم وغيرهم من الباحثين الغربيين لأكشف لهم الأمور التي يرحبون بها وهي تجديف وانحراف وليست حرية. فإذا كان الغرب يهاجم الدين لأن بولس قد أوْجَد لهم دينًا آخر غير ما جاء به المسيح – عليه السلام- فالأمر في الإسلام يختلف. والحقيقة أنني لم أتمكن من مواصلة التعرف إلى ما يدور في السويد فإنني بعد عودتي من هولندا بأيام انطلقت لحضور مؤتمر في الكويت حول ظاهرة التطاول على الإسلام وقدمت فيها بحثًا عن الاستشراق المعاصر وظاهرة التطاول على الإسلام، ثم بدأت الترتيب لحضور مؤتمرين في الولايات المتحدة. فالانشغالات جعلتني أترك مثل هذه الأمور كما أن أوراقي التي حصلت عليها من السويد تركتها في الرياض. فأرجو أن تتاح لي الفرصة للعودة إلى هذه القضايا في القريب العاجل.

لقاء مكتب رعاية الجاليات في بلدية هلسنبوري:

قام الأخ عثمان بترتيب موعد لي للقاء المسؤولين في هذا المكتب، وكانوا أكثر من عشرة أشخاص معظمهم من المتطوعين، ويبدو أنهم يحملون حلمًا أو فكرة :كيف يمكن إدماج المسلمين؟ ودار الحديث عن مسؤولية الجالية المسلمة في المجتمع السويدي وأن على هذه الجالية واجبات: أن تختلط، وأن تسهم في تعريف الناس بدينهم وثقافتهم ولغتهم وتراثهم. وأن يتفاعلوا مع القضايا التي تخص المجتمع السويدي. كما أن على السويديين أن يعاملوا هؤلاء بعيدًا عن العنصرية والعصبية. وحذرت من عبارة الإدماج التي أطلقها الفرنسيون حينما كانوا يحتلون الجزائر وغيرها من البلاد العربية والإسلامية. وهم في الواقع يختارون مجموعة من الشعب (ويفرنسونهم)، ويقدمون لهم المزايا والمناصب وغير ذلك. فالمسلم لا ينبغي أن يندمج ويفقد هويته وذاته، إنه أفضل للسويد وللمسلمين أن يحافظ المسلمون على

هويتهم وشخصيتهم، ويجب على الطرفين العمل على البحث عن الأمور المشتركة والقيم، فلدى المسلمين قيم عظيمة تتفق مع السويديين مثل الإخلاص في العمل والصدق والأمانة وغير ذلك من الأخلاق التي يقدرها الغربيون عمومًا. وعلى المسلمين أيضًا أن يدرسوا المجتمعات التي يعيشون فيها ليستطيعوا فهمها والتفاعل معها تفاعلًا حقيقيًا.

محاضرة في المسجد عن الحب في الإسلام:

نسيت أن أذكر أن فتى من غانا يعمل مع رعاية الجاليات ومكتب الإدماج في مدينة هيلسنبوري قد تحدث عن موقف المسلمين من الشاذّين جنسيًّا وأنهم يعادون هؤلاء أو يقفون منهم موقفًا معاديًا، فلماذا؟ قلت له: عجيب أمرك، إن هذا العمل تسبب في غضب الله عز وجل، ودمر بلدة كاملة وجعل عاليها سافلها، المسلمون لن يحبوا هذا العمل ولكنهم سيعاملونهم كما يعاملون أي شخص آخر، غير أنهم لن يحبوهم. ثم إني عرفت أن بعض الأمهات لا يردن لأبنائهن أو بناتهن الاختلاط بالشاذين، وقد ترجمت قبل مدة مقالة من جريدة الطلاب في جامعة إكستر تتحدث عن الاعتراف بزواج الشاذين أو المثليين بأنه كارثة على الحضارة الإنسانية، وأن الشذوذ وبائيٌّ، وأن هؤلاء يحبون أن تنتقل العدوى إلى غيرهم.

والجالية العربية المسلمة تعاني من أمراض كثيرة، فمنهم من اختطفته الحياة الغربية فتنازل عن شخصيته وهويته وذاتيته، وغرق في المتع والملاهي، وعبد الشهوات والمال. ومنهم من انخرط في النشاط الإسلامي وتعصب لمذهب أو فئة وعادى إخوانه المسلمين. وجاء دعاة من العالم الإسلامي فزادوهم رهقًا، وكانوا ضغثًا على إبالة زادوا النار اشتعالًا، وزادوا الطينة بِلّة، فظهر التمزق والتشرذم بين المسلمين. بل إنه في وقت من الأوقات كانت الحكومة السويدية على وشك أن تتقدم للمسلمين تمويلًا كبيرًا لبناء مشروع معين، فتنافس المسلمون فيما بينهم حتى أفسدوا ذلك المشروع. فاللهم هيئ للمسلمين قيادة في ديارهم تجمعهم على حبك

وحب نبيك وعلى التعلق بالإسلام الصحيح.

وفي المساء انتقلنا إلى مسجد الرابطة لتقديم محاضرة حول الإسلام والسلام والمحبة. وقدمني شيخ من فلسطين وقال كلامًا طريفًا في التقديم. قال فيه: عرفت الدكتور مازنًا من خلال موقعه في الإنترنت والذي وضعته في المفضلة، ولكن العجيب أن يهتم مازن بالاستشراق وهو الذي لم يعش في بلد تعرض للاحتلال الأجنبي ولا للغزو الأوروبي ومع ذلك اهتم بالاستشراق. وبدأتُ المحاضرة أتحدث فيها عن الحب في الإسلام وكان مما قلته في تلك المحاضرة ما يأتي:

أعلى الإسلام شأن الحب، وأعلى حبٍّ هو الذي بين الله وبين عباده، وقد وردت كلمة المحبة في القرآن الكريم عشرات المرات ، ﴿ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ ﴾ [المائدة:٥٤] ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَّحِيم ﴾[آل عمران:٣١] ﴿ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنيَانٌ مَّرْصُوص ﴾[الصف:٤] ، وقوله تعالى: ﴿ قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ... أَحَبَّ إِلَيْكُم ﴾[التوبة:٢٤] ومن العجيب أن المستشرقين الذين يزعمون أنهم يعرفون الإسلام يقولون كلامًا بعيدًا عن الحقيقة؛ فهذا المستشرق تشيتيك (Chittik) الذي قضى من عمره أكثر من ثلاثين سنة يدرس الإسلام والتصوف يزعم في كتاب له عن التصوف أن علاقة المسلمين بربهم مبنية على النظرة الصوفية والحب في الصوفية؛ الذين يرون أن الرب قريب من عباده أما علماء العقيدة فنظرتهم إلى العلاقة بين العبد وخالقه أن الله بعيد عن خلقه متعالٍ وهو المنتقم الجبار، وهذا ما يقول به علماء الكلام. ويستشهد بكلام للبابا يوحنا الثاني (الهالك). فقلت: سبحان الله إن ما درسنا في المدارس هو كلام علماء الكلام وهم الذين تعلمنا منهم مسألة الحب لله ولرسوله، فهذا أحد أحاديث الأربعين النووية التي درسناها وحفظناها في السعودية في المرحلة الابتدائية يقول فيه الرسول صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عن ربه: (حديث قدسي) (من

عادى لي وليًا فقد آذنته بحرب، وما تقرب إلي عبدي بشيء أحبَّ إليّ مما افترضته عليه، وما زال عبدي يتقرب إلي حتى أحبه فإذا أحببته صرت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش به ورجله التي يمشي بها، ولئن سألني لأعطينه ولئن استعاذني لأعيذنه)

وأذكر أستاذًا من الجامعة الإسلامية في المدينة المنورة وهو الدكتور عبد العزيز قارئ كان يخطب في مسجد قباء تحدث في خطبه عن الحب بين الله وبين عباده، وعن حب الرسول صلى الله عليه وسلم، فأبدع أيما إبداع، وخرجت وأنا أقول لوالدي – رحمه الله- كأنه من الصوفية! عجيب هذا الكلام.(وكأن في كلام المستشرق بعض الصحة حيث لم نتعود على الحديث عن الحب بقدر الحديث عن الواجبات والعقوبات)، وذكر أن قمة الحب هو حب الرسول صلى الله عليه وسلم الذي كان حبه لله عز وجل قمة الحب وهذا الذي جعله عندما وصل إلى السموات العلى يقف ثابتًا راسخًا كما وصفه الله سبحانه وتعالى ﴿ مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى ﴾[النجم:١٧] ، وقارنه بموقف موسى عليه السلام حينما طلب من الله سبحانه وتعالى أن ينظر إليه فكانت قول الله تبارك وتعالى ﴿ لَن تَرَانِي وَلَكِنِ...﴾[الأعراف:١٤٣] ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم: (لو كنت متخذًا من أمتي خليلًا لاتخذت أبا بكر خليلًا). ولما سئل الرسول صلى الله عليه وسلم، من أحب الناس إليه قال:(عائشة) فقيل: من الرجل فقال: (أبوها). وتعلمت في تلك الخطبة من الشيخ الدكتور عبد العزيز أن الحالات التي ينبغي فيها أن يصلي الإنسان على الرسول صلى الله عليه وسلم ليست فقط عندما يسمع ذكره بل إن الدعاء يكون أدعى للإجابة إذا كان بين صلاتين أي بعد أن يحمد الإنسان ربه سبحانه وتعالى، ويصلي على الرسول صلى الله عليه وسلم ثم يدعو، ويختم دعاءه بالصلاة والسلام عليه، ويصلي الإنسان على سيد الخلق عندما يرى مسجدًا، وذكر أمورًا كثيرة. ولنتذكر قوله عليه الصلاة والسلام (أقربكم مني منزلة يوم القيامة

أكثركم صلاة علي) وما أعظم الصلاة على الرسول عليه الصلاة والسلام فالله عز وجل وملائكته يصلون عليه، فـ ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ [الأحزاب:٥٦] وفي الحديث (من صلى عليّ مرة صلى الله عليه بها عشرا).

والحب الحقيقي القوي هو الذي جعل الصدِّيق رضي الله عنه عندما مات الرسول صلى الله عليه وسلم يتقبل الموقف بجنان ثابت وقلب شجاع فخرج على الناس وهم في حالة صعبة (وحق لهم) فحمد الله وأثني عليه ثم قال: من كان يعبد محمدًا فإن محمدًا قد مات ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت وتلا قوله تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىَ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللّهَ شَيْئًا ﴾ [آل عمران:١٤٤]. وانظر إلى الموقف الذي لم يتطلع الصحابة رضوان الله عليهم للإمارة إلّا فيه حينما قال لرسول صلى الله عليه وسلم في خيبر:(سأعطى الراية غدًا لرجل يحبه الله ورسوله ويحب الله ورسوله).

وأحاديث المصطفى صلى الله عليه وسلم مليئة بالحديث عن الحب ومنها قوله عليه الصلاة والسلام: (لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه وماله وولده) فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: (والله إنك يا رسول الله لأحب إلي من مالي وولدي إلّا من نفسي) فقال الرسول صلى الله عليه وسلم:(لا يا عمر)، ثم قال عمر: (إنك لأحب إلي من نفسي) فقال الرسول صلى الله عليه وسلم (الآن يا عمر). وانظر إلى عمر بن الخطاب ذلك الرجل العظيم يروي عن نفسه كيف عاد إلى الحق، وأدرك أن حب الرسول صلى الله عليه وسلم يجب أن يكون فوق حبه لنفسه). فما أعظم الرجال حين يروون عن أنفسهم كيف يرجعون إلى الحق ويسعون إلى القمة. ثم يدعو الرسول صلى الله عليه وسلم إلى أن يشيع الحب بين المسلمين بقوله: (ألا أدلكم على شيء إن فعلتموه تحاببتم، أفشوا

السلام بينكم) ويقول صلى الله عليه وسلم: (لا يؤمن أحدكم حتى يحب لنفسه ما يحبه لأخيه) .

محاضرة في المكتبة العامة عن «السلام في الإسلام»:

كان من بين النشاطات التي دعيتُ إليها إلقاءُ محاضرة في المكتبة العامة في مدينة هيلسنبوري برعاية مؤسسة ابن رشد و(سنسص) ومؤسسة نصرانية، فماذا سأقول؟ هل أتحدث عن النصوص في الإسلام وفي النصرانية أو أتحدث عن العلاقات التاريخية؟ هل أذكر الصليبيين، وهل أذكر الاحتلال الأجنبي الذي سمي خطًا: (الاستعمار)؟ هل جئنا لمحاكمة النصوص أو لنشر دعوة السلام والمحبة بين الناس؟

إذا كنّا نتحدث عن النصوص فإن كل متحدث سيجد في دينه من النصوص ما يدعم مقولته، وقد يجد في التاريخ والواقع كذلك، ولكن ما حقيقة السلام في الإسلام؟ صحيح أن الدول الأوروبية فتحت أبوابها أولًا لمصلحتها بقبول الألوف من العرب والمسلمين للعيش في ديارهم بعد أن تسلطت حكومات وزعماء في بعض البلاد العربية فجعلت العيش فيها جحيمًا، أهون منه مادية أوروبا وعريها وانحلالها.

وبدأتُ بالحديث عن أن الإسلام هو الدين الذي أتى بالسلام الحقيقي في تاريخ البشرية كلها، وإن أول وثيقة سمحت بالتعايش بين الأديان، والتسامح والمحافظة على حقوق الإنسان هي صحيفة المدينة التي أعطى فيها الرسول صلى الله عليه وسلم ليهود الحقَّ في المحافظة على حياتهم ودينهم وشعائرهم وممتلكاتهم. وخرج المسلمون للفتوحات فأبدعوا في التسامح الذي لم يعرف التاريخ مثيلًا له، ولولا هذا التسامح لما بقي نصراني ولا يهودي في بلاد الشام ولا في غيرها من بلاد العالم. إن اسبانيا التي عمَّرها المسلمون وعاشوا فيها ثمانية قرون وعاش إلى جوارهم النصارى فما إن قويت شوكتهم حتى أبادوا المسلمين إبادات جماعية لا يعرف التاريخ لها مثيلًا، ومع كل هذا فإسبانيا اليوم تستفيد من الحضارة التي تركها

المسلمون؛ حيث يأتيها ما لا يقل عن ستين مليون سائح سنويًا.

والقضية ليست قضية نصوص فحسب ولكنها واقع وتاريخ، فهذه جيوش الغزاة في عالمنا العربي الإسلامي، وهذه الشركات المتعددة الجنسيات تنهب خيرات بلادنا، وهؤلاء أبناؤنا نرسلهم ليدرسوا عنكم فكيف يرجعون إلينا؟ ونحن كأننا لا نفيد من دروس الماضي.

ولكني سأعرض لبعض النصوص التي تدل على مكانة التسامح والسلام ومنزلتهما في الإسلام: كم يعجبني أن أردّد قول الله عز وجل: (يا مريم إن الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين) وكيف أن عيسى عليه السلام حين تحدث في المهد، فنحن المسلمين ننظر إلى عيسى عليه السلام وإلى أمه نظرة احترام وتقديم وبالتالي ننتظر منكم أن يكون لرسولنا صلى الله عليه وسلم نظرة احترام وتقدير عندكم.

وكان النقاش الذي أعقب المحاضرة جيدًا، لولا أن القسيس الذي رعى المحاضرة مع مؤسسة ابن رشد أَكْثَر الكلام عن النصرانية وجهود جمعيته في قضايا السلام، ولكنه أثنى على الأستاذ عثمان طوالبه والتعاون بين المؤسستين في القضايا المشتركة.

ومع ذلك فالمحاضرة لم تكن كما كنت أتطلع، بل كانت في نظري لا تستحق أكثر من أربع درجات من عشر. وقد دخل شخص إلى القاعة وأخذ يصرح باللغتين العربية والسويدية يشتم السعودية والوهابية، وبدا كأنه مجنون،بل لعله مجنون بالفعل. لم أردَّ عليه؛ لأن مثل هؤلاء -الذين ينفجرون- يظنون أنهم يحققون شيئًا ، وهم لا يستحقون الرد.

وبعد انتهاء المحاضرة كانت هناك بعض الأحاديث الجانبية مع بعض الحضور عن جوانب مهمة في الإسلام لا يعرفها السويديون وينبغوا أن يحاولوا فهم هذا الدين العظيم ليس من واقع بعض المسلمين في السويد أو واقع الأمة الإسلامية وتخلفها.

لمحات متفرقة:

- كنت أزعم أن البرد لن يهزمني، ولكن أعتقد أن الأيام التي كنت فيها قادرًا على هزيمة البرد قد ولت. ولا يفيد أن أردد مع الشاعر: عمري إلى الستين (قال هو خمسين) يجري مسرعًا والقلب يحتاج إلى الفيتامينِ

(عمري إلى الخمسين يجري مسرعًا والروح باقية على العشرين)

- عجوز تقف في وسط الشارع (خاص للمشاة) تحمل لوحة فيها اسم مشروع خيري (يطلق عليه كذلك) تدعو الناس إلى التبرع، ووقفت مدة طويلة، وتساءلت: هل هي متبرعة أم إنها تعمل لدى هذه الجهة؟ وهناك عدد من هؤلاء في شوارع مدينة هلسنبوري.

- عندما كنت في الرحلة المتوجهة إلى السويد قرأت مقالة مشعل السديري في «الشرق الأوسط» يسخر مما كتبه بعض المجاهدين في الشيشان عن التأييد الرباني لهم، كما سخر من المجاهدين في أفغانستان وحديثهم عن الشهيد الذي تفوح منه رائحة المسك، إن الشهيد الذي عدّه الله سبحانه وتعالى حيًّا لهو أكبر من مسألة العطر، ولكن ما الفائدة من مثل هذه السخرية؟ وتساءلت: أليس للسديري أيُّ علاقة بالموت؟ أن الموتى من الناس العاديين الذين يموتون موتًا طبيعيًا يتفاوتون في هيئاتهم حين الموت -وكما قيل: للموت أسرار- فلماذا يستكثر على من يموت في مواجهة أعداء الأمة أن يجعل الله لهم بعض الخصائص؟ وتساءلت أيضًا: لماذا يستمر السديري في تهويماته وغيه؟ يمكنه أن لا يؤمن ولكن عليه أن يحتفظ بما يعتقده لنفسه، ولكن أن يسخر هكذا من معتقدات المسلمين فغير مقبول. وأضيف: لقد تجاوز السديري الخمسين فمتى يفيق ومتى يعود إلى ربّه؟

- طعم الماء في السويد جيد ويمكنك أن تشرب من (الحنفية أو الصنبور أو الكبّاس)كما نقول في الحجاز، وفي نظري أن البلاد التي تستطيع أن تشرب فيها الماء هكذا هي بلاد راقية. مع بعض التحفظ.

- «مالمو» كما قلت كانت مدينة دنمركية ولكن أخذها السويديون، وفي ساحة من ساحاتها وفي اتجاه الدنمرك كان هناك تمثال يحمل سيفًا موجهًا نصله إلى الدنمرك، فغضب الدنمركيون وطالبوا بأن ينزل النصل، واستجاب السويديون.

- حين كنت في المطار وجدت سائق تكسي- من أصل عربي فتحدث عن المسلمين في السويد وكيف أنهم يعانون: فهم هربوا من بلادهم ليعانوا مع الأولاد والبنات وقال موجها كلامه للزعماء العرب والمسلمين: ليفرح الزعماء حين تصبح البلاد خالية لهم. وقال: إن بعض النساء المحجبات يُسِئْنَ للحجاب حيث يذهبن إلى المراقص ويشربن الخمر، فإن كنت تريدين أن ترقصي وتشربي ولا تخافي من الله، فلا داعي لوضع الحجاب على رأسك. ولا أدري مدى صحة كلامه الأخير عن النساء المحجبات. أما المعاناة مع الأولاد والبنات فأمر لا ينكره أحد، وكم من هؤلاء يتطلع إلى أي فرصة ليعود إلى أي بلد إسلامي، شريطة أن يجد عملًا محترمًا شريفًا.

- السويديون يقاطعون ماكدونالد لأنها تقدم للأطفال ألعابًا صنعها أطفال صينيون في أوضاع كارثية قاهرة يموتون فيها، ولذلك يقاطعونها، كما يقاطع السويديون شركة نستله (كانت سويسرية ثم أصبحت متعددة الجنسيات) لأنها تقوم بإطالة أجل الحليب وتمارس العنصرية في الإعلانات؛ حيث يركزون في إعلاناتهم على الطفل الأبيض الأشقر ذوي العيون الزرقاء. فيا مَنْ تشترون حليب النيدو، كم عدد الأطفال الملونين الذين يظهرون في الإعلان. وهذا يجعلني أتساءل كذلك عن شامبو (جونسون وجونسون): ما شكل الطفل الذي يظهر في إعلاناتهم؟

الرابطة الإسلامية في ستوكهولم والمسجد الإريتري:

وصلتُ ستوكهولم وسرتُ في الشوارع المحيطة بالفندق فوجدتها مليئة بالأسواق ولاحظت عددًا ضخمًا من الأسواق تحت الأرض، فلماذا تحت

الأرض؟ هل يهربون من زمهرير الشتاء وظلامه الطويل بالأنواع الصناعية؟ ولكن لديهم أيضًا أسواق مفتوحة في ساحة كبيرة يستأجرها الباعة فيقيمون (أكشاكًا) من العاشرة صباحًا حتى السادسة ليلًا، يبيعون فيها الزهور والخضروات والفواكه والأطعمة المختلفة، كما يبيعون الملبوسات. وتتعجب حين تجد البضائع الرخيصة جدًا في هذه الأكشاك.

وحرص الأخ ياسين على أخذي لدار سينما تعرض أفلامًا بالأبعاد الثلاثية ولكنها أفلام ليست كالأفلام العادية فأحدها عن رحلة استكشاف منابع النيل وقد استغرقت أكثر من مائة يوم وكان فيها مخاطر ومغامرات واشترك فيها عدد كبير من الأشخاص أغلبهم من الأوروبيين، غير أنهم أشركوا بعض المصريين. وهذه السينما تعرض عليك المناظر كأنك حاضر معهم، فيتحرك القارب المطاطي في مجرى النيل وبسرعة كبيرة حتى تكاد تلمس الأشجار والأحجار والجبال والأعشاب. إنها حقًا رحلة مع عظمة الخالق في خلقه لهذا النهر العظيم المبارك. ولسرعة الكاميرا تأثير عجيب في نقلك إلى قلب الموقع، بل إنّها تخيفك أحيانًا كأنك تسقط معهم من الشلال أو يتعرج بك النيل أو تجد نفسك فجأة أمام صخور ضخمة فتوشك أن تتشهد من هول ما ترى.

وهناك أفلام أخرى تعرضها هذا السينما ومنها (كيف يعمل جسمك أو حياتك؟) حيث تقدم تفاصيل عمل جسم الإنسان، وكأني بهم يطبقون قول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيد ﴾[فُصِّلَت:٥٣] ومن الأفلام أيضًا «رحلة إلى كوكب المريخ) حيث أرسلت قبل سنوات مركبة هبطت على سطح المريخ وفي هذه الرحلة تتعرف إلى الكوكب الأحمر.

حضرت صلاة الجمعة في مسجد الرابطة وهو مسجد كبير ولكن عدد المسلمين يتطلب منهم التفكير في بناء مسجد أكبر. كانت الخطبة جيدة

ولكن كان الخطيب سيئًا من الناحية اللغوية، فارتكب العديد من الأخطاء النحوية، وقلب الثاء سينًا والذال زايًا، وخفتُ أن يخطئ في القرآن الكريم ولكن الله سلّم.

اجتمعت برئيس الرابطة واسمه محمود خلفي وهو من تونس، أمضى في السويد مدة طويلة، وكان من لطفه أنه رآني أمشي بلا حذاء فحمل حذاءً بنفسه إلي وقال: الجو بارد هنا. فكان تواضعًا من عالم فاضل.

وأرى من المناسب أن أكتب كلمة عن الرابطة التي تأسست عام ١٩٨٠م ومن أهدافها ما يأتي:

- خدمة الثقافة الإسلامية بالوسائل القانونية.
- مساعدة المسلمين على أداء الشعائر التعبدية وذلك عبر تأسيس الجمعيات الإسلامية والمراكز الثقافية وبناء المساجد والمؤسسات الدعوية.
- الدفاع عن حقوق المسلمين في الدول الإسكندنافية.
- الدفاع عن حقوق الإنسان عامة ومقاومة العنصرية.
- تعميق العلاقات بين مختلف الجمعيات التابعة للرابطة والتنسيق بينها.
- تقوية العلاقات بين المنظمات والجمعيات الإسلامية في أوروبا.
- توسيع دائرة الحوار مع الثقافات الأخرى لخدمة الإنسانية.

وللرابطة أقسام كثيرة ومهمات كثيرة كما أشارت الأهداف.

وقد اجتمعت بالأستاذ عثمان كواري مسؤول المؤتمر السنوي الثامن والعشرين الذي كان سيعقد في الرابع والعشرين من ديسمبر (بعد مغادرتي السويد بأسبوع تقريبًا) وموضوع مؤتمر هذا العام هو التجديد من سنن الحياة، وكان المؤمّل أن أحضر وأقدم ورقة عن الشيخ عبد الحميد بن باديس، رحمه الله، بصفته أحد المجددين في العصر الحديث. ولكن الله عز

وجل لم يشأ أن أتمكن من الحضور.

بعض القضايا السويدية المهمة:

حاولت الحصول على صحف سويدية باللغة الإنجليزية فلم أجد، ولذلك لجأت إلى الإنترنت ووجدت موقعًا مهمًّا فنقلت عنه القضايا الآتية:

- ارتفاع أعداد الموتى في السويد في وقت أعياد الميلاد وبخاصة بعد أسبوعين من الأعياد، ويقول الخبر الذي نشر في ٦ ديسمبر- في الموقع التالي: إن الأسباب تعود إلى انتشار الالتهابات نقلًا عن: http://www.thelocal.se/

- بنات المدارس السويديات يُضْرِبْن بسبب استهزاء وسخرية الأولاد منهن. نشر موقع الأخبار المحلية السويدي أن الطالبات في المستوى الثامن (الثانية المتوسطة) في إحدى المدارس أضربن عن دخول الفصل بسبب السخرية والاستهزاء، وتقول الطالبات: إنّ الطلاب يستخدمون لغة بذيئة، كما يلصقون موادَّ لاصقة بشعور الطالبات، وأنهم يبصقون على الطالبات. وقد وعدت إدارة المدرسة بأن تخصص لهن فصولًا خاصة، وأعلنت وزارة التربية والتعليم عن اجتماع عاجل بين المدرسة والآباء.

- السويد أكثر دولة ديمقراطية في العالم (٢٢ نوفمبر ٢٠٠٦م) في الموقع نفسه: يقول الخبر إنّ السويد هي أكثر دولة ديمقراطية في العالم، ويقول الخبراء إن هذه الديمقراطية لها مشكلاتها الحقيقية. ومنها على سبيل المثال عدم المشاركة الكبيرة في الانتخابات، والتعيينات في مناصب مهمة لأشخاص تقدموا في السن، وتعيينهم في وظائف سفراء أو حكام مقاطعات وغير ذلك.

وأختم حديثي عن الرحلة السويدية بالتعريف بمؤسسة سنسس:

واسم هذه المؤسسة هو: رابطة دراسات سنسس (Sensus Study Association)

تأسست هذه الرابطة عام ١٩٢٠م لتقدم خدمات مختلفة من تعليم المجموعات ودراسات لتقديم شهادات في مجالات مختلفة، وكذلك رعاية النشاطات الثقافية والتدريب للجمعيات والمؤسسات والشركات. ونشاطات هذه الرابطة مفتوحة للجميع من الشباب دون العشرين حتى كبار السن. والمشاركة في نشاطات الرابطة قائمة على التبرع. وتعرف السويد بتاريخها الطويل في تعليم الكبار، فالسويديون يتحدثون دائمًا عن التعليم مدى الحياة (اطلب العلم من المهد إلى اللحد) فالمؤسسات التعليمية والمعاهد لديها طموح اجتماعي قوي ورغبة في بناء اجتماعي متميز. والتدريب الذي تقوم به الرابطة متنوع بحيث يشمل الإدارة لمهن مختلفة إلى مجموعات نقاش مختلفة المجالات إلى الموسيقى، والموسيقى الدينية والدراما. وهناك أكثر من ثلاثمائة ألف حدث اجتماعي تسهم فيها الرابطة ويعمل لديها حوالي أحد عشر ألف معلم.

وتشترك الرابطة مع ثلاثين مؤسسة أخرى هم أعضاء الرابطة على المستوى القومي، وهناك مؤسسات محلية، وكثير من هذه الجمعيات تسعى لتدريب موظفيها لدى الرابطة، ومن هذه المؤسسات على سبيل المثال الكنيسة السويدية التي ترغب في تدريب ممثليها، وكذلك الاتحادات السويدية المختلفة.

هذه جولة في رحلتي إلى السويد، البلد الذي بلغ درجة عالية من التحضر والرقي الصناعي، فعلى الرغم من أنهم تسعة ملايين فقط إلاّ أنهم يصنعون الآلات والمعدات الثقيلة، وتسعى السويد إلى أن تكون على خريطة صناعة السلام في العالم. وقد شعرت بأن المسلمين ينالون حظًا كبيرًا من الرعاية. كما أن قبول اللاجئين ينطلق من بواعث إنسانية بحتة كما تقدم لهؤلاء رعاية افتقدوها في بلادهم. وقد وجدتُ جالية إريتيرية مهمة في السويد ودعيتُ لإلقاء محاضرة في مسجد خاص بهم (يحضر غيرهم فيه) لكن انقسامات المسلمين هنا مزعجة.

كما علمت أن السويد يعاني من تفسخ أخلاقي؛ فنسبة الحمل بين الفتيات دون سن السادسة عشرة كبيرة جدًا. ومن الطرائف أن الأوروبيين ينظرون إلى النساء السويديات أنهن فاسدات، وهناك امرأة سويدية متزوجة من ألماني فإذا ذهبت إلى ألمانيا لم تصرح أنها من السويد، حيث يقول له أهله لقد تزوجت مومسًا.

الرحلة إلى إسبانيا

٦- ١٤ شعبان ١٤٣١هـ/ ١٨-٢٦يوليو ٢٠١٠م

تقديم :

المؤتمر الدولي الثالث حول دراسات الشرق الأوسط:

تأسست قبل سنوات رابطة تسمى الرابطة الدولية لدراسات الشرق الأوسط، لا يعرف مقرها ولا مَنْ يَدْعَمُها غير أنها تستضيف الأمير الحسن بن طلال ولي عهد الأردن السابق، والذي طار منه الملك في آخر لحظة (يؤتي الملك من يشاء وينزع الملك ممن يشاء) ولكنّ هناك أشخاصًا مهمين في هذه الرابطة، بعضهم معلنةٌ أسماؤهم ومعروفون وبعضهم يعمل في الخفاء. ومن هؤلاء طارق إسماعيل أستاذ العلوم السياسة في جامعة كالاقاري بكندا، وجنتر مايرز بجامعة مينز بألمانيا، ومحمد السيد سليم من مصر، ويعمل حاليًا معارًا لجامعة الكويت.

من خلال رسالة بريد إلكتروني وصلتني من منظِّمي المؤتمر لأنني كنت أحد الحاضرين في المؤتمر الأول عام ٢٠٠٢م ماينز بألمانيا، و٢٠٠٦ عمّان الأردن) تحمل خبرًا عن المؤتمر ومكان انعقاده ومَحاوِره وشروط التسجيل فيه، وكان ذلك قبل سنة ونصف أو أكثر من وقت انعقاد المؤتمر، فقررتُ المشاركة ببحث بعنوان (القيادة في وقت الأزمات: النموذج الإسلامي أبو بكر الصديق ضي الله عنه) وأرسلت ملخص الموضوع ورسوم التسجيل. وكنت من أوائل المسجلين.

وسافرت إلى برشلونة عن طريق القاهرة،على الخطوط المصرية – بالطبع- السبت ليلة الأحد ٥/ ٦ شعبان ١٤٣١هـ (١٧/ ١٨ يوليو ٢٠١٠م) انطلقت الرحلة من مطار الرياض في الساعة الخامسة والنصف صباحًا (تأخرت أكثر من ساعتين) وصلت إلى المطار فوجدت أن المطار قد أصبح قديمًا مهترئًا، وأصبح مستوى النظافة فيه متدنيًا جدًا فما أكثر الأوساخ والأوراق والمخلفات على أبوابه، ويزيد المطار قبحًا (الصبّات) أو حواجز الإسمنت المسلح التي كثرت في بلادنا في السنوات الأخيرة ولم

نستطع التخلص منها مع أن بلادًا كثيرة تعرضت لأعمال إرهابية ،كما تعرضنا، ولكن لم يلجؤوا إلى هذه الحواجز القبيحة.

وبدأت الرحلة بخطأ جسيم:

وفي أثناء الانتظار في مطار القاهرة قابلت الأستاذ الدكتور محمد السيد سليم أستاذ العلوم السياسية بجامعة الكويت، والمعار من جامعة القاهرة وخريج إحدى الجامعات الكندية في العلوم السياسية والقريب من منظمي المؤتمر ومؤسسي الرابطة الدولية لدراسات الشرق الأوسط، فعرفت أنه ذاهب للمشاركة في المؤتمر ومعه زوجته وسيقابل ابنه المشارك في المؤتمر والقادم من كندا. فتحدثت إليه بما يدور في نفسي حول هذا المؤتمر وتنظيمه والدعم الكبير الذي يلقاه من المنظمات والهيئات والمؤسسات الأوروبية وتساءلت وما الهدف من مثل هذا المؤتمر، وأبديت شكوكي في الغموض الذي يلف الرابطة الدولية لدراسات الشرق الأوسط، فكان كل ما قاله إنها أسئلة مشروعة. وسألني عن مشاركتي في المؤتمر فأخبرته بموضوعي «**القيادة في وقت الأزمات: النموذج الإسلامي أبو بكر الصديق رضي الله عنه**» فأسرعت إلى سؤاله وهل ستقدم شيئًا؟ فقال: نعم، فأضفت وما موضوعك، فلم يرد علي. أو بالأصح تجاهل سؤالي.

وبعد أن افترقنا لنركب الطائرة التي تأخرتْ أكثر من ساعتين دون أن يعتذر الإخوة من (مصر للطيران) عن التأخر وكنّا نرى وضع الحقائب في الطائرة وكان هذا العمل يقوم به عامل واحد مع أن الطائرة كانت شبه مليئة، مما يعني أنهم كانوا بحاجة إلى ثلاثة أو أربعة عمّال، وظل العامل يضع الحقيبة تلو الحقيبة ثم يتوقف قليلًا ريثما تأتيه الإشارة من العامل الآخر الذي ينسق وضع الحقائب. بعد أن افترقنا تذكرت أن الدكتور محمد السيد سليم هو من أصدقاء المنظمين للمؤتمر، بل لعله أحدهم وبخاصة أنه درس في كندا، وقد لقيته في المؤتمر السنوي التاسع للرابطة الدولية

لدراسات الشرق الأوسط الذي عقد في كندا ورأيت الوُدَّ بينه وبين المنظمين،حيث إنهم ،كما عرفت، من مدرسة واحدة – المدرسة الكندية في العلوم السياسية والعلاقات الدولية–، وكان قريبًا جدًا من المنظمين حتى إنني صحت (أو أشبه بالصيحة): ارفعوا السرية عن هذه المنظمات وأخبرونا أين تقع ومن الذي أسسها وما أهدافها الحقيقية وما دستورها وما طريقة الانضمام إليها؟ ولم يجب أحد بشيء مع أني أجزم أنهم يعرفون الإجابات الحقيقية.

وعلمت أن الدكتور سيقيم في شقة في الحرم الجامعي- فتساءلت ولم أسأل–: كيف تسنى له أن يعرف السكنى داخل الحرم الجامعي في شقة مفروشة أو ربما فيلا – فهو من المقربين- ولم أعرف شيئًا عن ذلك لأنني كان ينبغي أن أسافر يوميًا أكثر من ثلاثين كيلومترًا (أو كيلًا كما يقول الطنطاوي – رحمه الله–).بين المدينة ومقر المؤتمر. وهذه أمور لا تهم لولا أن مثل هذه الجمعيات والمنظمات تعامل الناس خيارًا وفقوسا (والفقوس– لمن لا يعرف- صنو الخيار ولكنه خشن في الغالب وهو القثاء، في حين أنّ الخيار الناعم ذا النكهة الجميلة، وبخاصة إذا نبت في الشمس وأجمل إن كان من سقي المطر يطلقون عليه (بعل) في الأردن).

زيارتي هذه لبرشلونة ليست الأولى ولإسبانيا هي الثالثة. ولكن كانت رحلتي لبرشلونة قبل أكثر من عشرين سنة، وقد أُصِبْتُ بفقدان ذاكرة لتلك الرحلة فلم يكن في ذهني حتى صورة واحدة عنها سوى مركز تسوق كبير أمضينا فيه وقتًا كبيرًا وأتذكر أكياسه ذات اللونين الأخضر والأسود، ولكن فقدان الذاكرة يكون رحمة أحيانًا حتى أرى برشلونة جديدة في كل شيء وفي كل شارع. وقد قرأت أن جمال الشيء حين تشعر – حين تراه- أنك تراه للمرة الأولى، ويحدث هذا معي أحيانًا بعد العودة من سفرة قصيرة أو ربما طويلة.

وقبل أن أنطلق في الحديث عن برشلونة أريد أن أتوقف مع

مصاعب السفر، فالذين يظنون أن حضور المؤتمرات أمرًا هينًا وفسحة، فليعرفوا ما قاله رسول الله صلى الله عليه وسلم في الحديث الذي رواه الإمام البخاري - رحمه الله -: (حدثنا عبد الله بن مسلمة حدثنا مالك عن سمي، عن أبي صالح، عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: **(السفر قطعة من العذاب يمنع أحدكم طعامه وشرابه ونومه فإذا قضى نهمته فليعجل إلى أهله)** وحفظت قديمًا أن عائشة رضي الله عنها وصفت السفر بأنه قطعة من سقر أو هو سقر كله.

ومن هذا العذاب الذي لم يكن موجودًا سابقًا قبل أن نصبح نحن في المملكة موضع اتهام العالم كله زورًا وبهتانا الوقوفُ بباب السفارات وانتظار التأشيرات ما لا يقلّ عن أسبوعين وبخاصة تلك التأشيرة المسماة «شنقن» وكأنهم يعطونك مفتاح الجنة يدققون ويدققون ويطلبون التذكرة والتأمين الصحي وحجز الفندق وإفادة بالعمل وبيان الحساب البنكي وغير ذلك. وتأتي إليهم بالطلبات وتقف بالأبواب تنتظر الدور ويأتيك موظف الأمن وهو الذي ينطبق عليه المثل (الحكم فرحة ولو كان على فرخة) فيقول لك: تعال من هنا، اجلس هنا، افعل كذا ولا تفعل كذا، وتلبي مكرهًا فليس لك أن تقول له كيت أو كيت، والمعروف أنه والموظف أو الموظفة خلف الزجاج، يستطيعون أن يعطوك التأشيرة أو يمنعونك. وانظر إليهم جلسوا كلهم خلف الزجاج كأننا مصابون بالجرب أو يخشون منّا، فهمنا أنهم يتعاملون في المصارف والبنوك بهذه الطريقة فلماذا يفعلون ذلك في السفارات؟ فالذي يدخل السفارة يفتش تفتيشًا بدنيًا ويمنع من أن يكون معه هاتفه النقال، ولو استطاعوا لمنعوه أن يحمل معه قلمًا أو أوراقًا. وتنتظر عند الباب وتنتظر في الداخل. وكل هذا مفهوم لو كانت المعاملة دائمًا لا تفضيل فيها ولا واسطة. دخل أحدهم فما أن جلس أو حتى قبل أن يجلس نادته الموظفة لتأخذ منه الأوراق، فلماذا يتخطى هذا الجميع؟ ولو

قلت: (كان ماني) لقالوا لك: ما عندنا تأشيرة واضرب رأسك بألف جدار أو حيط، فهذا الموظف الصغير يصبح أقوى من السفير، لأنه قادر على أن يدعي عليك أي شيء وهو مصدّق في سفارته. وتصر بعض السفارات على أن تجري لك مقابلة فلا يصح أن توكل أحدًا عنك في استخراج التأشيرة ـوسقى الله تلك الأيام كنّا لا نخرج من باب الخطوط السعودية ،(كنت موظفًا فيها اثنتي عشرة سنة وزيادة) حيث تتولى إدارة الشؤون الحكومية – كنت أقول: أحسن ما فيها كلمة مخرج- وكم أقول: ليت جامعاتنا تتعلم من تلك الإدارة العظيمة. وتتساءل: لماذا يقابلونك في السفارة؟ ويعطونك موعدًا الساعة الثامنة صباحًا وتقابل الموظف الرابعة ظهرًا وأنت محبوس أو محجوز داخل جدران السفارة كل ذلك الوقت. ولكن إن كانت لك واسطة فتذهب إلى الشباك مباشرة. وفي إحدى السفارات وعندي واسطة قالت لي الموظفة: نحن سعيدون أن نصدر لك التأشيرة فمتى تريدها وكيف نعيد لك الجواز؟ قلت: أريدها غدًا وسأعود لتسلم الجواز بنفسي. وقد تأكدت من أنّ التأشيرة صدرت في اليوم نفسه.

ومن مصاعب السفر أن لا تجد الحجز في الوقت المناسب فتضطر أن تسافر قبل الموعد بيوم أو يومين أو تعود كذلك، وقد تطلب السفر في موعد محدد وتعلم أن هناك رحلات ثم تجد الموعد قد تغير في التذكرة، بل تجد أنك ستتوقف في محطتين قبل الوصول إلى وجهتك الأخيرة. بدلًا من توقف واحد. وأما أسعار التذاكر والشَّطَط في الشروط فكأننا في شريعة الغاب، يشترطون عليك شروطًا تعجيزية: لا تغير الحجز ولا تلغيه ولا تسترد نقودك ولا بعضها وكأنهم أعطوك التذكرة صدقة أو تبرعًا، ولكن هل من حق شركات الطيران أن تصدر تذاكر بهذه الشروط؟ لا أدري.

لقطات من المؤتمر والجامعة:

كان من المقرر أن تبدأ الجلسة الافتتاحية في الحادية عشرة صباحًا، وبدأ المشاركون في الدخول إلى القاعة وأخذوا مقاعدهم فامتلأتْ القاعة عن

بكرة أبيها كما يقولون، وكان من حظي أن جلست في النصف الأخير من المدرج وقريبًا من الباب لأستطيع الهروب حين لا يعجبني شيء من المقدمات والمجاملات. وكان الضيوف على المنصة من ألمانيا وإسبانيا، ومن الأردن الأمير الحسن بن طلال، وأتساءل -وتساءل غيري ممن لم يحضر-بعض أجزاء الجلسة الافتتاحية- : لماذا الأمير الحسن في المؤتمرات الثلاث هو الذي يلقي الكلمة الافتتاحية؟ وهو شرف لا ينبغي أن يكون محتكرًا لشخص واحد، وكان ينبغي على الأمير أن يعتذر بعد المرة الأولى وكان على المنظمين أن يعرفوا أن مجال دراسات الشرق الأوسط غني بالباحثين المتميزين فيه فلماذا الحسن؟ وهل الأمر أن وراء الأكمة ما وراءها، أو أن هناك وراء الكواليس ما لا نفهمه، أو علينا أن نفهم أن «الشيوخ أبخص» وعلينا السكوت؟ وأعود إلى سؤالي في الحلقة الأولى: ما هي الرابطة العالمية لدراسات الشرق الأوسط؟ أهي منظمة سرية؟

لم تبدأ الجلسة الافتتاحية لا بالقرآن الكريم ولا بنشيد ولا سلام ملكي أو جمهوري. حيث رحب نائب رئيس حكومة كاتلونيا، جوسف لويس كارود روفيرا (Josep-Louis KCarod Rovira) بالحاضرين باللغتين الكاتلونية، والإنجليزية وكان هو رئيس الجلسة يقدم المتحدثين وشاركت في الجلسة الافتتاحية رئيسة جامعة برشلونة المستقلة (Autonoma) الدكتورة أنا ريبولي (Anna Ripoli)، والطريف أنهم في اللغة الإسبانية يميزون الدكتور من الدكتورة بإضافة حرف ألف a على حين لا تميز اللغات الإنجليزية والفرنسية والألمانية بين الاثنين.

وكان الأمير الحسن بن طلال هو المتحدث الرئيس في الجلسة. وكان أول متحدث هو جنتر ماير (Gunter Meyer) رئيس المجلس الاستشاري الدولي للتجمع الدولي لدراسات الشرق الأوسط، حيث تحدث عن فكرة المؤتمر وإنجازاته وذكر أعداد المشاركين من أنحاء العالم، حيث تجاوز ت عدد الدول المشاركة السبعين دولة. أما أعداد المشاركين فكانت كالآتي:

أمريكا ٣٤٢، بريطانيا ٣١٦، اسبانيا ٢٣١، تركيا ١٩٨، ألمانيا ١٧١، فرنسا ١٦٩، إيطاليا ١٣٦، مصر ٨٤، والجزائر ٦٤، اليابان١٥١، إيران ٥٠، تونس ٤١، والمغرب ٣٤ والدول الأخرى ومن بينها المملكة تقل الأعداد عن ذلك.

وعندما بدأ الأمير الحسن الحديث وجدت الفرصة مناسبة للخروج خوفًا من أن أستمع إلى حديث مُعادٍ عن نشاطاته وأمجاده في الحوار بين الحضارات والحوار بين الأمم والشعوب وغير ذلك. ولا شك أن الأمير يتقن اللغة الإنجليزية ويتحدثها بأسلوب متمكن، ولكن الخوف من أن أستمع إلى كلام معاد خرجت لأقوم بجولة في معرض الكتاب، ورأيت شابًا أردنيا خارج القاعة في أثناء خطبة الأمير أو محاضرته، فسألته فردد مخاوفي نفسها.

وكانت كُبْريات دور النشر الأوربية حاضرة ومنها دار كمبريدج و روتلدج التي قمت بترجمة أحد كتبها عن الاستشراق الألماني، وشاركت دار تاروس ورئيس مجلس إدارتها إيراني الأصل ولها دراسات كثيرة حول العالم العربي والإسلامي بل لعل هذا هو تخصصها، كما شاركت بريل وإن لم تشارك بريل فمن يشارك؟! وأذكر أنني في المؤتمر الأول في (مينز) كنت مشاركًا باسم مركز المدينة المنورة لدراسات وبحوث الاستشراق، وكان لي طاولة عرضت عليها بعض إنتاجي ورسائل الماجستير والدكتوراه في قسم الاستشراق ذلك القسم الذي قُتِلَ وقُبِر منذ مدة طويلة، ويحاولون إحياءه ولكن فاقد الشيء لا يعطيه ومع ذلك أرجو أن يفهموا حقيقة الاستشراق ويعتنوا بهذه الدراسات عناية حقيقية، والقسم قيل إنه أعيد فتحه في كلية العلوم الاجتماعية بجامعة طيبة هذا العام.

لقد تجولت في المعرض وتحدثت مع المسؤولين عن هذه الأجنحة عن كتبهم وربما سألت: هل ترجم هذا الكتاب إلى العربية أو هل عرض أحد أن يترجمه، وعرفت أن الذين يقفون في هذه الأجنحة ليسوا مجرد بائعين، أو

موظفين إداريين أرادت الإدارة أن تمنحهم فرصة السفر والانتداب ولكنهم من كبار المحررين ويفهمون ما يبيعون وربما عرفوا قصة كل كتاب.

إنهم يأتمرون أو يتآمرون:

كلما حضرت مؤتمرًا من تِلْكُم المؤتمرات حول العالم العربي والإسلامي والذين يصرون على أن يسموه بالشرق الأوسط وتلك تسمية غاشمة، فنحن شرق بالنسبة لمن وأوسط بالنسبة لمن؟ ولكن ليس هذا هو المهم. ولكن أن يعقد مؤتمر يستمر خمسة أيام من الاثنين إلى الجمعة وتنعقد جلساته من التاسعة صباحًا حتى السابعة مساء ويكون هناك ثلاثون جلسة في وقت واحد (متزامنة) لأمر كبير وكبير جدًا. فماذا يريد القوم؟ إنها ليست تسلية، وهم لا يقيمون الدنيا ولا يعقدونها من أجل التسلية أو التوصيات المكتوبة قبل أن ينطلق المؤتمر، ويحضر البعض ويغيب الغالبية. إنه مؤتمر تزدحم بعض القاعات حتى لا يبقى مقعد خالٍ بل جلسنا على الأرض في إحدى الجلسات وقد كان الجالسون على الأرض (وكنت أول من جلس على الأرض) أكثر من ثلاثين شخصًا.

وليس هذا المؤتمر مؤتمر المجاملات التي تقبل الورقة في اليوم نفسه، وتقبل أوراق كتبت قبل ثلاثين سنة أو هي جزء من كتاب، أو مؤتمر تُطْبع بحوثه وتُباع قبل أن ينطلق المؤتمر ليتقاضى اتحاد الجامعات الإسلامية (أمينه ومساعده لم يتغيرا منذ عقود، فأي اتحاد هذا؟) والجامعة المستضيفة ثلاثمائة دولار لكتاب لا حقوق نشر له ولم يكلف عشرة دولارات للنسخة الواحدة. وهو ليس مؤتمرًا علميًا صارمًا، فهم يقوّمون الباحث من خلال الموضوع الذي اختاره وملخص البحث، وإلّا فإن لديهم (أقصد القائمين على المؤتمر) مجموعة من الباحثين الذين يهمهم إبراز بحوثهم واختيار أنسب الأوقات لهم وأنسب القاعات، ولاحظت هنا أن التقرير الصحفي اختار مجموعة لأنهم من المقربين لهذه اللجنة، فلا يخدعونا بالعلمية والموضوعية والمنهجية.

فماذا يبحثون في هذا المؤتمر وأشباهه؟ يبحثون السياسة، وما أدراك ما السياسة؟ يبحثون كيف نعيش تحت حكومات شمولية وماذا تفعله بنا تلك الحكومات؟ ويبحثون في الديمقراطية وما بعد الديمقراطية. إن نشر الديمقراطية في نظرهم مرحلة قد انتهت. وهل بدأت حقًّا لتنتهي؟ فما يكاد بلد يقترب منها حتى يوقعوه في حرب أهلية تأكل الأخضر واليابس. لقد ضحوا بعشرات الألوف أو حتى مئات الألوف؛ حتى لا تنعم الجزائر بحكم إسلامي ولا حتى على مستوى البلديات.

وجاءنا الغزو الأمريكي إثر هجوم صدام على الكويت فأعلن لنا بوش الأب عن النظام العالمي الجديد، وأن الشعوب العربية سوف تنعم بالديمقراطية فيه وستكون البداية في الكويت لأنه الأضعف بعد خروجها من احتلال العراق، وهذا ما صرحوا به في صحفهم ووسائل إعلامهم. وصدّقهم من صدّقهم.

ثم جاء بوش الابن يزعم أنه يريد أن ينشر الديمقراطية في العالم العربي وابتدع، أو اخترع ما أسماه مشروع الشرق الأوسط الكبير، وحشد له تأييد الاتحاد الأوروبي، بل أعلن بوش أن سياسة أمريكا كانت خاطئة في الستين سنة الماضية (هل ستون سنة فقط؟) لأنها فضّلت الاستقرار على نشر الديمقراطية أو التعامل مع الشعوب. وأعلنت أمريكا الندم على تلك السنوات، ووعدت الشعوب بأن تميل إلى جانبها في مقابل الحكومات. وأنشأ الاتحاد الأوروبي إدارة خاصة بنشر الديمقراطية في العالم العربي سمّاها «ترويج الديمقراطية» (Democracy Promotion). وفي أحد المؤتمرات كان أحد خبراء هذا الفن يلقي محاضرة (في مدينة هامبورج بألمانيا) واحتشد الناس من كل أنحاء المؤتمر ليستمعوا إليه. حتى إذا انتهى أصر أحد أبناء المنطقة أن يعلق قائلًا: جميل أنكم تفكرون فينا وتحاولون نشر الديمقراطية، ولكن ما بال وزراء الدفاع والخارجية الأوروبيين لا ينقطعون عن زيارتنا لبيع السلاح لنا لنستخدمه فيما بيننا ولا نستخدمه ضد

عدونا الحقيقي. ثم إن شراء السلاح يحرمنا من أموال كانت من الممكن أن تبني المدارس والجامعات والمستشفيات والطرق وتفتح الفرص للشباب للعمل. هلّا كففتم شركات السلاح عنّا ووزراء دفاعكم ورؤساء وزاراتكم وتركتمونا وشأننا.

والآن هم في مرحلة ما بعد الديمقراطية؛ لأن تلك المرحلة أثبتت فشلها فلم تنتشر الديمقراطية وإنما أعطت دعمًا وتشجيعًا للشعوب العربية والإسلامية أن تسعى إلى الأحزاب الإسلامية لأنهم يعرفون هذه الأحزاب وأنها الأَوْلَى بحكم الشعوب لو تُرِك لها الأمر ولم تحاربها قوى الشياطين من إنس وجان وعرب وعجمان.

ولو تركنا السياسة جانبًا لوجدناهم يبحثون في التعليم العالي، فعولمة التعليم العالي، أي الدكاكين الجامعات التي انتشرت في عالمنا العربي وبخاصة في دول الجزيرة العربية التي يطلقون عليها لقب دول الخليج الذي لم يعد له اسم، فحتى خليج الخنازير -يا عالم- له اسم، فلماذا تصر إيران على خليج فارس وقد ذهبت فارس وجاء الله بالإسلام والخليج من شاطئيه عربي فكيف يكون فارسيًّا ورضينا أن نتنازل عن الاسم، من أجل ماذا؟ لا أدري. فما التعليم العالي المعولم؟ ليست هي الجامعة الأمريكية في بيروت أو القاهرة أو الشارقة أو الكويت أو دبي، ولكنها الجامعات أو بقالات الجامعات في دولنا؛ تخيلوا شهادة السربون من دبي وشهادة جامعة نورث وسترن (وما نورث وسترن هذه وما تصنيفها بين جامعات العالم؟ وهي جامعة أجنبية تدرس فيها أستاذة مجموعة من المواد ومؤهلها أنها أجنبية ذات عيون زرقاء أو خضراء، أما أن يفهم الطلاب اللغة ويتقنوها فأمر ليس ضروريًا.

ومع الاهتمام بالتعليم العالي يأتي الاهتمام بالشواذ من أبنائنا وبناتنا وبخاصة الذين كونوا فرقًا موسيقية تَصْدَح أو تصدع أو تُصدع بالآلات الحديدية أو المعدنية، ويدور حديث طويل عن هؤلاء وما يفعلون في عالم

الموسيقى وكيف تعلموها وما علاقاتهم بمجتمعاتهم وما علاقاتهم بالغرب. وتعجبت أن هؤلاء نالوا كل هذا الاهتمام من الباحثين الأجانب ونحن لا نحس بهم؟ لماذا لا يُعرفون في عالمنا العربي وندرسهم ونقترب منهم ونعرف لماذا اختاروا هذه الألوان من الموسيقى وما مقصدهم من ذلك؟ أتعجب نروي قصة القسيس الذي رأى بعض الشباب النصراني في الأندلس يتعلم العربية ويتحدث بها ويرتدي الملابس العربية، فحذرهم وطلب أن يتوقف هؤلاء الشبان الرقعاء عن هذه الأعمال وإلّا أصدرت الكنيسة قرار الحرمان ضدهم. وما أعجب ما فعل الرسول صلى الله عليه وسلم بالثلاثة الذين خُلِّفوا بأن أمر بمقاطعتهم، فهل يستطيع المجتمع اليوم أن يقاطع أمثال هؤلاء الخلعاء، كعبدة الشيطان وغيرهم أسوة بما فعل سيد الخلق بثلاثة لم تصل ذنوبهم وأخطاؤهم إلى ما تصل إليه ذنوب بعض شبابنا وشيبنا اليوم.

ويبحثون في المنحرفين والضالين ممن ينتسبون إلى العلم، فيتحدث شاب اسمه عربي من إحدى الجامعات الأوروبية عن علي عبد الرازق، وفرج فودة، ونصر حامد أبو زيد ويبدي حزنه على وفاة (أبو زيد) وكأنه صديق حميم. يتحدث عن الإسلام والسياسة ويزعم أنه قرأ كل النقد الذي وجه إلى علي عبد الرازق، فهل هو الوحيد في الغرب الذي يعتنق هذا الفكر وهذا التشويه العجيب؟ لا وألف لا. فمثله كثيرون والمصيبة أن هذا من أصل عربي وربما يعيش حياته كلها في الغرب، ولكن المصيبة الكبرى أن يصاب بمثل هذه اللوثات أبناؤنا وبناتنا ويعودون إلينا ليبثُّوا هذه السموم.

وخلا المؤتمر فيما رأيت من التوجه الإسلامي الصحيح وبخاصة في القاعات الكبرى والأوقات المختارة المتميزة. والعيب فينا وليس في المنظمين، نحن لم نسع السعي المطلوب لنكون موجودين في مثل هذا المؤتمر. ولو قام بنك عربي إسلامي بتبني حلقة أو حلقتين أو ثلاث واختار لها مَنْ يمثل الصوت الإسلامي بقوة لحقّقنا بعض الوجود. ولنتفاءل؛

فقبل يوم القيامة - إن شاء الله- سوف نشارك بفعالية.

عن إسبانيا أو برشلونة أحدثكم:

علمت عن المؤتمر الدولي لدراسات الشرق الأوسط الذي ترعاه (الرابطة الدولية لدراسات الشرق الأوسط) من خلال رسالة بريد إلكتروني وصلتني من منظمي المؤتمر لأنني كنت أحد الحاضرين في المؤتمر الأول عام ٢٠٠٢ ماينز بألمانيا، و٢٠٠٦ عمّان الأردن) تحمل خبرًا عن المؤتمر ومكان انعقاده ومحاورة وشروط التسجيل فيه، وكان ذلك قبل سنة ونصف أو أكثر من وقت انعقاد المؤتمر، فقررت المشاركة ببحث بعنوان (القيادة في وقت الأزمات: النموذج الإسلامي أبو بكر الصديق رضي الله عنه) وأرسلت ملخص الموضوع ورسوم التسجيل. وكنت من أوائل المسجلين.

واقترب موعد المؤتمر ووجدت نفسي لا أنتمي للجامعة (لم يجدد لي بعد عقد السنتين بعد التقاعد القسري الظلمي) فمن أين لي بالتمويل لحضور المؤتمر، ولكن ننسى دائمًا أن الله هو الرزاق ذو القوة المتين، وأن الله حين يريد أمرًا يهيّئ له أسبابه. فتوفرت لي الإمكانات فأسرعت إلى تقديم طلب التأشيرة وشراء التذكرة وترتيب أمور أم هاشم وهاشم وفاطمة. وكم كنت أود أن يرافقوني في هذه الرحلة لأنهم نعم الرفقة، والمتعة معهم لا تعادلها متعة، وكنت أود أن نقضي أسبوعين في إسبانيا نزور ،الإضافة إلى برشلونة، بلاد الأندلس المفقود: قرطبة وإشبيلية وغرناطة وربما طليلة ومجريط وغيرها، ولكن ظروف شراء بيت وإصلاحه لم تسمح لي بذلك، ففقدت الرفيق الذي جعل لرحلاتي حول العالم طعمًا خاصًا وجادت القريحة بتدوينها حتى أصبحت كتبًا قامت مكتبة العبيكان بنشرها.

السبت ليلة الأحد ٥/ ٦ شعبان ١٤٣١هـ (١٧/ ١٨ يوليو ٢٠١٠م) كان موعد السفر، حيث إن الرحلة تنطلق من مطار الرياض في الساعة

الثالثة والنصف صباحًا (تأخرت أكثر من ساعتين) وصلت المطار فوجدت أن المطار قد أصبح قديمًا مهترئًا، وأصبح مستوى النظافة فيه متدنيًا جدًا فما أكثر الأوساخ والأوراق والمخلفات على أبوابه، ويزيد المطار قبحًا الصبات أو حواجز الإسمنت المسلح التي كثرت في بلادنا في السنوات الأخيرة ولم نستطع التخلص منها مع أن بلادًا كثيرة تعرضت لأعمال إرهابية كما تعرضنا ولكن لم يلجؤوا إلى هذه الحواجز القبيحة.

وأكثر من الصبّات قبحًا بعض مناظر المسافرين، فشبابٌ أطال شعره بطريقة لا جمال فيها ولا تهذيب، وبعضٌ وضع على رأسه «الكدش» ، وما أدراك ما الكدش؟ يشبه كومة من القش موضوعة على الرأس ولكنه القش الأسود اللون، وأتخيل كومة الشعر المفلفل أو المجعد كأنها باروكة أو شعر مستعار يركب فوق الجمجمة تركيبًا. ومن المناظر المزعجة ملابس بعض الشباب من بنطلونات طيحني -لحق أحدهم صاحب بنطلون من هذا النوع، وقال: له أخي الكريم تكاد عورتك أن تكون ظاهرة، فإن فقدت حزامك فاسمح لي أن أعطيك حزامي، فنظر إليه صاحب طيحني، قائلًا: يا لك من غبي البنطال هكذا موديله وموضته. وكلما رأيت هذه المناظر تذكرت عجوز بني إسرائيل التي دعت على ابنها أن يرى وجوه المومسات، فقلت يا لها من عجوز لم تدع عليه أن يحتك بهن أو يعاشرهن أو يقع في حبائلهن، وإنما دعت فقط أن يَرَاهُنَّ. فماذا تقول في المومسين في أيامنا، هذه، وقد ذكرت لأحد إخواننا من هيئة الأمر بالمعروف ذات يوم لماذا لا تنصحون هؤلاء الشبان الرقعاء ذوي الأسمال المزركشة والمناظر الخليعة (ليس لقلة الحشمة ولكن لانتفاء الحشمة كليًا).

ومن المناظر القبيحة الحجاب اللاحجاب. وهذه ليست أحجية فبعض الفتيات يرتدين العباءات وغطاء الرأس، ولكن كأنه لا وجود له. وكأنها تنتظر اللحظة المناسبة لتلقي به بعيدًا في أعماق حقيبة اليد، أو في مكان سحيق، وأسوأ من مرتديات العباءة دون التزام حقيقي بالحجاب مرتديات

حجاب من أعلى الجسم ثم يرتدين بناطيل لاصقة بالجسم، وبعضهن يمشي معهن الأب أو الأخ أو الزوج وكأنه لا يرى ما ترتديه قريبته.

وأحيانًا لا يتوقف الأمر عند اللباس بل ينتقل إلى السلوك وطريقة الكلام والحركة وهذه والله أخطر من اللباس فهي التي تدعو أصحاب القلوب الضعيفة أن يعاكسنهن، وهو ما دعاه القرآن الكريم (ولا تخضعن بالقول فيطمع الذي في قلبه مرض) والخضوع يكون بالحركة والمشية والنظرة ولا حول ولا قوة إلاّ بالله.

وكانت بعض الرحلات قريبًا من وقت الفجر فاجتمعت مجموعة من الناس فصلوا الفجر ولم يكن قد أُذِّن للصلاة فكيف أجازوا لأنفسهم أن يصلوا قبل الوقت؟ هل عندهم فتوى أو إذن بذلك. وقد علمت من طالب علم أن هذا يسمى «الهجوم على الوقت»، وهو من الكبائر، وذهبت المجموعة الأولى وجاءت المجموعة الثانية، وظنًّا مني أن أحدهم يعرف أن الفجر قد حل فصليت معهم، وبعد قليل انطلق المؤذن بصوته العذب الندي ينادي لصلاة الفجر فعرفت أننا أخطأنا، وكان في الوقت متسع لتأخر الرحلة، وما أعظم شركة الطيران إن أخرت الرحلة من أجل الصلاة -عدا تلك الملتزمة بوقت معين للاقلاع لارتباطها بمطارات عالمية مزدحمة- .

وصلاة الفجر تجعلني أفكر بأن مناهج الدين لدينا والحمد لله قوية، فعندنا القرآن والتجويد ويحفظ الطلاب قسطًا طيبًا من القرآن الكريم، وحلقات القرآن متوفرة في بلادنا أكثر من أي منطقة أخرى في العالم فلماذا نصلي بالطريقة التي نصلي بها؟ صلى أحدهم بنا فقرأ سورة الزلزلة – قرأها أحدهم في اليابان وشعر برهبة الزلزلة وبخاصة أن اليابان معروف بالزلازل- فكانت قراءته لا علاقة لها بقراءة القرآن الكريم من حيث السرعة في القراءة وعدم مراعاة أحكام التجويد. وأتساءل هل ذهبت كل تلك السنوات من الدراسة هباءً منثورًا؟ بل إنني سمعت من قرأ في صلاة

الفجر في بعض الأماكن عندنا بسورة الإخلاص وسورة الفلق والناس، وربما قرأ أحدهم سورة الناس قبل الفلق، وإن كان بعض العلماء يرى أنه لا شيء في ذلك ويرى غيرهم ضرورة الترتيب.

لم يكن في الرحلة من الرياض إلى القاهرة ما يلفت الانتباه سوى أنني أخلدت إلى النوم وكانت لديهم وجبة طعام، فأصروا على إيقاظي، وليتهم لم يفعلوا. وفكرت أن الرحلات في هذه الأوقات مزعجة حقًا، ففي العالم مطارات تغلق أبوابها في العاشرة مساءً ولا تفتح إلاّ السادسة صباحًا، فمن شاء فليسافر ومن شاء فليقعد، إنهم يحترمون السكان حول المطار ويعتقدون كما هو الصحيح أن الليل لباس، وأن النهار معاش، فلماذا العمل في الليل؟، وقد أثبت التجارب أن العمل الطويل ليلًا يؤذي الجسم والعقل والنفس، وهو غير صحي مطلقًا.

وصلت إلى مطار القاهرة فكان الأمر ميسر. المرور من خلال صالة ركاب العبور فلا جوازات تختم ولكن لا بد من المرور بالتفتيش المزعج حيث إنك تنتقل من الطائرة إلى الطائرة، ولكن لديك الوقت للمرور بالسوق فيسعون إلى تفتيشك، وأحيانًا يزيدون التفتيش تفتيشًا عند باب الطائرة. وللجنود المفتشين لطائف وطرائف أحكي بعضها في الصفحات القادمة.

ساعتان في شوارع برشلونة: السير على غير هدى وركوب القطار

وصلت إلى المطار في الساعة الثانية والنصف بعد الظهر، فخرجت أسأل عن طريقة الوصول إلى المدينة أو وسط المدينة حيث الفندق، فعرفت أن أمامي طريقين إما السيارة الأجرة وتكلف أكثر من ثلاثين يورو (أي حوالي المائة والخمسين ريالًا) أو أركب الحافلة لتقلّني إلى ميدان كاتلونيا. وبأجرة لا تزيد على خمسة من اليورو. فاخترت الحافلة. وعرفت مكانها بقليل من السؤال وكأني نسيت قول أبي - رحمه الله-: « والسؤال مذلة ولو عن جادة الطريق»، وركبت الحافلة واستغرقت حوالي نصف ساعة أوصلتني إلى وسط المدينة وكانت أمامي مسافة للوصول إلى الفندق فقررت أن أركب سيارة أجرة وكانت تكلفتها حوالي السبعة يورو.

وما أن وضعت حقائبي حتى قررت الخروج للتجول حول المدينة، ودون أن أبحث عن خريطة أو سؤال الاستقبال في الفندق قررت أن أسير على غير هدى وكان لدي إحساس أن الاتجاه النازل من الفندق سيؤدي إلى وسط المدينة، وأخذت أمشي كثيرًا. ولما كان ذلك اليوم هو الأحد فقد كانت الشوارع الفرعية والبعيدة عن وسط المدينة شبه خالية، ولكن وسط المدينة كان مزدحمًا وكانت المقاهي مزدحمة وهي المكان المفضل لدي للكتابة والتأمل في أوضاع الناس وحركاتهم وسكناتهم.

كان المشي من الساعة الخامسة عصرًا حتى وقت الغروب صعبًا؛ لأن الجو ما زال حارًا نسبيًا وتزيد في الإزعاج الرطوبة العالية، ولذلك فكرت أن أفضل وقت لزيارة برشلونة يكون في الربيع أو بداية الصيف.

تمتاز المدينة بكثرة المباني القديمة المبنية بالحجر ذات الطراز المعماري الجميل والجذاب (معذرة، فما حب الغرب هذا ولكن حب القديم الذي أضعنا كثيرًا من معالمه) وبالإضافة إلى المباني القديمة فإن المدينة مبنية بعقلية عبقري حيث كثرة الساحات، فلو كان الشارع مائة متر فقد جعل

للسيارات منها ثلاثون مترًا وتُرِكت السبعون للميادين البينية والخضرة والمقاهي والمطاعم والمتاجر السياحية. والإسبان في برشلونة مبدعون في استغلال الأرصفة؛ فما تمشي قليلًا حتى تجد عددًا من الطاولات، وإياك أن تأخذ شيئًا من مطعم وتجلس على طاولة المطعم المجاور كما حدث لي فينهرك صاحب المطعم المجاور، وله الحق في ذلك، ولكن الغريب أعمى ولو كان مبصرًا، وللسن أحكام كما نقول في الحجاز.

ولما كان الجو حارًا والرطوبة عالية فقد تقلل الرجال والنساء من الملابس وإن كان تقلُّل النساء أكثر ولكنه ليس في سوء وفحشاء التقلل في بريطانيا أو السويد.

جلست في أحد المقاهي أشاهد المشاة فوجدت أكثرهم من الأوروبيين، ولا بد أن نسبة منهم من الإسبان قدموا من مدن أخرى ليمتعوا أنفسهم برؤية برشلونة، وكان من بين السياح بعض اليابانيين، وهناك عرب. ورأيت الحجاب ولم أر النقاب الذي أصبح من القضايا العالمية التي يصوت عليها أكبر المجالس التشريعية في أوروبا وبخاصة في فرنسا. وأورد موقع الإذاعة الألمانية (دوتشه فيللا DW) الخبر كما يأتي (وصوَّتَ لصالح مشروع القانون ٣٣٥ نائبا من أصل ٥٧٧، وأيد اليمين الفرنسي مشروع القانون، فيما رفضت المعارضة، التي تتكون أغلبيتها من اشتراكيين وشيوعيين وخضر، المشاركة في التصويت، بالرغم من أنها تعارض بشدة ارتداء النقاب والبرقع. ويأتي هذا التصويت تطبيقًا للمبادئ الواردة في قرار للبرلمان الفرنسي، تم التصويت عليه بالإجماع في أيار/ مايو الماضي. ويحدد ذلك القرار أن «الممارسات الراديكالية، التي تمس الكرامة والمساواة بين الرجال والنساء، ومنها ارتداء الحجاب الكامل، تتعارض مع قيم الجمهورية». وكانت وزيرة العدل «ميشال آليو ماري» قد شددت -أثناء مناقشة في مجلس النواب في السادس من تموز/ يوليو الحالي- على «أن إخفاء الوجه تحت حجاب كامل مخالف للنظام العام الاجتماعي، سواء أكان ذلك

بصورة طواعية أم بالإكراه»)

(http://www.dw-world.de/dw/article/0,,5790472,00.html)

وانتقلت مصيبة الهجوم على النقاب إلى سورية وسمعت إحدى الإذاعات الأجنبية التي تهتم بمثل هذه القضايا حيث قدمت استطلاعًا للرأي حول قرار سورية منع النقاب وجاء فيه على لسان رئيس الجمهورية أن النقاب والعري وجهان لعملة واحدة. وظهر من المنافقين أو ممن باع دينه بدنيا غيره أو علماء السلاطين فقال:إن هذا الحكم صحيح، وزعموا أنهم يمنعون النقاب في الدوائر الحكومية وفي الشركات وليس في الشارع، فمن حق المرأة أن ترتدي النقاب كما تشاء في غير هذه الأماكن. والعجيب أن العري لم يصدر أي قرار يمنعه أو ينظمه أو يحرمه، فللنساء أن يتعرين كما يشأن أو كما شاء لهم الرجال الفاسدون. وتساءلت: هل العري مصدره الرجال أو النساء؟ أو هو من الشيطان وحده؟ إنه الضلال المبين.

ورأيت العمالة الأجنبية في الشوارع وفي بعض الأحياء القريبة من وسط المدينة فتعجبت: هل إسبانيا تعاني ،مثل دول أوروبا الأخرى، من تراجع الخصوبة وتناقص النسل؟ وأعتقد، وإن لم تكن لدي أرقام، أنها مشكلة تعم العالم الغربي كله واليابان أيضًا.

لم أسِر في شوارع برشلونة في وقت متأخر من الليل ولا في الصباح الباكر لأرى هل يوجد فيها المشردون، ولكني لمحت أكثر من واحد ينام على المقاعد في بعض الميادين، كما رأيت عددًا من المتسولين من نساء ورجال وكان أحدهم يظهر بعض التشوهات الخلقية في جسمه. ولكن لم أجد متسولين مزعجين أو ملحاحين وإن كان تقدم لي أكثر من واحد يتحدث بالإسبانية التي لا أفهمها ولكن الأمر لا يحتاج إلى فهم فهو إنما أراد التسول، فالعادة أن أظهر له أنني لم أفهم وأنا بالفعل لم أفهم.

ركوب القطار:

هل ركوب القطار صعب؟ هل معرفة الاتجاهات وشراء التذاكر وغير ذلك مما يشق على المسافر؟ سألت عن محطة القطار القريبة فدلني موظف الاستقبال، وما أن نزلت حتى وجدت الآلات تبيع التذاكر وكنت أحب أن أشتري تذاكر لعدة أيام بدلًا من شراء تذكرة لكل مشوار، فوقفت أنظر في الناس يتعاملون مع الآلات بكل سهولة، فرأيت موظفة في المحطة فانتظرت حتى فرغت وقلت لها: أريد عدة رحلات فقالت: أعطيك تذكرة لعشر رحلات بخمسة عشر يورو؛ يعني يورو نصف لكل مشوار. فقلت في نفسي: يا بلاش لو كنت أركب سيارة أجرة لدفعت أضعاف أضعاف ذلك، وكذلك لو ركبت الحافلة، وربما لا توجد حافلة واحدة لكل المشوار. فاشتريت التذكرة بوضع ورقة نقدية من فئة خمسين يورو وأعاد الجهاز المبلغ الباقي وبدأت أستخدم القطار الذي يسير حينًا في باطن الأرض وأحيانًا على وجه الأرض لأنه يخرج من حدود برشلونة إلى المنطقة التي تقع فيها الجامعة المستقلة (أوتوناما).

وكنت في الصباح قد أخذت خارطة من موظف الاستقبال لأتابع المحطات التي يسير عليها القطار لأتأكد من أنني أسير في الاتجاه الصحيح. ولكن خريطة الفندق كانت تختلف عن خريطة القطار، وفجأة رأيت القطار كأنّه قد تجاوز الجامعة، فخرجت من القطار لأذهب إلى الاتجاه المعاكس، وبعد أن نزلت سألت (والسؤال مذلة ولو عن جادة الطريق)، فعرفت أنني مخطئ، وأنه بقي لي ثلاث محطات قبل الوصول إلى الجامعة فعدت أدراجي وبالفعل كان الأمر كما قال لي أحدهم وهو إسباني يعرف الإنجليزية. وللحقيقة لم أجد إسبانيًا يمتنع عن إجابة السؤال وإن كان يعرف الإنجليزية شرح لي بالتفصيل، فهو شعب مضياف وكأن دماءنا العربية الباقية فيهم تجعلهم كرماء. ولن أغالي في مدحهم فهم أصحاب محاكم التفتيش وإبادة المسلمين وتدمير آثارهم، إلّا أن يمنّ الله عليهم

بالعودة إلى الإسلام وإلّا فبيننا وبينهم ما صنع الحداد وأكثر.

وأخيرًا وصلت إلى الجامعة ووجدت اللوحات الإرشادية للمؤتمر وكان الأمر يتطلب صعودًا قليلًا فقلت في نفسي إن الذين تجاوزوا الستين عليهم أن يتوقفوا عن البحث عن المشاق، ولكن الأسهل أنه لو كان لي رفيق لهانت علي كل هذه المشاق.

السياحة في برشلونة:

لم أذهب إلى برشلونة سائحًا هذه المرة، ولكني كنت مكلفًا بمهمة من جهة علمية وأعتقد أنها مهمة صعبة وهي حضور المؤتمر ومتابعة جلساته وما يُقَدَّم في المؤتمر، وشعرت بثقل المسؤولية وأنها المرة الأولى التي أتعامل فيها مع هذه الجهة، فلا أعرف ماذا سأقدم لهم وإن كان سيرضيهم أو لا.

لكن هل هذه زيارتي الأولى لإسبانيا ولبرشلونة بالذات؟ لقد زرت إسبانيا مع مجموعة من طلاب قسم التاريخ بجامعة الملك عبد العزيز عام ١٤٠٠ هـ حيث كنت حينها في بداية الدراسات العليا بالجامعة، وكانت تلك سنوات الطفرة والمال الوفير، فقررت الجامعة أن توفد عددًا من طلاب التاريخ لزيارة الأندلس برفقة الدكتور محمد الثنيان. فبدأنا بمدريد وانتقلنا بالحافلة إلى غرناطة فإشبيلية فقرطبة. وتعرفنا إلى الآثار الإسلامية في تلك الديار. وكانت رحلة جميلة وفرت لنا الجامعة أحسن الفنادق وأطيب الطعام وكانت الرفقة لا بأس بها، فمن الطلاب من تتمنى أن ترافقه مرة أخرى ومنهم من تتمنى أن تنتهي الرحلة بسرعة حتى لا تراه مرة ثانية. وقد توطدت العلاقة بيني وبين أكثر من واحد منهم.

وكان من طرائف تلك الرحلة أن الدليل الإسباني كان يتكلم الإنجليزية وكان الدكتور المرافق، وهو الذي درس في بريطانيا، عليه أن يقوم بالترجمة للطلاب ولكن رأى الدكتور أن يتخلص من المهمة فأوكلها إلّي، وهمس لي الدليل أنه يفضل أن أكون أنا المترجم. ومن طرائف الدليل

أنه كان يشيد بعظمة المسلمين وإنجازاتهم العمرانية والتقنية، وذوقهم. حتى إننا كنّا في أحد الأحياء الشعبية في قرطبة أو غرناطة فقال: حرص المسلمون على أن لا يزينوا بيوتهم من الخارج حتى لا يثيروا الأحقاد والحسد من الفقراء ولكن كانت البيوت تتفاوت من الداخل. كما أشار إلى طريقة بناء مسجد قرطبة وطريقة دخول الضوء إلى المسجد بطريقة أفقية، فأفسد النصارى النظام بجعل فتحتات في السقوف. كما شوهوا المسجد بإضافة كنيسة في داخله، ولكنه أضاف: إن وجود الكنيسة حمى المسجد من أن يُدَمَّر، فقد كان حقد النصارى على المسلمين كبيرًا حيث حرصوا على محو ذلك الوجود. وما علموا أنهم سيجنون المليارات من الدولارات من دخل السياحة القادمة إلى الأندلس التي يطلقون عليها(أندلثيا) حيث يقلب الإسبان السين ثاء في كثير من الكلمات. وأشار إلى عبقرية البناء الإسلامي من الناحية الصوتية؛ أيضًا حيث إن الإمام يستطيع أن يُسْمِع صوتَه لمن في آخر المسجد. وهي تقنية عرفها الرومان واستخدموها في مدرجاتهم ومسارحهم وأتقنها المسلمون.

أما المرة الثانية فكانت رحلة سياحية عائلية، لا أذكر من برشلونة كثيرًا أو أشعر كأني أصبت بفقدان ذاكرة (مر على الرحلة أكثر من عشرين سنة) فلا أذكر من المدينة غير مجمع تجاري وشكل أكياسه، التي لا تزال كما هي، اللون الأخضر والأبيض والأسود والمثلثات. وفقدان الذاكرة أحيانًا أو في غالب الأحيان نعمة، وأي نعمة. ولا أريد أن أخوض في أسباب فقدان الذاكرة فهي مما أريد أن أنساه أيضًا متعمدًا.

وفي هذه الرحلة استمتعت بالمشي في المدينة من بعد نهاية المؤتمر كل يوم، وفي يوم السبت الذي تلا نهاية المؤتمر؛ حيث أمضيت عشر ساعات أو أكثر وأنا أمشي بلا توقف.

بحثت عن صحيفة إسبانية ناطقة باللغة الإنجليزية لأعرف شيئًا عن أوضاع إسبانيا ومشكلاتهم، ولكني لم أعثر فتعجبت أنه ليس لديهم اهتمامٌ

أن يخبروا العالم بأوضاعهم أو الدعايةُ لأنفسهم. وكانت السويد مثلها. واجتهدت في أن أبحث عن أخبار إسبانيا من خلال الإنترنت ولكني شغلت بمسائل أخرى. ولكن هناك من العرب المقيمين في إسبانيا الذين يتناولون شأنها، ومنهم الكاتبة يمان السباعي التي تكتب عن الأوضاع الاجتماعية في إسبانيا وقد سمعتها ذات مرة تتحدث عن العنف ضد المرأة في اسبانيا ووجود عدد كبير من الملاجئ للنساء اللاتي يتعرضن للعنف. وهي قضية تعم أوروبا حتى أمريكا، حتى إن هناك مادة في كلية كولورادو ميتروبوليتان باسم (العنف ضد المرأة) واشتريت الكتاب المنهجي المقرر مستعملًا بخمسين دولارًا.

واعتزاز الإسبان بلغتهم والكتالون أيضًا بلغتهم الخاصة جعلهم لا يضعون أي لوحات إرشادية بغير لغتهم، ولا حتى أسماء المحلات التجارية. وعلى الرغم من أن إسبانيا بلد سياحي بامتياز حيث يفوق عددُ السياح عدد سكان إسبانيا سنويًا ومع ذلك فمن الصعب أن تجد متجرًا يضع اسمه بغير اللغة الإسبانية. أما مَنْ يتحدث الإنجليزية فلا أستطيع أن أحكم ولكني كنت أسأل عن اسم الرملة أو الرمبلا وكان الأمر سهلًا، وحين كنت متوجهًا للجامعة كنت أقول: أوتوناما، فيفهمون. ولا تكثر المحلات الأجنبية عندهم سوى في مقاهي ستاربكس ومطاعم ماكدونالد ومطاعم برجر كنج. أما المقاهي العالمية أو المتاجر العالمية فليست عندهم بالكثرة ولكن بعض العلامات التجارية المشهورة فهي موجودة دون شك.

سرت في اتجاه وسط المدينة وكانت أولى ملاحظاتي أن في برشلونة حركة دائبة من العمران والترميم. ويضعون مخلفات الترميم من رمل وحجارة وقطع الاسمنت وغيرها في أكياس ضخمة من البلاستيك القوي ولها غطاء ولها حبل تحمل منها، ويكاد يكون شكلها مكعباً بحجم يفوق المتر المكعب. ولم أرد الحاويات الضخمة التي نستخدمها للمخلفات التي تشوه الطريق وتعطل السير، كما لاحظت أنهم يبنون محطة قطار قريبًا من

شارع (دايجنال وقراسيا) ولكنهم لم يوقفوا المرور من حول المحطة ولا تعطّل السير ولا جلبوا الصبات والحواجز الخرسانية. فبإمكانك أن تمر من جوار مكان الحفر من اليمين واليسار فكانت لفتة جميلة أن لا يتعطل السكان في حياتهم اليومية من حول المحطة، وكم أتمنى لو أن أمناء المدن وبخاصة الرياض اطلعوا على طرق التعبيد والترميم والإصلاح في المدن الغربية، حتى إذا اضطروا إلى تضييق الطريق أو عمل تحويلة يحددون لك كم من الوقت يستغرق العمل ويّعِدونك بالعودة إلى الوضع الطبيعي في أقرب فرصة وينفذون ما قالوا.

ووصلت إلى وسط المدينة وإذا أنا بسوق مغطى ويبدو أن الغطاء من البلاستيك، فدلفت إلى السوق فعرفت أنه سوق ما نسميه (أبو ريالين)، ويحتوي الملابس والأقمشة والخردوات وغير ذلك. وكم تمنيت أن ألتقط صورًا لمحتويات السوق. ولكن البضاعة الموجودة من النوع الرخيص. ومع ذلك فازت فاطمة ابنتي ابنة الثلاثة (أصبحت الآن أربع سنين) أعوام بقطعتين من الملابس. وخرجت من السوق لأسير في اتجاه بعض الأحياء القديمة ذات الشوارع الضيقة فبدأت أرى بقالات لهنود وباكستانيين ومغاربة وأفارقة. وعددت المجزرات (دكاكين الجزارين أو القصّابين) فوجدتها أكثر من عشرة تبيع اللحم الحلال فلو كان لكل مجزرة ألف زبون لكان عدد المسلمين عشرة آلاف وربما كانوا أكثر، فأين المسجد وأين الحياة الإسلامية؟ لقد وجدت الكثير من البقالات تبيع الخمور على الرغم من أن أصحابها، أو البائعين فيها مسلمون أو هكذا يبدو من سِحْنتهم.

ورأيت في الحي الذي يمكن أن أطلق عليه الإسلامي رجالًا يرتدون الزي الباكستاني ورأيت أفريقيًا يرتدي ثوبًا ورأيت النساء محجبات، بل رأيت نساء مغربيات يرتدين الجلّابة المغربية. والسؤال هنا: ما ذا يعمل المسلمون؟ هل هم العمالة الدنيا الذين ضاقت بهم الأرض بما رحبت في بلادهم فلجؤوا إلى الهجرة؟ وأتساءل أيضًا: متى تنتهي أوضاعنا المأساوية

حتى نصبح خدمًا عند غيرنا، ولله در الشاعر حين رد على أحد الملوك

بـأَيِّ مَشِيْئَةٍ عَـمْـرَو بْـنَ هِـنْـدٍ   تُطيع بِـنَـا الـوُشَـاةَ وَتَـزْدَرِيْـنَـا
تَـهَـدَّدْنَـا وَتُـوْعِـدُنَـا، رُوَيْـدًا   مَـتَـى كُـنَّـا لأُمِّـكَ مَـقْـتَـوِيْـنَـا؟

معذرةً خديجةُ ولكن.....

عندما ذهبت إلى المكتب السياحي للحجز إلى برشلونة عزمت على أن أسافر قبل المؤتمر بيوم، حيث يبدأ في السابع من شعبان (١٨ يوليو) وهو يوم أحد، يعني أن أصل برشلونة يوم ٦ شعبان (١٨ يوليو)، وأما العودة فينتهي المؤتمر يوم ٢٤ يوليو والحقيقة أن المؤتمر انتهى يوم ٢٣، ولا أدري هل الخطأ مقصود لإيهام المشاركين بالبقاء يومًا إضافيًا ليدعموا السياحة أو ماذا؟ المهم أنني عزمت على العودة يوم ٢٥ ووسّطت أحد الإخوة في وكالة سياحية ليحجز لي ولأشتري التذكرة من مكتبه، فإذ بي أجد حجز العودة يوم ٢٦ يوليو وأصل إلى الرياض يوم ٢٧. ولم أتفطن لذلك إلّا بعد أن وصلت اسبانيا.

المهم وجدت أن لدي يومين إضافيين. ومن حق خديجة زوجي أن تنتظر عودتي بعد نهاية المؤتمر مباشرة، وهو من حقوقها وأمر نبوي كريم (فإذا قضى نهمته فليعدْ إلى أهله) ووالله ما قصدت مخالفة الحديث الشريف ولا إغضاب خديجة وقد تسبب عدم مرافقتها لي أنني لم أستمتع كما أردت، فكنت أمر بالأشياء مسرعًا وحتى آلة التصوير لم أجد مزاجًا لإخراجها وتصوير الأماكن أو تصوير نفسي في تلك الأماكن. ولكن كيف أكون في برشلونة عدة أيام ولا أرى إلاّ قاعات المؤتمر والزملاء والأصدقاء والأعداء. ولذلك أعجبني الخطأ أو النَّصْب من الوكالة السياحية. فكانت الجولة في شارع الرمبلة (أو الرملة) كما زعم أحد كتاب الإنترنت إنما هو تحريف لاسمه الحقيقي «الرملة» لأنه امتداد للشاطئ ورمالِه، والإنترنت هي (الصحف الحائطية التي كنا نعدها في المدارس حيث لا يسمح لنا

بالكتابة في الصحف السيارة، وهكذا وجدنا الإنترنت اليوم فنحن -أقصد مجموعة من الناس وليس أنا وحدي- لم نجد الفرصة للكتابة في الصحف السيارة فأتاحت لنا الإنترنت لنكتب ونقول ما في أنفسنا إلى حد ما.

وشارع الرمبلة يمتد من ساحة كاتلونيا إلى الشاطئ مسافة كيلومترا ومائتين من الأمتار. وهو شارع يمتلكه المشاة، حيث إن المسافة المسموح بسير العربات فيها لا تتجاوز المسار الواحد في كل اتجاه. وهناك الكثير من محطات المترو (قطار الأنفاق أو القطار التحتي) وتكثر الفنادق الفخمة والأقل فخامة حتى المتواضعة جدًا، والشقق المفروشة على جانبي الشارع ويحذر أحد الكتاب من الضجيج في هذا الشارع الذي تستمر الحياة فيه حتى الثالثة صباحًا حتى لو كنتَ في أحد الفنادق الفخمة فإن الضجيج سيصل إليك مهما كانت العوازل. ويتضمن الشارع السياحة البريئة والسياحة غير البريئة التي لا أسمح لنفسي- بالكتابة عنها؛ لأمرين: ترفعًا عن ذكر الأشياء الدنيئة، ولأنني لم أسر في الشارع بعد غروب الشمس (وكانت تغرب في التاسعة تقريبًا)، وأما الأشياء التي تجذب السياح فيه فكثيرة ومن أهمها وأغربها ولا يكاد يوجد في غير هذا الشارع، هي التماثيل البشرية. وترى أشكالًا عجيبة من البشر ترتدي أزياء من القرون الماضية وتقف وكأنها تماثيل حقيقية،حيث تحتاج إلى ساعات طويلة من ارتداء تلك الأزياء العجيبة ولديها القدرة الكبيرة على الوقوف أو الجلوس دون حركة مدة طويلة. ولكن قد تقف لتنظر وتتأمل التمثال ويتحرك أمامك فجأة. ترى أسنان التمثال وابتسامته حين يطلب منه أحدهم أن يتصور معه. وهذه الصور تغري السياح بإخراج بعض القطع النقدية.

وتكثر في الشارع المتاجر السياحية والمطاعم والمقاهي، وأسعار كل شيء هنا مبالغ فيها، فكتيب صغير يحتوي صور برشلونة بست يورو ونصف أي بأكثر من ثلاثين ريالًا، وربما كان في مكان آخر لا يتجاوز ثلاثة يورو. ولكن يمكن للإنسان أن يتناول فنجانًا من القهوة أو الشاي ليشاهد

الشارع وحركته، (ويشرب غيرنا كدرًا وطينا، خمرًا وسكرا)

وفي هذا الشارع أكبر تجمع للرسامين وهم على درجات بالطبع كما هو كل الناس في كل المهن، ويصطادون الزبائن المغرمين بأن يرسمهم أحد وبخاصة مَنْ لم يمنحه الله جمال الشكل فتراهم أكثر الناس غرامًا بمن يرسمهم، ونحن تعلمنا أن الإنسان إن نظر في المرآة أن يقول : (**اللّهُمَّ كما حسّنت خَلقي فحسّن خُلُقي**) وهم من جميع الجنسيات فليسوا إسبانيين فقط. ويعرض بعضهم صورًا مما رسموا من قبل، وأتساءل: لماذا لم يأخذها أصحابها؟ هل اختلفوا مع الرسام أو إنهم وجدوا الصورة قبيحة أو هي صورة طبق الأصل للواقع فكره أحدهم أو إحداهن أن تدفع مقابلًا لصورة لا تعجبها أو تعجبه؟ وبالإضافة إلى صور الأشخاص فهناك الرسوم الأخرى ولا أملك القدرة على الحكم عليها فقد يكون بعض هؤلاء الرسامين أصحاب موهبة حقيقية ولكنهم لم يكتشفوا أو لم تتح لهم الفرصة للظهور. ولكن عددهم كبير حقًّا. ويوجد في الشارع (نصّابون) كثيرون وانتهازيون ولصوص وسارقون، وقراء الحظ، أو البخت كما يقول الشوام، وقراء الطالع كما يقول المصريون، والمنجمون والكهنة والعرافون كما هم فعلًا: (**من أتى عرّافًا أو كاهنًا فصدّقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم**).

وقد وضع أحدهم تعليمات للسلامة في هذا الشارع. وقد وصف أحد الغربيين لعبة (أين الكرة) التي يمارسها بعض النصابين هناك وكيف يبتزّون السياح. ويقول هذا الكاتب إن هذا الشارع على الرغم من كل المناظر الجذابة والممتعة فيه قد يُحدّد فيه مصير حياة إنسان فقد يرتكب أحدهم جريمة قتل أو تدمير حياة إنسان قبل أن تصل الشرطة على الرغم من أنها موجودة فعلًا في كل نواحي الشارع. وعلى الرغم من رحلاتي الكثيرة لم أتصور أن تكون السياحة خطيرة إلى هذا الحد.

وعلى الإنسان أن لا يكتفي بالسير في الشارع الرئيسي بل عليه أن يسير

قليلًا في الشوارع الفرعية، ومن أهم الأمور التي تجذب السياح واعتنى بها مجلس المدينة (للمدينة مجالس فأين مجالس مدننا؟) الآثار القوطية. والقوط هم حكام إسبانيا حين فتحها المسلمون، والعناية بالآثار القوطية أمر ملفت للانتباه، فهل هو فقط اهتمام بالماضي وجمالياته وآثاره أو إن لدى الكتالون هدفًا آخر هو التنبيه إلى أمجادهم السابقة.

http://www.funtouristattractions.com/a/gothic-quarter-barcelona-spain/943

وأنت في الرمبلة أو الرملة تمتع بالعصير الطازج.

كأني قلت لك لا تكتفي بالسير في الشارع الرئيس. كن مثلي لديك حب استطلاع وفضول (وملقوف، بالحجازية) وسِرْ في أي اتجاه تقودك قدماك، فإن ضعت فرأسمال الأمر أن تسأل وإن لم تسأل أن تبحث عن سيارة أجرة إن كنت مستعدًا أن تصرف خمسين أو ستين أو سبعين ريالًا أو أكثر لمشوار لا يزيد عن أربعة يورو في بلادنا المعمورة. وكما كان يقول أبي -رحمه الله- «اللي تعرف ديته اقتله» (ليس المعنى القتل المادي الحسي، ولكن نفذ إن كنت قادرًا) نعم كن فضوليًا وأنت مسافر، لا تكن فضوليًا دائمًا، فيصيبك ما يقوله المثل الحجازي: من أدخل يده في الغيران تلسعه ...وأكملوا.

وقد قادني حب الاستطلاع إلى سوق سينت جوزيف وسينت فلان وسينت فلان، والسينت في لغة القوم هو القديس، فما أكثر القداسة أو المقدّسين! فهل صحيح أنه كان لديهم كل تلك القداسات وحالهم هو الحال الذي عندهم؟ والأمر ينطبق علينا؛ فأحيانًا يكون عندنا ألف شيخ وشيخ ولا شيخ، والمعنى في بطن الشاعر، وكما كان الغزالي -رحمه الله- (أبو حامد) يحب أن يتمثل ببيت الشعر: يا قراء البلد أنتم الملح، فما يُصلح الملح إذا الملح فسد؟ فما معايير القوم في إطلاق لقب قديس على بعض الأشخاص، وبالمناسبة فمعظم تلك القداسة تذهب للرجال، أفلا تستحق النسوة عندهم هذا اللقب. صحيح أن الحديث الصحيح يقول (كمل من الرجال كثير ولم يكمل من النساء غير مريم بنت عمران وآسية امرأة فرعون

وإن فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام) صحيح البخاري، المجلد ٥ (كتاب ٦٢). ولكن القرآن الكريم ضرب مثلًا للذين آمنوا امرأة فرعون، ومريم ابنة عمران ، وضرب الله كذلك مثلًا للذين كفروا من النساء امرأة نوح وامرأة لوط. وفي تاريخنا الإسلامي احتفاء بالنساء اللاتي بلغن درجة عالية من العلم، وأمهات الأعلام والعلماء وأخواتهم وغير ذلك.

كن فضوليًا محبًا للاستطلاع فقد قادني هذا الحب لأدخل سوق القديس (عندهم) جوزيف وهو سوق طريف للغذاء أو للطعام، فأول السوق متجر يبيع الفواكه، ويبيع إلى جوارها العصير الطازج من البرتقال إلى المانجو والتفاح والموز والباباي والأناناس، فطلبت كأسًا من الباباي، وكان الثمن اثنين ونصف من اليوروات. وكان عندهم تمر يباع بالغرام واشتريت مائة غرام بأكثر من اثنين يورو وبقيت معي تمرة أو تمرتين كانتا من نصيب فاطمة (ابنتي ابنة الأربعة أعوام). يعني أربعة تمرات بعشرة ريالات، فماذا فعلنا في تصدير التمر إلى العالم؟ ألا يمكن أن نثقف العالم بفوائد التمر بكل اللغات الحية ونوزع الكتيبات وننتج البرامج في كل القنوات الفضائية الغربية عن التمر؟ لماذا لا نسوق التمر وفي الوقت نفسه نسوّق اللحم الحلال؟ كم من البرامج تحدثنا عن اللحم الحلال وعن التسمية على الذبيحة ومَنْ يأكل الأوروبيون وغيرهم من المطاعم التي تقدم اللحم الحلال؟ ألا يمكن أن ننتج مطوية صغيرة توضح فوائد اللحم الحلال.

ووجدتهم يبيعون الزعفران واشتريت ثلاثة غرامات، ومع أنني أعتقد أن السوق ليس للسياح وحدهم فهو سوق تاريخي والذين يعملون في السوق هم من أحفاد الأحفاد للآباء المؤسسين لهذا السوق، فإنه كان سوق المدينة قبل أن يتحول إلى معلم سياحي. ولذلك فقد تكون الأسعار مرتفعة شيئًا ما. ويباع في السوق اللحم والسمك والمأكولات بأنواعها. وبياعو الفاكهة ابتدعوا طريقة لبيعك الفاكهة المقطعة الموضوعة في علب

بلاستيك. وعندهم بطيخ أحمر، ومتماسك القوام، فتعجبت: لماذا لا يكون البطيخ في بعض البلاد إلّا أحمرًا ومسكين الشاعر الذي ابتلي بالبطيخ الأبيض دائمًا حتى قال: حظي أحمر في كل شيء ما عدا البطيخ أبيض، وكنت أقول: لو اجتمع أهل المدينة ليبحثوا عن بطيخة بيضاء لكانت من نصيبي، ولا أحب أن أشتري البطيخ على السكين فمتى كانت سكين البيّاع نظيفة، وقد قلت ذلك لأحد الباعين وخفت منه ومن سكينه وتراجعت قبل أن يهم بغسل السكين، لأنه يستخدمها وتبقى مكشوفة ومعرضة للغبار والجراثيم. لماذا يكون بطيخهم أحمر وفي بطيخنا الأبيض والوردي؟ هل تربتهم أحسن من تربتنا، هل زرّاعهم أحسن من زرّاعنا، هل يتعاملون مع البطيخ بهدوء في نقله ولا يرمونه رميًا كما شاهدت في بعض أسواقنا؟ يباع البطيخ عندنا بالكوم بعشرة ريالات ليكسب صاحب البطيخ الكثير إلّا إن ازدادت الحرارة فيخسر البطيخ وما دفع.

الكتب يوم الأحد وأشرطة الفيديو وألعاب الأطفال، وكل في سوقه...

كان مالكوم إكس قد كتب في مذكراته أنه زار أخته في مدينة أخرى، فسألته: هل رأيت المدينة؟ قال: نعم، جئت إلى هنا بالحافلة فرأيت بعض المدينة، فقالت له: إنك لم تر المدينة إن لم تمش فيها على قدميك. وأضيف من واقع خبرتي المتواضعة في السفر إنك لا ترى المدينة حقيقة ما لم تدخل أحدَ بيوتها، فزيارة أهل البلدة يطلعك على مزاج الناس وأذواقهم وطبائعهم في بيوتهم ونظام تلك البيوت. ولكن في زمننا الحاضر أنّى لك من يدعوك لزيارته في بيته. ولكن لا بد أن أذكر الدكتور محمد عبد الواحد العسري من جامعة تطوان، بالمغرب حيث تعرفت عليه في المؤتمر الذي أقامته جامعة تطوان حول الاستشراق عام ١٤١٧هـ (١٩٩٧م) حتى كان يوم الجمعة فدعاني إلى منزله لتناول طعام الغداء. وكان حقًّا رائعًا ولو نسيت كل شيء في تطوان (ولا تنسى تطوان) فلن أنسى ضيافة الدكتور العسري وإنما هو يسر ويُسر ويُسرُ.

والأخ الثاني الذي جعلني أعرف المغرب وأهله أنني زرت مدينة فاس فدعاني الدكتور حميد لحمر (الإدريسي) إلى طعام الغداء، وكانت الوجبة طاجن البرقوق مع اللحم، فتعجبت: كيف يطبخ اللحم مع البرقوق، ولكنه كان حقًا لذيذًا حتى إني أحضرت برقوقًا من إسبانيا لتطبخه خديجة، ففاجأتني بقولها: إن البرقوق الإسباني حباته أكبر ولكن البرقوق البلدي (وتنطق البِلْدي) ألذ. واستمتعت بتلك الوجبة، وأحضر الإناء والإبريق لأغسل يدي بعد الطعام، فذكرني بها كنّا نفعله مع الضيوف في المدينة المنورة حينها كنّا صغارًا ولا ينقطع الضيفان عن بيتنا حتى إن أبي علمني أبياتًا عن إكرام الضيف هي:

أداعب ضيفي قبل إنزال رحله ويخصب عندي والمكان جديب.

ويقول شاعر آخر:

وما الجودُ للأضيافِ أن يَكْثُرَ القرى ولكنها وجه الكريم خصيب،

وشاعر آخر يقول

وإني لعبدُ الضيفِ ما دام ثاويًا وما فيّ إلّا تلك من شيم العبد.

وقال المقنّع الكندي:

وإني لعبد الضيف مادام نازلًا وما شيمة لي غيرها تشبه العبدا

وأما أمي - رحمها الله- فكانت تكتفي بالمثل الشعبي (لا قيني ولا تغديني).

وأجمل من هذا وأبلغ قول الرسول صلى الله عليه وسلم:(**والله لا يؤمن والله لا يؤمن والله لا يؤمن من لم يعط ضيفه جائزته**) وفي حديث آخر (**من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه**) وكان أبي يردد (**يخرج الضيف بذنوب أهل البيت**) وكنت أتعجب كيف يكون ذلك هل يتحملها؟ فعرفت أن الله -عز وجل- يغفر لأهل البيت بإكرامهم للضيف.

وعند بادية الأردن مقولة شهيرة: (الضيف إذا أقبل، أمير، وإن حل أسير، وإن لفى شاعر).

برشلونة في يوم الأحد:

كان يوم الأحد خرجت وإذ بالشوارع خالية فدلفت إلى أحد المقاهي لأشرب قهوة الصباح، ولعلي أكتب بعض مذكرات اليوم الماضي، والنادلون في الصباح يتمتعون بطيبة خاصة وبخاصة حين يكون الزبائن قليلين، فإن دخلت على أحدهم هش وبش لأنه يجعل حضوره في يوم العطلة مكسبًا لمحله. وبعد القهوة انطلقت أسير في شوارع المدينة الخالية فما أجمل أن تكون المدينة لك وحدك أو لقلة من الناس نفضوا عن أنفسهم الكسل ولم يكونوا من المشاركين في السهر الحرام في غالبه. فترى الأشياء كما هي لا يشغلك المارة وحركتهم.

وأول ملاحظة لي أن يوم الأحد يوم عطلة حقيقي أي تقف الأعمال في برشلونة تمامًا. وكتبت أقول كم تخسر برشلونة بعطلة الأحد، ولكني عدت لأكتب: وكم تكسب برشلونة بعطلة الأحد. ليس في الأمر لغز، فخسارة برشلونة وغيرها من مدن العالم التي تعطل تمامًا يوم الأحد أنها تفقد الملايين التي يمكن أن ينفقها الزبائن في البيع والشراء. ولكنهم يكسبون حقيقة باحترامهم الإنسان وإعطائه فرصة لينال قسطًا من الراحة وليكون بين أهله وأبنائه وذويه. إن أنظمة العمل في العالم كله اهتمت بالعامل ففرضت منظمة العمل الدولية أن لا تزيد ساعات العمل على ثماني ساعات وأن يكون للعامل عطلة أسبوعية. فلماذا تصر بعض الشركات وأصحاب الأعمال في عالمنا العربي على انتهاك حقوق الإنسان، ولا أزال أذكر الشاب الذي كان يعمل في متجر للمواد الغذائية بالمدينة المنورة وكان أديبًا وشاعرًا واضطرته ظروف حياته أن يعمل بائعًا فأمرهم صاحب المتجر أن يحضروا يوم الجمعة دون أن يكون لهم أي مقابل. وكنت أرى المتجر ويبيعون بعشرات الألوف يوميًا ثم لا يكون للعمال إلّا الأجر التافه وفوق ذلك

يضطرون إلى العمل ساعات تزيد على العشر ساعات يوميًّا دون أجر إضافي.

وقد قرأت ساعات العمل على متجر في الرياض فإذا هي: من التاسعة صباحًا حتى الثانية بعد الظهر ثم العودة من الرابعة عصرًا حتى الحادية عشرة ليلًا، فلماذا هذه الساعات الطويلة؟ ألا يحق للعامل المسكين إن كان عنده أهل أن يعود إلى أهله أو إن كان صاحب هواية أن يمارس هوايته أو ينال شيئًا من الراحة. أتعجب أن يقضي بعض الأعاجم في بلادنا سنوات كثيرة ولا يتعلمون من اللغة العربية إلّا أقل القليل فلو كانت ساعات العمل محددة وفتحنا لهم المعاهد لتعليم اللغة العربية لكسبوا، وكسبنا جميعًا.

وسرت، لا ألوي على شيء في شوارع برشلونة، حتى وصلت إلى سوق قديم مغلق ولكن على أسواره اجتمع مئات من الباعة يبيعون الكتب والألعاب وأشرطة الفيديو والأحجار الكريمة والقطع النقدية والملابس وغيرها. وقد جاء هؤلاء ببضائعهم بصناديق ضخمة مجهزة لحمل الكتب في رفوف منظمة وتلك الصناديق لها عجلات يسهل جرها باليد أو ربطها بالسيارة أو حملها في السيارات. ويعمل هؤلاء من التاسعة صباحًا حتى الثانية بعد الظهر. وهذه الأسواق المؤقتة من مزايا بعض المدن الأوروبية ففي أكسفورد لديهم سوق الخضار والفاكهة الأسبوعي يبدأ من الصباح بعد الشروق بقليل وبعضهم يصل قبل الشروق وينتهي في الساعة الثانية بعد الظهر، وإن جئت إليهم قبل مغادرتهم تستطيع أن تشتري بأرخص الأثمان لأنهم لا يريدون أن يرجعوا ببضائعهم، بالإضافة إلى أنهم ربما حققوا ما أرادوا من مكاسب.

واسم هذا السوق هو: سينت أنتوني وهو في الأصل سوق للطعام والغذاء ولكنه يقفل أبوابه يوم الأحد ليفتح سوق الكتب القديمة والمجلات والملابس والأشرطة حول سوره الخارجي حيث تقفل أبوابُ

السوق في ذلك اليوم ويصبح سوقًا آخر من الصباح حتى الثالثة عصرًا.
ومن ملاحظاتي في مثل هذه الأسواق أنها تجمع جميع الأعمار وإن كنت أرى بعض كبار السن ربما ممن تقاعد وأراد أن يشغل نفسه -بعد أن استغنى عنه عمله- بشيء يتسلى به ويمضي به وقته. وقد يشترك أحيانًا كثيرة الزوج والزوجة وقد يكونان من كبار السن، وأحيانًا يكونون شبابًا. ففي أكسفورد رأيت شابًا وشابة يعرضان الملابس كل يوم خميس أو جمعة في سوق أسبوعي ومعهما شاحنتهما فيما يبدو.

أخذتُ جولة في هذا السوق فلم أخرج بشيء سوى بدفترين غير مسطرين ليستخدمهما هاشم وفاطمة في الرسم والخربشة، والدفتر ثمنه يورو واحد بينما يمكن أن يكون سعره أكثر من ذلك بكثير في المتاجر العادية. أما الكتب فبعضها جديد وكثير منها من المستعمل. وأتعجب من كثرة الكتب في هذا العالم الغربي ولكن عندما نقرأ تقارير الأمم المتحدة نجد أنهم ينتجون ويترجمون أضعافَ أضعافِ ما نقوم به نحن في بلادنا.

فَإِنَّ قَنَاتَنا يَا عَمْرُو أَعْيَتْ عَلى الأَعْدَاءِ قَبْلَكَ أَنْ تَلِيْنَا

وكأننا اليوم أصبحنا وأصبحت بناتنا وأمهاتنا خدمًا عند من يسوى ومن لا يسوى.

وهنا سكت مازن عن الكلام المباح.

تعليقات بعض قراء هذه الذكريات في عدد من المنتديات:

- رسالة قارئ: السفر قطعة من العذاب..والعذابات تختلف..جميل ما خطته يداك يا دكتورنا وفي انتظار القادم..

- وكتب أحدهم: وصلتني يا دكتور رسالة بريدية من مركز مداد عن هذا المؤتمر وذكروا بمشاركة د. مازن مطبقاني وهو السعودي الوحيد الذي يشارك فيه، قلت: أسعد الله الدكتور ووفّقه، وأضاف السائل:طيب أنت ما رأيك دكتور: مَنْ خلف هذه المنظمة؟

استشراقيون - تنصيريون - صهاينة - ماسونية، ماذا تحديدًا؟

فكان ردي كما يأتي:

تبين لي أنّي لم أكن الوحيد من المملكة، فقد رأيت الدكتور إبراهيم الجار الله ولا أدري هل كانت له ورقة أم جاء سائحًا متفرجًا؟ كما شارك عدد من طلاب الدراسات العليا السعوديين الذين يدرسون في بريطانيا في جلسة حول الأدب العربي، وشاركت الدكتورة هتون الفاسي حول المرأة، وشارك مدير جامعة الإمام -دون أن يحضر-بورقة حول التسامح في الإسلام- وليس في جامعة الإمام- قرأ ملخصها نيابة عنه وقرأها أحد المشاركين وليس الشخص الذي بعثه مدير الجامعة.

أما مَنْ يقف خلف هذه التجمعات فهم متعددون : منصِّرون، يهود، ومستشرقون واستخبارات واستعماريون وغير ذلك وكثير من الجهال العرب والمسلمين، ولكنهم لا يلامون، فأين نحن وأين تنظيمنا للجلسات والندوات والحلقات؟ الفرصة مفتوحة ولكن أين الجهات الرسمية من مثل هذه الندوات؟

- وكتب آخر عن لقائي بالدكتور محمد سيد سليم في الطائرة وسؤالي عن ورقته وتمنعه أو إهماله أن يخبرني فقال السائل: لقد توقعت أن تنتهي القصة بأن يخبرك الدكتور بورقته (أي بعد خروجه من أجواء مصر) في

تعليق على قصة تساؤلاتي مع أحد أقطاب المنظمة دون أن أذكر ذلك.

وكان ردي عليه: لقد اكتشفت في التقرير الصحفي أن الدكتور من البارزين -في نظر المنظمين- ولذلك عرفوا به وبورقته وهي داخلة في التحليلات التي يريدون أن يعرفوها فقد قدم ورقة عن تركيا ووصول حزب العدالة والتنمية إلى السلطة وتغير سياستهم (في نظره) تجاه إسرائيل وعلاقاتهم بالعالم العربي، ألا يهمهم كيف تحولت تركيا أو كيف هي سياسة تركيا الخارجية. اكتشفت أننا يجب أن نكون مخبرين عندهم ومحللين لأوضاعنا ليضعوا الخطط كيف ينقضون علينا. وعلمت أن ابنه يدرس في كندا ربما على حساب جامعة من الجامعات، وهو يعمل في الكويت ومثل غيره يأكل من خيرنا ويذمنا فنحن لسنا أهلًا لأن نكون في المقدمة.ويزعم أننا لا نفكر كثيرًا ولسنا مستعدين للعمل الشاق وذلك حينما كنت أحدثه عن الدراسات الغربية في دول الجزيرة العربية -وليس الخليج- لماذا لم يشجع أحد طلابه الكويتيين على الحضور والمشاركة؟

- رسالة أخرى:

السلامُ عليكمُ ورحمةُ الله وبركاتُه، وفقكم الله فضيلة الدكتور لكل خير، وحفظكم من كل مكروهَ أنتم والأهل، وكتب الله القبول لورقتكم إن شاء الله. في انتظار اللطائف والطرائف الجديدة، وأسأل الله تعالى بمنه وفضله أن يصلح شأن المسلمين، وأن يردّنا ردا جميلًا إلى الدين. وفق الله الجميع لما يحب ويرضى، ضع كل ما بجعبتك لإمتاعنا د. مازن، أختر لمواضيعك أجواءً تناسب هذه السياحة الممتعة، بارك الله في وقتك وعملك ونفع بك وأقر عينك بما تطمح إليه.

وصف جميل لحال شبابنا ونسائنا، والله المستعان.

شكرًا يا دكتور..

يا دكتور، الأجيال تتغير، وما هذا إلا بسبب الانفتاح على العالم بعد

الانغلاق الذي كانت تعيشه السعودية، وإني أراها لا تزال تعيش انغلاقا في التفكير والسطحية والاهتمام بالمظاهر وما رأيته في المطار يُعَدُّ جزءًا من هذا، فالانفتاح يقتصر على الانترنت ووسائل الإعلام وسهولة التواصل مع العالم؛ أي في الماديات، ونحتاج لانفتاح في العقول ووعي؛ لمعرفة كيفية التعامل مع هذه الماديات.

وكتبت تعليقًا على كل هذه الرسائل: والله لهذه أكبر الجوائز هذه الكلمات المباركة منكم ودعواتكم الصادقة ومعظمكم لا يعرفني إلّا من خلال كلماتي، فاستمروا في الدعاء حتى تستمر سلسلة الرحلات، فأرجو الله أن يكون الكتاب الرابع قريبًا: رحلاتي إلى إيطاليا وألمانيا والسويد وهولندا ثم كتاب خامس حول رحلاتي إلى البلاد العربية وفيها من الطرائف والمواقف والعقبات والنكات الكثير، فالدعاء الدعاء وبما أنها إلى بلاد الأندلس الرطيب فلها من الجمال أوفر الحظ والنصيب.

أما الرابطة الدولية لدراسات الشرق الأوسط فلا أخفيكم أنني بحثت (في قوقل بالطبع) عن موقعهم وقرأت عن أهدافهم التي تتلخص في تبصير العالم بالشرق الأوسط من خلال الكثير من الأنشطة، وقد أعجبتني كثيرا محاور المؤتمر.

وبخصوص التعليم فلعل ذلك يعود إلى المدرسين وعدم اهتمام بعضهم بالمخرجات التعليمية.

- دكتور، لدي سؤال: مِنْ خبرتكم هل تعتقد أن هناك فوائد عملية تتحقق من حضور المؤتمرات؟ وما هي؟ وهل ترون تطبيقًا لبعض التوصيات التي تطرح؟ مع الشكر الجزيل على طرحكم المفيد.
- رسالة أخرى:

الأخ مازن مطبقاني، بارك الله فيك على هذا السرد الجميل والممتع لمختلف تفاصيل وأحداث هذا المؤتمر بمواضع مهمة، سأعود بإذن الله

بإعطاء بعض الخطوط العريضة حول بعض مواضع المؤتمر ولكن من زاوية المصالح الإستراتيجية العليا للمسلمين -حسب التقسيم الجغرافي- المسلمين في الغرب من ناحية والمسلمين في الدول الإسلامية وعلاقتهم مع غير المسلمين في الغرب خصوصًا، وكيف يمكننا الخروج من هذا المأزق التاريخي الذي عرقل المسيرة التنموية العلمية والتكنولوجيا للدول الإسلامية؟ سببه انعدام جسر الانتقال المعرفي والتكنولوجي من الغرب إلى الدول الإسلامية.

ولكن قبل ذلك لكي ألتزم بمحتوى ما تكرمت به حول تفاصيل المؤتمر لدي بارك الله فيك بعض الاستفسارات وبعض الملاحظات أتمنّى، أخي، أن تأخذها بصدر رحب:

- حول لغة الكلمة الافتتاحية للمؤتمر: في الحقيقة استغربت عندما قرأت أن الكلمة افتتاحية للمؤتمر التي ألقاها نائب رئيس حكومة كاتلونيا جوسف لويس كارود روفيرا كانت باللغة الاسبانية وليس باللغة الكاتلونية وهي اللغة الرسمية لكاتلونيا؛ لأن كاتلونيا - حكومة وشعبا- كما عرفتهم عن قرب لهم تشبث قوي بلغتهم الرسمية والدستور الكتالوني يعد كاتلونيا أمة قائمة بذاتها ومن النوادر أن نجد مسؤول كتالوني يقبل التحدث باللغة الاسبانية وترك اللغة الكاتلونية.

- حول تأنيث اللقب الأكاديمي «دكتور» أي «دكتورة»: فليس الاسبانية أو الكاتلونية وحدهما ينفردان بتأنيث هذا اللقب، بل أيضا في اللغة الألمانية لديها تميز لغوي لكلمة «الدكتور» ويكتب هذا بموجب القانون على الشهادة الجامعية لهذه الدرجة الأكاديمية ويقال :

دكتورين (أي صفة التأنيث: دكتورة)

ويكتب باللغة الألمانية : doktorin

كتابة ممتعة رسمت في مخيلتي مشاهد حية لما ذكرته من مبانٍ قديمة،

وساحات، وأرصفة، مرورًا بالحافلة وآلة التذاكر..بل ورأيت كيف ينهرك صاحب المطعم المجاور لجلوسك ، الجميل أن تُطعم هذا السرد الجميل بالدعوة من خلال انتقادك . لما تراه حولك. إنّا هنا لمزيد من المتابعة.. دامت حلقاتك ،، ودمت في أطيب حال .

متفرقات من رحلة برشلونة (١)

وفيها أنا (أخربش) في أثناء رحلتي الإسبانية (البرشلونية) تجمع لدي عدد من الملاحظات التي لم أجد لها مكانًا ضمن المقالات السابقة ولذلك أقدمها هنا تحت عنوان متفرقات. وفكرة المتفرقات جاءت من أيام عملي في الخطوط السعودية أنه قد تجتمع عدة معاملات لا تدخل تحت تصنيف معين فتوضع في المتفرقات، وهناك من يطلق عليها أيضًا في باب الميزانية «نثريات» وهي كما يأتي:

الأساتذة العرب في الجامعات الغربية:

يفرح بعض العربان أنهم يعملون في الجامعات الغربية ويتقاضون رواتب لا يمكن مقارنتها بالفقر المدقع لأساتذة جامعاتنا (حتى مع مكافأة الجلسات التي تضاعفت حتى أصبح للأقسام جلسة كل أسبوع، بعد أن كانت شهرية، والسؤال: على من يضحكون؟) أو غيرها من المكافآت التي لا تسمن ولا تغني من جوع. يفرح العربان بأنهم يدرّسون أبناء الغربيين، ولكن الغرب أذكى منهم حيث يشجعهم ويحثهم على بحث موضوعات لا يقدر أن يقوم بها الأجانب. وقد اطلعت في المؤتمرات المختلفة التي حضرتها على نماذج عجيبة من البحوث، وبعض هذه البحوث لا يفكر فيها حتى إبليس نفسه، ولا أريد أن أضرب أمثلة حتى لا أكشف أحدًا بعينه. وقد كاشفهم إدوارد سعيد حين قال لهم: لا تفرحوا أنكم تدرسون أبناء الغربيين فإنما أنتم مخبرون صغار عند الغرب.

إبداعات مدير جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية:

تصفحت دليل المشاركين في المؤتمر لأتعرف من جاء من السعودية، وأول طريقة أن أبدأ من (أل) التعريف، فوجدت اسم سليمان بن عبد الله أبا الخيل، فتعجبت ومتى كان مدير الجامعة يحضر مثل هذه المؤتمرات ولغتها الأساسية الإنجليزية والفرنسية، وهو لا يتقن أيًّا منهما، فقلت في

نفسي لعله تشابه أسماء. وفي اليوم الأخير كان من المقرر أن أحضر ـ ندوة حول العلاقات بين الإسلاميين واليساريين يشارك فيها عزام التميمي فرغبت في حضورها ولكنني وجدت أنها قد ألغيت، فعزمت على حضور جلسة أخرى فإذ بالجلسة التي يشارك فيها سليمان أبا الخيل، فدلفت إلى القاعة وفوجئت أن الحضور لا يتجاوز عددهم أصابع اليد الواحدة بالإضافة إلى المشاركين. وانتظرت أن أرى سليمان بن عبد الله أبا الخيل، فما رأيته وإنما رأيت شيخًا ذا لحية سوداء كثة (ولحية الشيخ فيها بياض، ولم تعد كثّة) فتحدث المشارك الأول حول موقف الأديان من أتباع الأديان الأخرى في قضية الخلاص ودخول الجنة والقبول عند الله، سبحانه وتعالى. وكان صاحب اللحية الكثة يكتب في أثناء إلقاء الورقة الأولى مما يدل على أنه يعرف اللغة الإنجليزية. وما أن انتهى حتى أعلن رئيس الجلسة أن المتحدث الثاني هو مدير جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية الأستاذ الدكتور سليمان بن عبد الله أبا الخيل الأستاذ في الفقه المقارن، وإنّه سوف يقرأ عليكم ملخص الورقة حول «التسامح في الإسلام» وأعطى رئيس الجلسة الورقة للمتحدث الأول ليقرأها. فتعجبت لماذا لم يقرأها الشخص الذي حملها من الرياض؟ ولماذا يرسل مدير الجامعة ورقة عن التسامح في الإسلام، وليس في جامعة الإمام. فخرجت مهرولًا.

وهنا تمنيت لو استشارني معالي المدير لأشرت عليه بما هو أجدى من ورقة تقرأ في جلسة لا يحضرها إلّا القليل ولا تحقق العائد الإعلامي المطلوب. لو أن معاليه اختار عددًا من الأساتذة من جامعته، أو من جامعته وجامعات أخرى ليشاركوا في جلسات مخصصة ويعلن أنها من تنظيمه، لكان أجدى. أو لو أنه قدم دعمًا ماليًا للمؤتمر يوازي تكاليف إرسال شخص يحمل ورقته (كان بالإمكان إرسالها بالبريد الإلكتروني، ومعذرة إن كان هذا يحرم شخصًا من زيارة برشلونة والحصول على الانتداب) لقدمت ورقته في جلسة من الجلسات المهمة، ولو أنه طلب من شخص أن يقرأ

الورقة في رسالة صوتية أو شريط فيديو لكانت الدعاية أوقع. لقد فعلوا هذا الشيء في شريط أرسله المفوض السامي لتحالف الحضارات رئيس البرتغال السابق سمبايو وبثت في واحدة من أهم الجلسات التي احتشدت بهم إحدى أكبر القاعات حتى كان الجالسون على الأرض أكثر من أربعين شخصًا. وهنا تذكرت المثل العربي القديم

أوردها سعد وهو مشتمل ما هكذا يا سعد تورد الإبل

فهل يتنبه معاليه في مؤتمر قادم وليته يجعلني له مستشارًا في مثل هذه القضايا وربما رفضت.

التوقف عن حضور هذه المؤتمرات والمشاركة فيها:

تعاودني وتراودني فكرة التوقف عن حضور هذه المؤتمرات التي تبحث في كل شيء في حياتنا وتجعلنا كأننا حيوانات المعمل عند القوم، ولا تزال تعشعش في أذهانهم فكرة أننا متخلفون ولا نفهم ويقوم عليها في الغرب قوم من الأوروبيين الاستعماريين ذوو عقول الهيمنة والسيطرة والاستعلاء، ويشاركهم تلاميذ لهم أوفياء وتابعون ومحبون حتى يمكن القول «أذناب» يخرج من المؤتمر بضع ورقات قوية بذل فيها جهد حقيقي. فهل هذه المؤتمرات كما قال طالب الدكتوراه المغربي في جامعة لايدن الهولندية، تجارة أي تحقق مكاسب مادية ومصالح لعدد من القائمين عليها. ولا أعتقد أنهم ينفقون كل ذلك الوقت دون أن يكون لهم مكافأة مجزية تمكن أحدهم من شراء سيارة (مرسيدس أو بي إم دبليو) جديدة، كما يحدث في بعض مؤتمراتنا المترفة.

الشنب في إسبانيا: تنازل الأوروبيون والغربيون عمومًا عن الشنب أو الشارب ولحقتهم شعوب الأرض، من الصين حتى أمريكا الشمالية والجنوبية ولحقناهم نحن العرب والمسلمون. ولكن الشنب أو الشارب لا يزال موجودًا في إسبانيا وإن كان قليلًا، فلماذا يحتفظ البعض بالشارب؟ هل

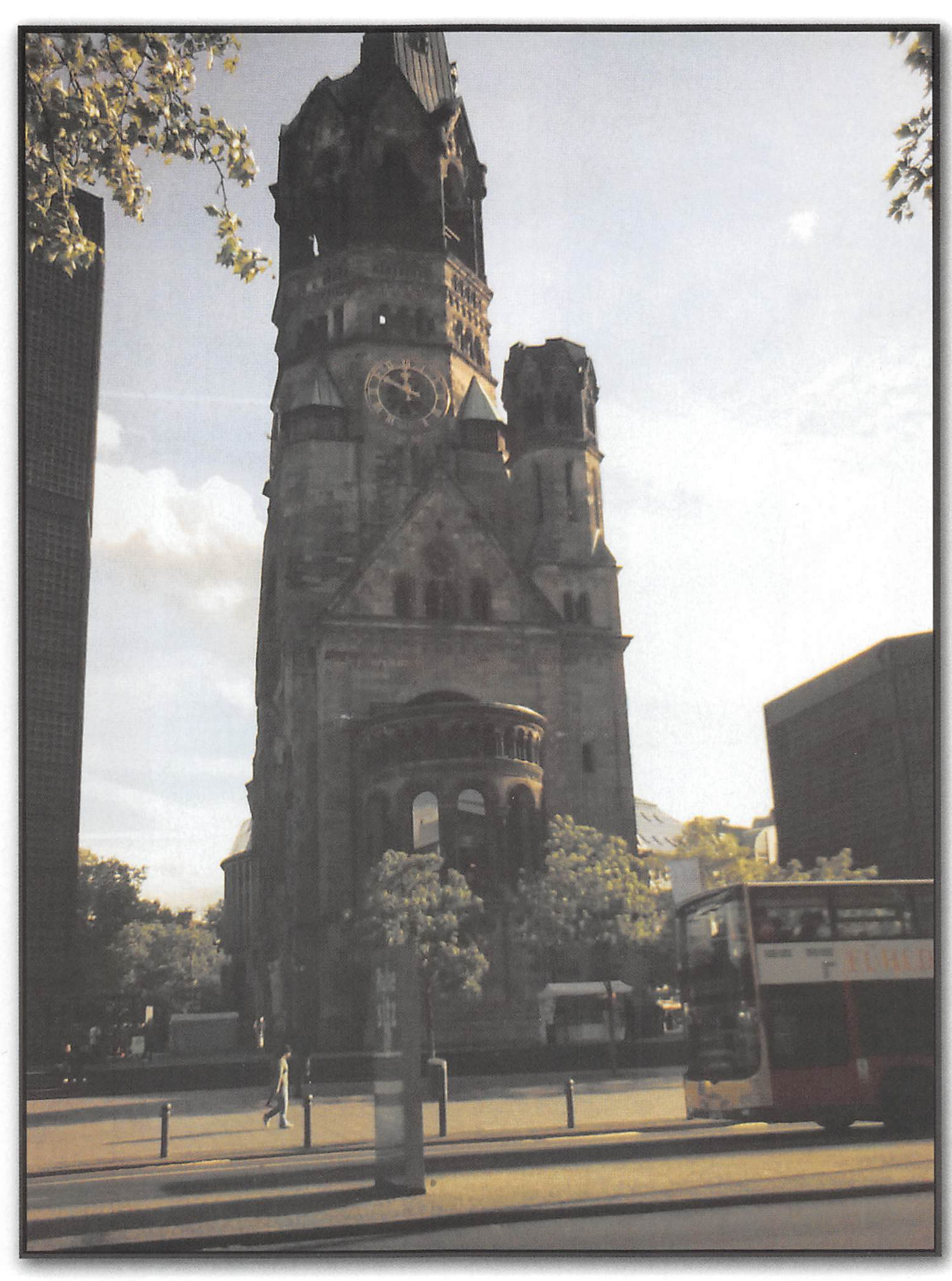
يعتقدون أنه من مظاهر الرجولة؟ هل هو أنسب لوجه حامله؟ هل هو إرضاء للحبيبة أو الزوجة؟ ويقال الأمر نفسه عن اللحى المحدودة الموجودة عندهم.

آلات الفليبرز في المقاهي الإسبانية:

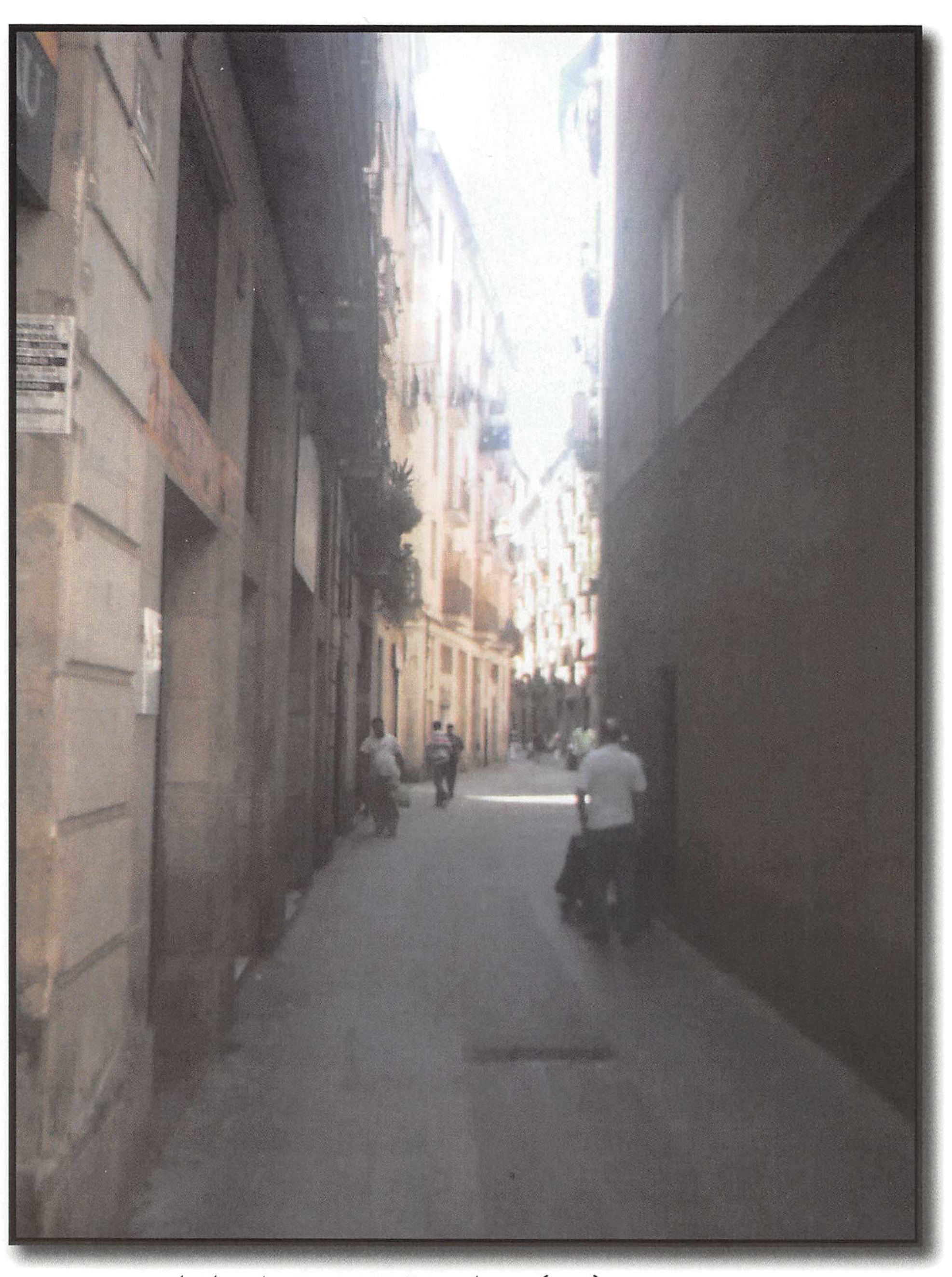
كدت اعتقد أنّ الشعب الإسباني بريء من إدمان الفليبرز لأني رأيت عددًا قليلًا منها هنا وهناك، ولكن عندما أمعنت النظر وجدتها ذات رواج لا بأس به حتى إني وجدت صالتين ضخمتين تحتشدان بتلك الآلات التي تتضمن ألعاب الحروب وألعاب سباقات السيارات والدراجات، والحقيقة لم أستقص تلك الألعاب. وكنت أعتقد أن تلك الألعاب تنتشر مع الغنى والترف، ولكني تذكرت أنه حين سمح بها في بلادنا انتشرتِ انتشارَ النار في الهشيم حتى أصبحت مقلقة أمنيًّا أو اجتماعيًّا فاتخذت السلطات قرارًا صارمًا بمنعها، وإني أخاف أن تعود في موجة الفتاوى بالإباحة التي بدأت تغزونا منذ مدة.

إسبانيا والمشاعر الحزينة والسارة:

لإسبانيا في النفس مشاعر حزينة وأخرى سارة، وأما الحزينة فهي أن العرب المسلمين مكثوا في هذه الديار وجعلوها قمة العالم ثمانية قرون، حتى إذا قويت شوكة الإسبان وطردوا المسلمين منها ارتكبوا في حقهم-على الرغم من المعاهدات والأمان- أبشع الجرائم، ولا أزل أذكر من أيام طفولتي قراءة قصة إحدى محاكم التفتيش مع واحد من المسلمين في مجلة «الحديقة» لمحب الدين الخطيب - رحمه الله- التي تسببت لي بعدد من الكوابيس مدة طويلة. ولم يكتفِ النصارى بوحشيتهم مع البشر حتى مارسوها مع تراث المسلمين فكم حرقوا ودمروا من تراث المسلمين وآثارهم الفكرية والعلمية.



صورة رقم (١١) : الفن القوطي برشلونة



صورة رقم (١٢) : شارع في برشلونة- اسبانيا

أما المشاعر السارة فإن من الإسبان من يحمل الدماء العربية، فلا بد أن تكون فيه بعض الصفات والخصائص التي تجمعنا بهم. كما أنه مما يسر أن بعضهم بدأ يدرك عظمة الحضارة الإسلامية ويدافع عنها، حتى إن متحفًا ضخمًا أقيم في إسبانيا للآلات والأدوات التي كان يستخدمها المسلمون في العلوم. كما أن عودةً إلى الإسلام قد بدأت ولعلها تزداد بجهود الدعاة من أبناء الجاليات المسلمة ومن الإسبان أنفسهم.

الرحلة الإسبانية، متفرقات (٢)

عندما خرجت من الفندق يوم السبت ٢٥ يوليو ٢٠١٠ م مشيت كثيرًا دون انقطاع، إلّا لتناول فنجان من القهوة أو كأس من الشاي أو تناول الطعام وإلّا فقد تحركت بلا توقف. وكما قلت لكم في السابق: كن فضوليًا، أشبع حب الاستطلاع، لا تتوقف عن الحركة نحو أي منظر غريب. صحيح أنك غريب وقد تكون وحدك فلا بد أن تنتبه إلى عدم الابتعاد عن الأماكن العامة، فالإجرام في كل أنحاء الدنيا وفي المدن السياحية أكثر. وقد أعد صاحب إحدى المدونات تعليمات الأمن والسلامة في برشلونة.

وكانت خطتي أن أسير في الشارع الرئيس وأن أدخل الشوارع الفرعية لأتعرف إلى أوضاع تلك الشوارع الفرعية وهل تنال العناية نفسها التي تنالها الشوارع الرئيسة، هل تتجمع فيها القاذورات؟ وهل الشوارع مليئة بالحفر والمطبات أو هي سليمة تشبه الشوارع الرئيسية. والحقيقة وجدت الشوارع الفرعية في قمة العناية والاهتمام، بل ربما كان هناك بعض التقصير والإهمال في الشوارع الرئيسية بحكم اختلاف ثقافات السياح وربما وجد الخمر والسكر عند بعض السائحين. وكنت إذا دخلت الشارع الفرعي حاولت أن أتذكر كيف أعود إلى الشارع الرئيسي فأفقد البوصلة فلا أعرف كيف أعود، بل أحيانًا أعرف الاتجاه وأدخل متجرًا ما، وإذا خرجت منه يكون عليّ الاتجاه إلى اليمين فأتجه إلى اليسار فأعود من حيث أتيت فأضيع الطريق إلى الشارع الرئيسي لو تنازلت عن عنادي قليلًا، فأسير في طريق جديد وأضيع وأحيانًا أسير مسافات طويلة بعيدًا عن الطريق الرئيسي الذي جئت منه حتى أصبح في مناطق شبه مهجورة. وأتذكر أن ثلاثة لا يخافون: الطفل الصغير، والملك، والمجنون، ولست الأول ولا الثاني، فهل أكون الثالث؟ وأتعجب من بعد المسافة التي قطعتها تائهًا، فكأني ورقة شجرة عصفت بها الريح فألقتْها بعيدًا عن الشجرة التي سقطت منها.

المتسولون في برشلونة:

لا تكاد تخلو مدينة في العالم من متسوليها ومن المشردين، ويكثرون أو يقلون وفقًا لجهود مجلس المدينة أو سلطاتها. وقد رأيت في برشلونة عددًا من المتسولين من مختلف الأعمار والهيئات، وكان بينهم بعض العجائز من النساء. وقد يلحق بك أحد المتسولين ويقول شيئًا لا تفهمه بالطبع، فلا ترد عليه فيذهب وشأنه، ولم أرَ متسولًا مزعجًا كما رأيت في مدينة سيول أو كما رأيت المتسكعين والسكارى في مدينة إكستر ببريطانيا أو في أكسفورد المدينة الليبرالية الثرية كما يطلق عليها بعض سكانها.

حنفيات للشرب والغسيل:

ما أكثر الساحات في مدينة برشلونة! هل كان مَنْ خطط برشلونة ذكيًّا ألمعيًا عبقريًّا؟ حتى إن كانت البنايات متلاصقة وليست شاهقة، فلم ألاحظ تطاولًا في البنيان. حتى إن لم يكن لك شرفة على الشارع فلا تكاد تخرج من بيتك مسافة أمتار حتى تجد ساحة تجد فيها مقهى أو مطعمًا أو حديقة لتطلق رجليك وتجد متنفسًا حقيقيًا. وستجد في هذه الساحات حنفيات لتغسل وجهك من حرارة الشمس ورطوبة الجو وتشرب ماءً قراحًا زلالًا تستغني به عن المياه المقَوْرَرَة أو المعبّأة في قوارير، وتلك من فضائح الرأسمالية أن أقنعوا الناس بالشرب من القوارير مع أن المياه العامة الواصلة إلى البيوت نقية وصالحة للشرب، وتُعدُّ مياه الحنفيات الصالحة للشرب من علامات الرقي– في نظري-. وقد وجدت المغاربة يشربون من الحنفية مع توفر المياه المعدنية الطبيعية بأسعار معقولة إن ابتعدت عن المطاعم والمقاهي والأماكن السياحية. ففي برشلونة اشتريت مياهًا معدنية سعة لتر ونصف بأقل من يورو واحد أي لم تصل خمسة ريالات مع أنها تباع في المطاعم والمقاهي بأكثر من ٢.٥ يورو.

تجول في برشلونة على دراجة:

انتبه الأوروبيون منذ مدة إلى أهمية العودة إلى الدراجة وجعلوا لها مسارات خاصة في الشوارع تلتزم بأنظمة المرور العادية ولا يضايقهم أحد في مساراتهم، حتى المشاة يعرفون أن مسار الدراجة لا يجوز التعدي عليه. ولا يلزمك أن تمتلك دراجة؛ فهناك شركة كبرى - وربما وجدت شركات أصغر- توفر عددًا كبيرًا من الدراجات في أماكن مختلفة من أنحاء المدينة، فتستأجر الدراجة في مكان وتعيدها إلى مكان آخر. ورأيت سيارات النقل تنقل العشرات منها من مكان إلى آخر.

شوارع بأسماء أساتذة:

لفت انتباهي وجود أكثر من شارعين في منطقة وسط المدينة تحمل أسماء أشخاص يحملون لقب دكتور وأحد هؤلاء الدكتور فليمنج، فهل هو الذي اخترع البنسلين؟ ولكن وجدت دكتورًا آخر يحمل اسمَه أحدُ الشوارع الرئيسة؟ فهل هذا من تقديرهم للعلماء؟ كم تمنيت أن تحمل شوارعنا أسماء بعض العلماء البارزين من الأمة الإسلامية قديمًا وحديثًا، وكذلك الجامعات، فأين جامعة الإمام أبي حنيفة النعمان، أو جامعة الإمام أحمد بن حنبل أو جامعة الشافعي؟ أو شارع الإمام البخاري- رحمه الله- أو شارع الإمام كذا وكذا، وحبذا لو عدنا إلى الشوارع الكبرى في مدينة الرياض وغيرها التي تحمل أسماء الصحابة فأضفنا إليها (رضي الله عنه) فما أجملها من لفتة فقد فعلتها أمانة المدينة في الشوارع الصغيرة في حي الهجرة وكان الأَولى أن تفعلها في شارع أبي بكر الصديق - رضي الله عنه- وشارع عمر بن الخطاب - رضي الله عنه- . جميل أن نقدر عظماء هذه الأمة وصحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم على وجه الخصوص.

تنبيه : وهذا الكتاب يعد للنشر ، لاحظت أن أمانة الرياض قد أضافت جملة (رضي الله عنه) لكل الشوارع التي تحمل أسماء الصحابة ، تزامنا مع

هجمة إسفاف من بعض أهل الأهواء في النيل من أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها والصحب الكرام .

ماسح أحذية في برشلونة:

وجدت ماسح أحذية عجوزًا إسبانيًا (فيما بدا لي) فتساءلت:هل هو متقاعد فأراد أن يشغل وقته بمسح الأحذية أو قصرت به النفقة ولم تعد دريهمات التقاعد تكفيه فأراد أن يعوض النقص كما فعل بائع الصحف الإنجليزي الذي يقضي معظم نهاره في بيع الصحف وتنظيمها فلم يرد أن يكون عاطلًا عن العمل؟

وداعًا برشلونة وإلى لقاء:

ودعت برشلونة فركبت سيارة أجرة إلى المطار وكان العدّاد: ٢٥ يورو ولكن السائق طلب ٣٤يورو فلماذا الفرق؟ لم أناقش؛ حيث يصاب الغريب أحيانًا بالخوف من السائقين، وهل كان السائق على حق؟ أو هل المسألة جزء من طبع بعض السائقين أن يستغلوا الراكب الأجنبي؟ وكانت رحلتي عن طريق الخطوط المصرية فنزلنا في مطار الأقصر حيث كان بعض السياح يريد مشاهدة الآثار الفرعونية مما جعل الرحلة أطول مما يجب. وفي مطار القاهرة انتقلت من صالة الوصول إلى صالة المغادرة، وكان علينا أن نخضع للتفتيش ولما كان الركاب كثيرون وعدد الجنود قلة فقد كان التفتيش غير كاف، وأتعجب من أنه عندما تحدث حوادث الطيران لا ينظر إلى وضع الموظفين في التفتيش وهل عددهم كافٍ أو لا. وتعجبت من تعدد نقاط التفتيش، حتى إنك عندما تركب الطائرة تجد نقطة تفتيش، وأصبح طلب الإكرامية بطريقة مزعجة، يشعرك الجندي أنه حق له وأنك مخطئ إن لم تدفع، ولا يغرك الكلام المعسول الذي يقوله ولكنه في النهاية يريد إكرامية. ولم أرَ أحدًا يعطي إكرامية، ولكن لماذا استمْرأ الجنود هذا الأسلوب؟ وكنت تساءلت ذات يوم: هل رواتبهم متدنية إلى درجة أن يضطروا إلى مد

أيديهم، كما تفعل عصابات تفتيش الحقائب.

وكان معنا في الطائرة نساء حجازيات ومعهن طفل أو أكثر وكن يتحدثن للطفل باللغة الإنجليزية حتى إن أحداهن أصرت أن تتحدث للمضيف باللغة الإنجليزية وهو مصري ويعرف العربية. فتعجبت من هذه الانهزامية والتخاذل واحتقار الذات.

وداعًا برشلونة التي لم أستمتع بها لأني افتقدت الرفقة التي تعطي الرحلة متعتها ورونقها وجمالها. ووداعًا برشلونة التي علمتني أننا مقصرون في التعامل مع المؤتمرات الدولية، وأننا ننفق أموالنا في أحوال كثيرة في غير موضعها، وأحزنني أن أمورنا يقضي فيها الأجانب حتى يصدق فينا قول الشاعر:

ويقضى الأمر حين تغيب تيم ولا يستشهدون وهم حضور.

رحلتي إلى بولندا

أيام في بولندا (١)

علم أحد أصدقائي أني مسافر إلى بولندا لحضور مؤتمر في جامعة كراكوف، فقال لي: نِعْمَ السفر! فيه فوائد كثيرة. فقلت له: نعم والشاعر يقول: سافر تجد عِوضًا عمن تفارقه وانصب فإن لذيذَ العيشِ في النصَبِ (وليس بسكون الصاد)، وهنا أسرعت إلى لقول صادقًا: وليس أم هاشم مما يمكن أن يكون هناك عوضٌ عنها، فهي نِعْمَ الرفيق في الحضر. وفي السفر، ولكن العوض عن غيرها وما أكثرهم.

وفي كل مؤتمر أتساءل مالي ولعناء السفر وتكاليفه! فأتذكر ما يردده المغنون (أهل الهوى دائمًا وأبدًا مكتوب عليهم قلة الراحة، مثل السفينة بلا ربّان يلعب بها الموج سداحة) والهوى ليس العشق والغرام وحده، بل يمكن أن يكون الهوى غير ذلك وهو عين ما تحدَّث عنه ابن حزم في كتابه الرائع (في السير والأخلاق) حيث تحدث عن أنواع الهموم التي تصيب الناس، والهم ليس معناه التفكير السلبي أو القلق والانزعاج، ولكن الهم هو ما يعتقد الإنسان أنه مهم بالنسبة له أو يهمه أو يهتم به، فأُناسٌ همهم المال والجاه وآخرون همهم الملابس والزينة، وآخرون همُّهم القصور والرِّياش والأثاث، وهمٌّ غيرهم السيارات أو النساء والمتع الحلال أو الحرام. وهناك من همه البحث العلمي أو البحث عن المتاعب في العلم والبحث. وأكد ابن حزم ،رحمه الله، على أن يكون همك رضا الله – سبحانه وتعالى– وطلب الجنة وأنّه ينبغي أن يكون أعلى هم .

لماذا بولندا؟ كانت جامعة كراكوف قد دعت إلى مؤتمر حول الشرق الأوسط قبل عامين وعقدت العزم على حضوره، وقمتُ بإعداد عرض عن المؤتمر لجهة علمية رغبت أن تسهم معي في تكاليف السفر وأقدم لهم تقريرًا عن المؤتمر، فتعثر الأمر، وعرفت الجهة المنظمة رغبتي الحضور (ولم أكن أعددت ورقة للمؤتمر) فعندما خططوا لمؤتمر هذا العام كنت من بين مَنْ

وُجِّهَت إليهم الدعوة وبخاصة عن طريق موقع فيس بوك. وأعددت خطة بحث (لا يستطيعون رفضها) وأستطرد بالقول: إن إعداد خطة بحث مسألة تحتاج إلى معرفة الموضوعات الحساسة وكتابة العرض بطريقة مقنعة تشجع الجهة الداعية على قبول الموضوع. وقُبِل الموضوع ووجدت في مكتبتي عشرات الكتب، كما أن الإنترنت أسعفتني بمصادر لا حصر لها وبخاصة أن الموضوع فيه بعض المحاذير وأمور لا تقال في صحف سيارة أو مجلات عامة.

واقترب موعد السفر فقررت أن أكون عزيز النفس لا ألجأ لأحد سوى الله عز وجل عملًا بقوله تعالى: (وكَأَيِن مِنْ دابّةٍ لا تَحْمِلُ رِزْقَها) الآية، وامتثالًا لنصيحة جدي حامد - رحمه الله- التي سمعتها من والدي - رحمه الله-: «علم وإراقة ماء وجه لا يجتمعان»، ورغبت في أن أعرف عن بعض نشاط الجامعات البولندية في الدراسات العربية والإسلامية أو الشرق أوسطية.

وكانت أول خطوة ترتيب السفر إلى كراكوف، فوجدت أن ثمن التذكرة على الخطوط مناسب، فيمكن أن تنقلني إلى مدينة وارسو العاصمة، وإن كانت وارسو أبعد ثم أعود إلى الجنوب إلى كراكوف.

أولًا: تقدمت إلى السفارة البولندية بطلب تأشيرة مدة أربعة أيام ولسفرة واحدة وقدمت المستندات المطلوبة فجاءتني التأشيرة بعد أسبوع تقريبًا، مدتها ستة أشهر (حتى نهاية عام ٢٠١١م) ومتعددة السفرات وشنقن أيضًا. وكنت عندما ذهبت إلى السفارة قدمت هدية إلى السفير (بإمضاء) كتابي (رحلاتي إلى مشرق الشمس) و(رحلاتي إلى بلاد الإنجليز(وعندما قدمت إلى السفارة الجزائرية بطلب التأشيرة أهديت القنصل والسفير نسخة لكل منهما من كتابي (عبد الحميد بن باديس العالم الربّاني والزعيم السياسي) فحصلت على تأشيرة مجاملة خلال يومين، وكان

المقرر أن أحصل عليها بعد أربعة أيام.

بدأت الرحلة من مطار الرياض فخرجت من البيت الساعة الحادية عشرة مساءً؛ أولًا لأن الأهل سينامون فلا داعي لأن أزعجهم، وثانيًا أنّ مَنْ سيوصلني إلى المطار لا ينبغي أن أزعجه بأن يوصلني الساعة الثانية عشرة حيث تنطلق الرحلة الثانية وعشرين دقيقة قبل الفجر. ووصلت إلى اسطنبول على الساعة السادسة تقريبًا فكان عليّ أن أمضي في المطار حوالي خمس ساعات حتى الحادية عشرة قبل الظهر. وانطلقت الرحلة في موعدها ووصلت إلى وارسو على الواحدة والنصف ظهرًا فكان أول متاعب السفر أن أحصل على تذكرة الحافلة رقم ١٧٥ كما أفادتني كاترزينا المنسقة للمؤتمر من جامعة كراكوف من خلال الفيس بوك. وداعبت آلة التذاكر حتى أفادتني بقيمة التذكرة دون أن أفهم التفاصيل من قطاع (١ أو ٢) أو غير ذلك، المهم أنّها تذكرة والسلام، وفي السفر على الإنسان أن يكون أحيانًا مغامرًا ولا يصر على أن يكون كلّ شي صحيحًا مائة بالمائة، فقد تكون قيمة التذكرة ناقصة أو زائدة، فليست القضية هي أكبر قضية في العالم وإن دفعت أكثر فلا بأس وإن دفعت أقل فأنا ضيفهم وعليهم أن يتحملوا: أن جعلوا الآلة هي المرجع في كل شيء. وركبت (الباص) أو الحافلة إلى محطة القطار الرئيسية في وارسو، وهنا لا بد من البحث عن القطار المتجه إلى كراكوف فضاع القطار الأول لأنني لم أعرف كيف أشتري التذكرة أو لم تستجب الآلة لبطاقة البنك التي أحملها، ووقفت في الطابور لأنتظر موظفة التذاكر وكان طابورًا طويلًا وعدد الموظفين قليلًا ربما ذهبوا لاستراحة الغداء وهذا حالنا في بعض الدوائر الحكومية- من أراد أن يضيع نهارًا كاملًا فعليه بمراجعة الخطوط السعودية في حي المروج بالرياض، وكأنّ الخطوط لا تكسب مالًا فلماذا يضيعون أوقات الناس؟ لتشتري تذكرة من المروج عليك الانتظار (من السابعة والنصف صباحًا أو قبل ذلك) عدة ساعات قد تصل إلى النهار كله.

محطة قطار وارسو واتصال هاتفي

هي محطة قديمة متخلفة ولكن ثمة جهود كبيرة ضخمة لتحديثها ستجعلها بعد مدّة من الوقت (قبل أن تنتهي التجديدات في شمالي الرياض وطريق الملك عبد الله) من المحطات الرائعة في أوروبا كلها. وهذا يذكرني بمحطة قطارات واشنطن والبناء الفخم جدًا للمحطة كأنك لتخالها مطارًا دوليًا أو قصرًا لأحد الأثرياء. والتجديد في وارسو يتناول بناء سلالم متحركة وسيورًا (حزام متحرك) متحركة أيضًا وقاعات وتجديد البناء، وربما زيادة عدد المتاجر. والمحطة في وضعها الحالي تستخدم الكمبيوتر في إصدار التذاكر وفي وضع جداول القطارات التي تنطلق في موعدها بدقة بالدقيقة فقطار على الساعة الخامسة وثلاث وخمسين ينطلق في موعده تمامًا. وقد شاهدت في اليابان قطارًا ينطلق على العاشرة ودقيقة واحدة فتعجبت من الدقة، ولكن لا بد من هذه الدقة في شبكة قطارات ضخمة لا يمكن أن يُترك فيها شيء للاجتهاد أو اللامبالاة. وقد لاحظت أن حولها ساحات ومقاهي جميلة ولكن لم يكن لدي الوقت في كلتا المرتين وإلّا أمضيت وقتًا في وارسو التي تسمى بها الاتفاقيات السرية التي أعادت (ياسر عرفات) وجماعته إلى الضفة ليخدموا إسرائيل في أمور كثيرة.

وحسبت قيمة التذكرة في الدرجة الثانية لرحلة تستغرق ثلاث ساعات فهي مائة وثلاث زوتات وقد كانت الزوتة قبل ثلاث سنوات تساوي الريال أي إن الدولار حوالي أربعة زوتات ولكنه اليوم يساوي فقط ٢.٧٠ زوتا فقط. فقد ارتفعت قيمتها وبقي ريالنا على حاله لأنه مرتبط بالدولار ولا أدري هل سليم هذا أو هناك ما هو أسلم منه؟ ومن المسؤول عن ذلك؟ وقد ذكرتني خديجة زوجتي بأن الريال والرنجت الماليزية كانا متعادلين ثمّ ارتفعت الرنجت ونزل الريال وعندنا البترول وليس عندهم. فهل يحاسب أحد على هذا؟ أو هل للمواطن أن يسأل؟ وبينما أنا في المحطة أبحث عن التذاكر ومواعيد القطارات جاءتني مكالمة من أستاذ جامعي في



صورة رقم (١٣) : غابات وحدائق كراكوف- بولندا



صورة رقم (١٤) : كلية في جامعة كراكوف- بولندا

جامعة الملك عبد العزيز فقلت له: إليك عنّي! فأنا في معمعة البحث عن طريقي، وتذكرت أنني رأيته في مؤتمر في جامعة مصرية يرتدي المشلح (العباءة) ذات الزركشة الذهبية، ومعه أستاذ مصري يسير أمامه أو خلفه. ولم يعجبه الفندق الذي نزل فيه بقية الأساتذة فذهب إلى الفندق الأرقى وكنت وزميل لي لم نقبل الضيافة المصرية التي عدّتنا طلابَ ثانويةٍ لكل أستاذين غرفة، فوجدت صاحب العباءة الفاخرة هناك، فتعجبت: وما سبب هذا اللباس في مؤتمر أكاديمي وهو ليس مسؤولًا ولا أميرًا.

وأخيرًا حصلت على التذكرة في القطار المغادر في الساعة الرابعة وخمسة دقائق ويصل على السابعة تقريبًا. وفي العربة رقم ٢٣ من الدرجة الثانية والمقعد رقم ١٠٨. والمقصورة فيها ثمانية مقاعد وسبعة منها كانت مشغولة. ثلاثة من الركاب يرتدون البذلات الرسمية وامرأة ترتدي بذلة رسمية ورجل وامرأته من العواجيز. وسار القطار يتهادى ولا حديث بين الركاب عدا ما بين الزوجة وزوجها. وكنت أغفو وأصحو حتى جاء مسؤول القطار ليسأل عن التذاكر ويخرمها ثم جاءت النادل لتقدم الشاي والقهوة والعصير والماء والبسكويت مجانًا.

وصلت إلى كراكوف وخرجت من المحطة بعد أن حملت حقيبتي دون أن أجد مصعدًا، ولما خرجت إلى الهواء الطلق رأيت ازدحامًا فظننته مؤقتًا. وركبت سيارة الأجرة (كما يحب هاشم وليس التاكسي) وانتظرنا مدة طويلة تقترب من ربع ساعة أو زيادة؛ وذلك لأن خروج السيارات يصادفه مرور القطار، فما أتعس المهندس! لم يفكر في الأمر فلم يضع جسرًا أو نفقًا لخروج السيارات، ولكن هذا ما يحدث عندما تكون الرؤية قاصرة، أو لعل هذا الموقف كان من أيام الشيوعية، لكن النظام الجديد يهتم بالعاصمة وارسو ولا يهتم بمدن أقل شأنًا مع أن كراكوف عاصمة ثقافية وتراثية وسياحية.

بلغت الفندق وكان فندقًا متواضعًا وعلى الرغم من حجمه الكبير وقربه من وسط المدينة فقد كانت غرفه صغيرة يضيق الصدر فيها، ومرتبة السرير قلت إنه نام فيها ما يزيد على نصف مليون نائم، وكنت أتعجب فعندما أستيقظ أشعر بجسمي مكسرًا ولم أنتبه إلى المرتبة العظيمة. وقد لقيت أمريكيًا من تكساس في الأصل يعيش في مينسوتا يعمل في محاسبة شركة تهتم بعلف الحيوانات، وكان وحده في المطعم فقلت خلو المطعم دليل على أنه ليس جيدًا، فقال الأمريكي بلهجة جنوبي: «الأكل جيد ولكن الغرف ليست جيدة ولذلك أفكر في الانتقال إلى فندق آخر» ، وسبب نظرته أن الفندق ليس جيدًا لأنه من الوزن الثقيل أو الوزن فوق المتوسط كما أقول مداعبًا والأمريكان متعودون على الأماكن الفسيحة وبخاصة أهل الجنوب، فإن كانت المرتبة تهبط بي إلى أرضية الغرفة فإلى أين تهبط به وهو أكثر مني وزنًا. وكان الأكل جيدًا كما قال، ولكن كيف يكون المطعم خاويًا على عروشه، هو جيد كما جربت وليس فاحشًا مثل مطاعم مراكش السياحية، الأغلى من مطاعم شارع مانهاتن في نيويورك والشانزلزيه في باريس،وليس في الغرفة خدمات إنترنت فإن أردت أن تتصل بالعالم فلا بد أن ترتدي ملابسك، ولبس البنطال والقميص والحزام والحذاء صعب، فما أسهل ارتداء الثوب في بلادنا. وهكذا بدأت رحلتي في كراكوف.

أيام في بولندا (٢)
(كراكوف)

هذه هي المرة الثانية التي أزور فيها كراكوف: فالأولى كنت تقريبًا أنتو راج entourage ومعناها بحسب القاموس المجاني في الإنترنت «مجموعة من الحضور يرافقون شخصًا مهمًّا، وأعتقد أنهم في الغالب لا مهمة لهم». وكأنهم الكومبارس في السينما وإن كان لبعض الكومبارس عمل. ومع ذلك فلم أكن كذلك تمامًا حيث قدمت ورقة في مؤتمر المستعربين الأوروبيين الواحد والعشرين الذي عقد في جامعة كراكوف حول الاهتمام بدراسة الاستشراق والاستغراب في المملكة العربية السعودية وقد أثار بعض النقاش. وقد أصبحتْ عادة في رحلاتي أن أزور بعض المدن أكثر من مرة، وقد تكررت هذه التجربة في هولندا وألمانيا ومصر. والأردن وبيروت وقطر وغيرها (بقيت أستراليا).

أعود إلى الغرفة فهي على الرغم من صغرها ففيها ثلاجة وغلاّية ماء وبعض قراطيس الشاي والقهوة وأحيانًا ينسى عمال التنظيف أن يضعوا تلك الأشياء فأضطر للاتصال بالاستعلامات حتى يأتوا بالشاي. والمشكلة أن من يأتيك إلى الغرفة في الفندق من الذوق أن تعطيه «بخشيشًا» وحتى وإن كان يعوض نقصًا في عمله أو عمل زملائه. ولكن دعني أضيف هؤلاء الناس إلى مَنْ يتقاضون أجورًا متواضعة (عدا اليابان، فهم أثرى مني ومنك في العالم العربي المتدني الأجور، وإن كان اليابان تمر هذه الأيام بركود اقتصادي، يختلف عن ركودنا دون شك).

خرجت أبحث عن مقهى فأحيانًا نشعر بالطاقة على الرغم من شدة التعب، وكما يقولون: والطير يرقص مذبوحًا من شدة الألم، والمسافر يشعر بالنشاط على الرغم من جسمه المكدود. وخرجت أتجول على غير هدى دون خارطة ولا سؤال حيث ظننت أنني سأهتدي إلى مكان أجلس فيه

فأخربش. ولم أستطع ولكني رأيت الغابات والحدائق العامة تملأ الرحب فقلت: يا لهم كيف يعتنون بمدنهم فترى الخضرة في كل مكان وليس في القصور والمحميات لعلية القوم، أو يقتطع ما كان حديقة فتصبح متاجر فتكاد مدننا العربية في غالبها تختنق من (الديزل) وغيرها من العوادم. كما رأيت عدة مبانٍ ضخمة قريبة من الفندق من كل الجهات تقريبًا. فسرت بعض الوقت حتى وجدت مطعمًا فتناولت طعام الغداء والعشاء، ولم أجد (بقالة) على الرغم من أنني رأيت أكياس بلاستيك عليها علامة تسكو الإنجليزية.(متاجر إنجليزية كبرى متخصصة أساسًا في المواد الغذائية)، وأشعر في السفر أحيانًا (ربما لشدة التعب) بالاستسلام وقد وجدت متجرًا اشتريت منه قارورة ماء كبيرة بأكثر من دولار ولو كانت مياهًا معدنية لاستحقت الثمن حتى إن كان المتجر بالقرب من الفندق قد يبالغ في السعر. وخرجت من المطعم أسير حول الفندق فقادتني قدماي إلى ساحة يجتمع فيها عدد كبير من الشباب وفي آخرها مسرح تحتله فرقة ولم تكن قد بدأتْ إزعاجها أو وصلاتها الغنائية ويوجد حول الساعة أماكن لشوي اللحم وبيع المشروبات الغازية. وما أن اقتربت من مدخل الساحة حتى دفعني أحدهم فقلت: ماذا تريد فأشارت إليّ امرأة أنه لا بد أن يفتشني، فقلت: ليفتشني فلا أحمل من السلاح إلّا قلمي ولساني. ودخلت ورأيت الشباب البولندي جاء ليستمع للموسيقى الصاخبة والالتقاء بين الجنسين أو بين الجنس الواحد فعالمهم أصبح يعترف بالعلاقات المثلية على أنها مشروعة ومن العيب أو الخطأ أن تستهجنها. فأين ملائكة قوم لوط ،يا رب، لقد أصبح حالهم لا يطاق؟ وبعد قليل بدأت الموسيقى الصاخبة فقلت: ليس هذا المكان مما يهمني، ولو كان الدكتور عبد الوهاب المسيري - رحمه الله - لمكث قليلًا ليجري عليهم دراسة كما فعل مع الظاهرة العجرمية والإليسية والوهبية. وأضافت زوجتي أن النساء صرن يصفن بعضهن بشبيهة نانسي أو شبيهة إليسا أو شبيهة فلانة وفلان (ولا تنسوا

روبي وما أدراك..) وهذا الشبه مصدر فخر ومصدر تقليد فكيف – بالله– تصنع هذه الشبيهة إن جاءها أولاد أو كانت معلّمة؟ فقد أكد أن المسألة ليست عفوية أن تظهر مجموعة من المغنيات لا يمارسن الغناء ولكن يمارسن الغنج والخلاعة، وقد زارت نانسي عجرم تونس (في العهد البائد) فاستقبلت استقبال رؤساء الدول وكانت تمشي في الأماكن التي تزورها وكأنها ملكة متوجة.

جولة في وسط المدينة القديم أو السوق المركزي:

خرجت برفقة الدكتور محمد العطاونة من جامعة (بن جوريون) بالنقب، ولا أدري هل هو من العطاونة الذين سمعت قصتهم من والدي رحمه الله أنهم من يطلق عليهم بنو عطية، وقال الدكتور محمد: إن العطاونة تركوا الأردن فهل هم بنو عطية نفسهم؟ وصلنا إلى سوقٍ شعبي فيه بضائع جيدة ولكن بأثمنة أقل من الأسواق الأخرى ويوجد في هذا السوق أماكن لبيع اللحوم والدواجن والأجبان والخضروات والخردوات والملابس. وهذه الدكاكين تشبه محلات أبو ريالين غير أن بضائعها أجود قليلًا؛ ذلك أن هذه المجتمعات لا تقبل الرخيص جدًّا الذي لا يصلح للاستهلاك الآدمي كما تقبل وزارة التجارة في بلادنا.

واصلنا السير إلى السوق الكبير الحديث (المول، وما أدراك ما المول؟) وكأن كلمة (مول) دخلت اللغة العربية فهل يرتبها مجمع اللغة العربية ويشذبها. واسم هذا المجمع التجاري (الجاليريا)، فكلمتا (جاليري وجاليريا) أوروبية وهم يستخدمون كلماتهم ولكن ما بالنا اعوجت ألسنة البعض منا فما أتعس من يطلق هذه الأسماء في بلادنا، فأحد أكبر الأسواق في بلادنا يطلق عليه اسم نهر أوروبي هو الدانوب، وفي الرياض الجالريا وفيها المارينا، وطالما ظهرت أخبار أن وزارة التجارة ترفض التسميات الأجنبية ولكن هل أصحاب هذه المحلات فوق القانون؟ أظن ذلك.

ومن داخل السوق وصلنا إلى محطة القطار ووجدنا مكتبَ تذاكر واحدًا – ربما لأنه يوم السبت– ولكن بعض المدن محرومة من الخدمات التي تحصل عليها المدن الأكبر. ووقفنا قليلًا حتى حصلت على تذكرة القطار لليوم التالي وحصل الدكتور محمد على تذكرة القطار بعد ساعتين ووضع حقيبته الصغيرة لدى الأمانات بثلاث زوتات ولم يُطْلَب منه أن تكون مغلقة بقفل، فالأمانة موجودة، ولكن في المغرب -على سبيل المثال- لا يقبلون الحقيبة إلّا مغلقة ولا ينقلونها في الحافلة إلّا بقفل. لم يكن محمد مشجعًا على الشراء والتسوق؛ لأنه يقارن الأسعار والبضائع بها في فلسطين المحتلة التي يسميها إسرائيل باستمرار، وأكره التسمية ولو قال: في بلادنا، أو غاد، أو عندنا، أو في النقب لكان أجمل. ولكنه يبدو أنّه تعود على التسمية بالإضافة إلى إعجابه بالنظام الذي أتى به اليهود.

وعدت أدراجي بعد أن سافر محمد وقد بلغ الذروة من الإعجاب بشخصي المتواضع، وهو على كل حال لم يقابل أشخاصًا كثيرين من المملكة. وكنت في طريق العودة أبحث عن السوق الشعبي لأشتري منه بعض الأشياء التي أعتقد أنها قد لا تتوفر لدينا أو تكون بأسعار متهاودة، أو من جراء عادة الشراء أو إدمان الشراء. ولكن للحقيقة أن حقيبتي لم تزد على ستة عشر كيلو غرامًا ونصف في العودة، مع ما في حقيبة اليد من حلويات تركيا وحلويات تأتينا من الدرجة ثانية أفصل الأمر فيها بعد إن شاء الله.

أيام في بولندا (٣)

كراكوف والسياحة وغيرها

السياحة رائجة في هذه المدينة ولكن سوّاح هذه الأيام غالبيتهم من الأوروبيين أو من أهل بولندا من مدن أخرى، فلم أرَ عربانًا ولا غيره من ذوي الأنوف الفطس (شغلتهم التسونامي والزلزال) ومن مظاهر السياحة توفر السيارات الكهربائية التي يمكن أن تُقِلَّ ما لا يقل عن عشرين شخصًا يقودها شباب وفتيات وقليل من العجائز. كما أن هناك العربات التي تجرها الأحصنة وأيضًا رأيت نساءً يقدنها. أما الحافلات الضخمة التي تنقل السياح فما أكثرها، وتذكرني بالحافلات التي تشتريها بعض الشركات الكبرى لدينا من خردة أوروبا لنركب فيها أو يركب فيها ضيوفنا وهي حافلات قد أكل الزمان عليها وشرب وأصبحت غير صالحة للاستخدام الآدمي في أوروبا فيأتون بها إلينا (قصة الحافلات الصينية التي أقحمت في موسم الحج قبل سنوات، وفي فمي ماء)، وكأنها ملابس البالات أي المستعملة أو المهترئة الأوروبية. والعجيب أن تلك الشركات لا تستحي ولا تخجل حيث تترك الكتابة الأوروبية وكأننا أغبياء لا نفهم، وقديمًا قيل: «إذا لم تستح فاصنع ما شئت». ومن مظاهر الاهتمام بالسياحة أن تجد الكثير من الخرائط للمدينة، بعضها صفحة واحدة صغيرة غير مطوية مثل تلك التي يوزعها الفندق الذي نزلت فيه، وخرائط أخرى كثيرة. فهل رأى أحد خريطة القاهرة أو دمشق أو عمّان أو الرباط؟

ومن مظاهر الاعتناء بالسياحة وجود أنواع كثيرة من الفنادق والخانات بأسعار مختلفة، ولم أرَ الفنادق ذات النجوم الكثيرة مثل الذي نزلت فيه سابقًا ولا بد أن تكون موجودة ولكنها لا تزحم وسط المدينة والحمد لله.

وبعد زيارة الجالريا عدت أبحث عن السوق المغطَّى فلم أعثر عليه على الرغم من أنني مشيت في بعض الشوارع مرتين ولم أحفظ اسمها ولا مكانها

في الخريطة (لا بد من زيارة ثالثة لكراكوف لأعود لذلك السوق إن شاء الله) وفيما أنا ضائع إذ برجل يقف إلى حائط ومعه خريطة فقلت له: أنت ضائع مثلي؟ قال: نعم فسألني من أين أنت، فأجبته، وتبادلنا الحديث فإذ به متخصص في الإعلام وجاء لحضور مؤتمر وكان مما قاله: إن الإعلام الغربي وبخاصة البريطاني تسيطر عليه عدة شركات على رأسها شركات ميردوخ اليهودي.(فضيحة ميردوخ قبل في أواخر شهر يوليو/ تموز ٢٠١١م بالتصنت على هواتف بعض الشخصيات)،(وأزعم أنه لا يجرؤ أن يقول هذا الكلام في بلاده أو أمام بريطاني آخر) وجاء ذكر الفرنسي دومنيك كان الذي يحاكم في أمريكا هذه الأيام على تحرشه الجنسي بعاملة النظافة في فندق سوفوتيل في نيويورك، ويقول عبد الباري عطوان: إن حظه العاثر أن تلك المرأة التي تحرش بها مسلمة مصلِّية عابدة فيا ويله! ولكن للأمريكان أجندة خاصة فقد صنعوا من الحكاية (فيلمًا هوليوديا) من الطراز الأول كما فعلوا في محاكمة (أو جي سمبسون). فقلت لعلهم أرادوا خدمة ساركوزي فقال: كلاهما يهودي فلماذا يخدمون واحدًا ضد الآخر؟

من مظاهر السياحة في البلد كثرة المقاهي المفتوحة، وعلى الرغم من أن المطر قد ينزل في أي وقت فهي مزودة بمظلات ممتازة ولكن ما إن ينزل المطر حتى يفرنقع الناس: أي يتفرقوا. والمطر في اليوم السابق لمغادرتي نزل مدة ساعة تقريبًا فبدأت الغيوم تتكاثف وبدأ الرعد يقصف بعنف شديد حتى تخال أن الرعد الذي سمعته في ساعة بقدر ما أسمع من رعد في الرياض مدة سنة كاملة. والحديث عن تصريف المياه أمر قديم مكرر فلا تكاد ترى قطرة ماء باقية في الشوارع بعد نزول كمية كبيرة من المطر.

رأيت عددًا من المتسولين في كراكوف وهم رجال ونساء ولكن للحقيقة أقول: لقد كانوا متسولين محترمين قليلي الإلحاح، فإن صَمَتُّ أو قلتُ: لا ذهبوا، وكلهم تحدثوا بالبولندية عدا متسول واحد كان يتحدث بإنجليزية جيدة.

ومن مظاهر الاهتمام بالسياحة وجود الباعة المتجولين والأسواق المفتوحة للصناعات اليدوية الخفيفة، وما أكثرها. وقد لفت انتباهي وجود الملابس التقليدية القديمة ذات الألوان الزاهية التي تشبه الملابس الفلاحية أو البدوية، ولكنها في الوقت نفسه تدل على أن ملابس النساء كانت طويلة وقد بدا هذا واضحًا في بعض الدمى التي تباع هنا وهناك.

ولمّا كانت السياحة لا تعني النهب والنصب والاستغلال فأعتقد أن البولنديين اكتشفوا هذا فأسعار الحساء على سبيل المثال عشر-زوتات في الشارع أو في المقاهي المفتوحة المرتبطة بمطاعم ولم تزد على ١٢ زوتا في الفندق الذي نزلت فيه (ثلاثة نجوم) كما أن سمكة تروات بعشرين زوتا وهو سعر معقول جدًّا.

وهنيئًا للعالم الأول ،كما يسمى، أن المصانع تقدم له الدرجة الأولى من بضائعها؛ فقد طلبت الشاي: فما أن تضع القرطاس في الكأس حتى يصبح لونه أسود وطعمه لذيذًا وله نكهة لا نعرفها في الشاي عندنا، فهل المصانع تأتي لنا بالنفايات؟ أو هل المستوردون الأشاوس (وهم أشاوس على الشعوب كما قالت الشاعرة: أسد عليّ وفي الحروب نعامة) فتجارنا الأشاوس يقبلون بالمواصفات الدنيا أو يطلبونها ويبيعون لنا البضائع بأغلى الأثمان؟ وأضرب لكم مثالًا فسيارة أمريكية موديل ٢٠٠٤ ليس فيها كيس أمان للراكب بجوار السائق مع أنها أصبحت إلزامية في السيارات في أمريكا قبل ذلك بعشر سنوات أو أكثر وتباع عندنا بسعر مرتفع. وبالإضافة إلى التجار الأشاوس فلدينا هيئة المواصفات والمقاييس التي تضع علامة الجودة على مياه إفيان أو فولفيك وتترك عشرات الأصناف من المياه لا تدري عنها أو لا تفحصها، وقد يشتكون قلة الموظفين أو ضعف الإمكانات، فقد ذكر لي أحدهم أن له قريبًا أثرى ثراء فاحشًا من خلال هذه المؤسسة وليس له مؤهلات ولا تجارة (يحتاج الأمر إلى تحقيق واستقصاء) ولكن يبقى السؤال: لماذا توجد المواصفات الدنيا في أسواقنا أو لا توجد

مواصفات. وهكذا نبتلى بها يدمر حياتنا وأرواحنا من خلال السيارات والأدوات الكهربائية والغذاء. وقد قرأت قبل مدة أن وزارة التجارة أمهلت تجارًا استوردوا أدوات كهربائية مواصفاتها رديئة؛ مدة سنة حتى يبيعوا ما لديهم من بضائع، فمن مات فهو في عنق وزارة التجارة إن صح الخبر. والأشاوس الآخرون وهم خط الدفاع الأول -هم رجال الجمارك، ولن أفصِّل في الأمر.

وقد لاحظت أن البولنديين يعاملون السياح معاملة طيبة وليس من الصعب أن تجد من يتحدث اللغة الإنجليزية. ويساعدون الأجنبي متى ما احتاج للمساعدة. ولاحظت لديهم الميل لتأنيث الأسماء فمدينة وارسو هي: وارسوفا، وكراكوف: كراكوفا وغير ذلك. وفي لغتهم بعض الموسيقى مما يشبه اللغة الإيطالية ولا أعرف من أين جاء هذا، مع أن لغتهم تبدو قريبة من اللغة الألمانية ولكنهم في كل مكان.

وبولندا دولة يغلب على أهلها المذهب الكاثوليكي وتكثر فيها الكنائس، وارتباطهم بالكنيسة -كما قيل -كان له دور في تحرير بولندا من الشيوعية. وقد لفت انتباهي أن أحد سائقي التاكسي قد وضع صورة البابا في سيارته قرب عدّاد الأجرة. ويبدو أن الكاثوليكية لا تحرّم القمار أو أحيانًا من أجل المال يضعون الدين جانبًا، فصالات القمار المسمّاة (كازينو) موجودة في الكثير من الفنادق حتى الفنادق المتواضعة مثل الفندق الذي نزلت فيه. وكنت أعتقد أن تلك الصالات توجد فقط في الفنادق الضخمة ذات النجوم الخمسة وأكثر.

من المناظر الطريفة في بولندا احتفاظ نسبة من البولنديين من جميع الطبقات بشنباتهم أو شواربهم وحتى أحد كبار المسؤولين، إما رئيس الوزراء أو رئيس الجمهورية له شنب خفيف. فهل هذا من بقايا تأثير العثمانيين؟ ومن بقايا آثار العثمانيين كثرة محلات الكباب، والكباب يعني

لديهم الشاورما، ومعظم هذه المحلات ليس فيها لحم حلال وإنما اللحم المذبوح بالصعق الكهربائي. وأتعجب نحن المسلمين كيف نغفل عن تثقيف العالم بفائدة الذبح الحلال وكيف أن تصفية الدم من الذبيحة مفيد صحيًّا؟

من أروقة المؤتمر عن الاجتماع السياسي:

لم أتمكن من حضور جلسة الافتتاح أو العشاء على النهر الذي لم أره، والسبب أن أوامر صدرت بتأخير سفري فلبيت راضيًا مطيعًا وكلفني تغيير الحجز ألف وثلاثمائة ريال وهي أساليب ابتكرتها شركات الطيران لتكسب المزيد، فبعد أن يغروك بسعر مخفض ثم إن فكرت أن تغير الحجز قالوا: عليك أن تدفع. ومع ذلك يبقى السعر معقولًا، ومعقول أو غير معقول فالأمر أكبر من ثمن التذكرة.

أما جلسات المؤتمر فقد كانت حافلة بالمعلومات والنقاشات والأفكار. وأبدأ من سؤال قدمته كاترزينا أستاذة دراسات الشرق الأوسط بجامعة كراكوف حول قيادة المرأة للسيارة في السعودية واعتذرت أن السؤال ليس جوهريًا ولا يتعلق بما قدمته من بحث حول المشاركة السياسية في العالم العربي بين العوائق والتطلعات. قلت له أوافقك الرأي أن قيادة السيارة ليست قضية جوهرية فقد أصبحت المرأة تقود السيارة في كل أنحاء العالم عدا في المملكة، ولدينا جيش من السواقين أو السائقين(بعض النساء يجمع الكلمة على سواويق) جاؤوا من كل أنحاء الأرض. ومنعت المرأة أن تقود سيارتها. والقضية كما قال وزير الداخلية ليست قضية فقهية وإنما هي اجتماعية. فالرافضون لقيادة المرأة للسيارة يخافون عليها من مخاطر الطريق من معاكسات أو من شكوك في سلوك المرأة إن قادت سيارتها. فمن ناحية المعاكسات يمكننا أن نضع خطًا ساخنًا لتتصل به أي امرأة تتعرض لمضايقة سواءٌ من جندي أو من مواطن، وأن يكون العقاب صارمًا، ولا مانع أن

يصحب المرأة في المرحلة الأولى بعض الأقارب إن وجدوا حتى يطمئنوا لضبط الأمور. وعندما يوقع العقاب على المعاكس فيتم ذلك في الحال.

أما الشك في سلوكيات المرأة إن هي قادت، فأمر لا مكان له فالمرأة التي تريد أن ترتكب أي خطيئة فلن تنتظر حتى يُسمح لها بالقيادة وإنما يمكنها فعل ذلك مع وجود السائق الذي يطيع المرأة؛ لأنه موظف عندها ويمكنها أن تأمره بالتوجه إلى أي مكان، ونحن نعاني من مثل هذه الأمور حاليًا حيث تصل الفتاة الجامعة أو السوق وإن أرادت انحرافًا فلن يمنعها شيء. ولو تجاوزنا مسألة القيادة ففي بعض الأوساط الاجتماعية لا تزال المرأة بحاجة إلى الحصول على حقوقها التي كفلها لها الإسلام بل يصل الأمر أن تعاني بعض النسوة من عدم معاملة المرأة معاملة إنسانية. ومسألة الشك تبين أن المجتمع لم يترب تربية إسلامية التي تقدم حسن الظن، ﴿لَوْلا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا﴾[النور:١٢].

منظمات حقوق الإنسان في العالم العربي أو الشرق الأوسط:

حاولت أن أتابع أحد الباحثين في تناوله لمنظمات حقوق الإنسان في العالم العربي، فلم أستطع متابعة العدد الذي ذكره وأردت أن أعرف عدد هذه المنظمات فرجعت إلى (الشيخ قوقل) فوجدت أن الموقع الذي يرصد أسماء هذه المنظمات محجوب (لماذا يحجب؟) ففتحت الصفحة المخبأة فوجدت أن هناك العشرات من المنظمات المحلية والإقليمية والدولية مع عناوينها على الإنترنت والهواتف وغير ذلك. ولا شك عندي مطلقًا في إخلاص كثير من هذه المنظمات وحرصها على أن تؤدي رسالتها وأن تفعل شيئًا ولكن تقف أمامها عقبات كالجبال بالإضافة إلى إن بعضها أنشأته الحكومات وقالت هي أهلية، وإن كانت هي التي اختارت أعضاءها وفرضت لهم رواتب ومكافآت. وأتعجب كيف لا يقدم الجميع استقالاتهم مستنكرين تكبيلهم وعدم تمكينهم من حقّهم في رعاية حقوق الإنسان.

وقد يشتغلون بقضايا ويتركون ما هو أهم. وحقوق الإنسان عبارة ترددت في وسائل الإعلام العادية التي يملكها المتنفذون والقريبون من صناعة القرار أو صنّاع القرار أنفسهم. بل انتدب مدير جامعة ذات يوم لإلقاء بحث حول حقوق الإنسان لم يكتب منه كلمة واحدة وحقوق الإنسان منتهكة ومستباحة في جامعته أولها رفضه أن يقابل الأساتذة بموعد وإنما عليهم أن يسيروا خلفه بعد صلاة الظهر ليقابلهم مع الجمهور، وعليهم أن يتحدثوا أمام الجمهور وإن كان يُجلسهم على يساره ويجلس العموم على اليسار.

وتبدي كثير من الدول العربية تحفظها على المعاهدات الدولية لحقوق الإنسان لأن القرآن الكريم فيه الكفاية، ولم يتحدث المحاضر عن البنود التي تعترض عليها الحكومات العربية والإسلامية، ولكن حتى لو لم يعترضوا فما حقيقة سجلات هذه الحكومات في انتهاكات حقوق الإنسان؟ عندما يعتقل مواطن أوروبي أو أمريكي يقال له يمكنك أن تظل صامتًا حتى يأتي محاميك وإلّا فإن أي كلام تقوله يمكن أن يستخدم ضدك. ولكن حقوق الإنسان عندنا أن قال الرجل لعمر بن الخطاب رضي الله عنه اتق الله، فقال له: لا خير فيكم إن لم تقولوها ولا خير فينا إن لم نسمعها. الإنسان في الدولة التي يحكمها الإسلام لا تحتاج إلى معاهدات دولية وسيف الأمم المتحدة المصلت على الرؤوس. حقوق الإنسان ليست أن يأكل ويشرب بل أكثر من ذلك، وانظروا إلى الدكتور عبد الله فهد النفيسي- كيف وصف حال المواطن في البلاد العربية:

« فسرطان النظام تسلل لكل ضروب الخلايا الاجتماعية. ويدخِل النظام في روع المواطن المستلب عن طريق الجريدة والمذياع والمدرسة والجامعة والتلفاز أن السياسة حشيش، شيء يحظره القانون وتأباه الأعراف الأسرية. وأن للسياسة رجالًا في الحكم، يعرفون أكثر، ويفهمون أكثر، ويلمّون بالأمور أكثر، ويطلعون أكثر، وحسب المواطن أن يأكل العلف كل

يوم ويرعى في المراعي كل يوم، ويحلبه الرعاة كل يوم، وفي آخر النهار يعود للحظيرة كأي سائمة، لا ينطق حرفًا صائبًا ولا يكتب جملة مفيدة، يملأ جوفه، وينزو على أنثاه، ويتقلب على ظهره كالبعير في المراغة، ويهذي، ثم ينام من غير أن يتجافى جنبه عن المضجع، ويشخر شخير من مات قلبه».

الحركات الإسلامية:

لا يمكن أن يكون مؤتمر عن الإسلام والسياسة دون ذكر الحركات الإسلامية أو الإسلام السياسي أو سمها ما شئت، التي تشكل، أو تؤلف - على رأي الدكتور الخراط بخطأ تشكل- «بعبعًا» أو شبحًا مخيفًا للغرب. وكأن هذه الحركات حيوانات متوحشة لا همّ لها إلَّا أن تنقض على الشعوب الغربية المسكينة المسالمة لتنهش لحمها وتقتلها تيتم أطفالها وترمل نساءها وفي ذلك بلاء عظيم على الغرب. لذلك يكثرون من الحديث عنها وتقسيمها إلى حركات معتدلة وأخرى أقل اعتدالًا وإن كنت موضع حُكم الآخرين عليك فإنما لأنهم يرون أنفسهم أعلى منك لتكون موضع تقويمهم أو تقييمهم. فسمعت مواطنًا من فلسطين المحتلة أكرمته إسرائيل فجعلته أستاذًا في جامعة بن جوريون يقول: إن الناس لا يريدون بالإسلام بديلًا فهذا الصوت هو الأقوى بين الفلسطينيين في داخل حدود دولة يهود. ولكن ما يزعجه أن الإسلاميين يقولون (الإسلام هو الحل) وهو أستاذ جامعي أكنّ له الاحترام ولكن لا يليق به أن ينساق وراء تفاهات المستشرقين أو الكتاب أو الباحثين الغربيين. فالإسلام هو الحل ليس مجرد شعار، إنه دستور حياة ونظام ينظم كل صغيرة وكبيرة في حياة المجتمع من سنِّ القوانين لمن شتمك في الطريق أو لمن أخذ ثروتك وثروة البلاد، أو لمن خان الأمة أو للعلاقات الدولية، إنه ليس شعارًا؛ فعندما غرقت أوروبا في أزمتها المالية الاقتصادية تنادوا: هاتوا لنا الإسلام هاتوا القرآن ليحل مشكلاتنا الاقتصادية، ولكن هيهات هيهات وهل يمكنهم أن يؤمنوا أن المالك الحقيقي للمال هو الله ،عز وجل؟ وهل يؤمنوا أن الله عز وجل قدر

في الأرض أقواتها وأن الاقتصاد الإسلامي قائم على الوفرة وليس الندرة ﴿وَكَأَيِّن مِن دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [العنكبوت: ٦٠]

الإسلام هو الحل منذ أن تستيقظ من فراشك فتقول: (الحمد لله الذي ردّ عليّ روحي وعافني في بدني وأذن لي بعبادته) إلى أن تأوي إلى فراشك فتقول: (اللهم إن كنت ممسكًا روحي فارحمها واغفر لها وإن كنت مرسلها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين) وما بين ذلك من بيع وشراء وتعامل مع الزوجة والأولاد والجيران وغير ذلك. وإليكم ما قلته في الرد على إذاعة لندن ذات يوم: وفي أحد برامج الإذاعة قدّم سؤال من السودان عن تطبيق الشريعة الإسلامية وهل شعار «الإسلام هو الحل» عملي أو مجرد شعار فارغ؟ [(١)]

وهنا كانت لي مداخلة مفادها: أن الإسلام والحركات الإسلامية هي الأكثر قبولًا في العالم الإسلامي ففي أوائل الثلاثينيات والأربعينيات حينما تأسست جماعة الإخوان المسلمين في مصر كانت أشبه بدولة داخل دولة فقد قدمت للمجتمع بديلًا عن النموذج الغربي المتعلمن بأن أسست المدارس والجمعيات والمؤسسات التجارية والعيادات وربما منحت الشهادات الدراسية وغيرها، لقد أوجدتْ مجتمعًا متكاملًا يحكمه الإسلام. وانظر إلى الاتجاه الإسلامي يكتسح الانتخابات في الجزائر فتقوم قائمة الغربيين ومن تبعهم وتابعهم من العرب والمسلمين لوأد تلك الحركة لتدخل الجزائر في حرب أهلية ضروس. وفاز بعض أفراد التيار الإسلامي في المغرب فتولى أحدهم رئاسة بلدية تمارا (ضاحية من ضواحي الرباط)

---

(١)محسن محمد علي عطية. بعض قضايا المسلمين والمسيحيين في إذاعة لندن: دراسة تطبيقية على برامج الأخبار والأحاديث من ١٢/١١/١٤٠٦حتى ١٢/ ١٢/١٤٠٦ (بحث تكميلي للحصول على الماجستير من قسم الإعلام بالمعهد العالي للدعوة الإسلامية بالمدينة المنورة) بحث غير منشور.

فاستطاع خلال ثلاث سنوات أن يقضي على خمسة وسبعين في المائة من بيوت الصفيح ويسير بالضاحية سيرًا عظيمًا، وكذلك فعل أردوغان حين تولى أمانة مدينة اسطنبول. أما من يتساءل عن إسلام السلفيين وإسلام الإخوان فإنما هي مماحكة لا معنى لها.

نماذج من الباحثين في المؤتمرات الغربية :

كلما حضرت مؤتمرًا من هذه المؤتمرات التي تعقد في الشرق أو الغرب وتتناول الإسلام والمسلمين وأسمع كلامًا وأحيانًا أرى تصرفات لا تعجبني، أتساءل: لماذا أصر على المشاركة؟ وكيف أتجاوب مع هذه النماذج من الباحثين والباحثات؟ ولن أجيب قبل أن أقدم بين أيديكم توضيحًا لذلك.

ثلاث أديبات تركيات :

بحث قدمته باحثة تركية اسمها بينار كايالب بعنوان: «**الأدب النسوي ما بعد الستينيات في تركيا**»، وهي أمريكية الجنسية وتعيش في الولايات المتحدة الأمريكية ومتخصصة في التاريخ وقد اختارت ثلاث أديبات تركيات من خلفيات مختلفة شهدن -كما تقول الباحثة- ولادة تركيا الحديثة على يد مصطفى كمال (ولم تذكر كلمة عن إلغاء الخلافة)؛ إحداهن من الطبقة الراقية أو الأرستقراطية حيث كان أبوها سكرتير السلطان عبد الحميد الثاني، والثانية من الطبقة الفقيرة، وثالثة من الطبقة المتوسطة. وكان تركيز الباحثة على موقف الأديبات التركيات من تحرير المرأة وتعليمها وغير ذلك. وكان منطلقها أن المرأة تحتاج إلى تحرر على الطريقة الغربية ويدخل في ذلك دراسة اللغات الأوروبية والعيش وفقًا للمعايير الغربية. وكانت إحدى هؤلاء الكاتبات الأديبة خالدة أديب.

وقد أفصحت هذه الباحثة عن مكنون نفسها في اتهامها لحزب العدالة والتنمية باعتقال المعارضين وأن الإعلام يسكت عن ذلك، ولم تقدم على

هذا أي دليل وكان واضحًا من نبرة صوتها عداوتها لهذا التيار. كما أكدت في تعليق آخر أن ما سمي الإصلاحات اللغوية على الرغم من أنه فصل بين الأمة وتاريخها وثقافتها ولكن الشعب التركي كان في حينها يعاني من الأمية.

باحث يهودي ملحد أو قريب من الإلحاد:

باحث من كلية رامبو بولاية نيو جرسي القريبة من نيويورك اسمه إيرا سبار Ira Spar متخصص في العقائد يكاد ينتقد الأديان كلها حتى اليهودية، وهو أمر معروف أن يكون النقد والهدم لجميع الأديان. ويعرف عقائد الشعب البابلي وغيرها من الأديان والمعتقدات. ويتحدث عن المعتقدات على ما فيها من إلحاد وكفر بكل سهولة لدرجة يصل فيها إلى استحسان تلك العقائد. وقد ذكر أمورًا لا أستطيع أن أعيدها، تعالى الله عمّا يقولون علوًا كبيرًا.

ولمّا كان موضوع البحث نظرة تاريخية إلى الصراع بين تكوين القانون الإيجابي والقانوني العقدي. ويقصد بالأول هو ما صنعه البشر من قوانين، والقانون العقدي هو الشرائع السماوية. وحاول الباحث أن يثبت أن هذا الصراع يعود إلى آلاف السنين حيث وقع الصراع عندما وضع حامورابي قوانينه المعروفة. ومن الأمثلة على هذا الصراع قصة الشاب الباكستاني الذي تزوج في باكستان وانتقل للعمل في الولايات المتحدة في مجال صناعة المعلومات وكوّن ثروة تقدر بعدة ملايين ثم قرر أن يطلق زوجته فقال لها: طالق طالق طالق، وهنا لجأت الزوجة إلى المحاكم الأمريكية، فهل يمكن للمحاكم الأمريكية أن تناقش عقدًا تم في بلد آخر، وأصرت المحاكم الأمريكية أن يقدم الزوج جزءًا من ثروته للزوجة تعويضًا لها. ولم يذكر أن بعض الدول الأوروبية قبلت أن يتحاكم اليهودي إلى شريعتهم في مسائل الأحوال الشخصية ولكن يصعب عليهم أن يقبلوا تحاكم المسلمين إلى شريعتهم وقد أثار الإعلام البريطاني ضجة كبرى عندما أعلنت بريطانيا أنها ستعطي المسلمين الحق في التحاكم إلى شريعتهم في مجال الأحوال

الشخصية فقامت الدنيا ولم تقعد. وكم تمنيت أن تقوم حملة إسلامية لتوضح لهؤلاء الناس عظمة الإسلام في هذه التشريعات وفي غيرها. فالذين يرون أن الطلاق إنما هو قول الرجل: طالق، طالق، طالق مخطئون؛ فللطلاق مراحل يسبقها علاج الرجل لنشوز المرأة ثم الحَكَم من أهله ومن أهلها، ثم الطلاق مرتان أي مرة فمرة وفي كل مرة ينتظران ثلاثة أشهر لعلهما يتراجعان عن قرار الانفصال حتى كتبت كاتبة إنجليزية ذات مرة: إن الطلاق في الإسلام أرحم من الطلاق عند الغربيين.

وأشار الباحث إلى وثيقة الماقنا كارتا البريطانية التي حدّت من سلطات الملك ومنعته من الاعتداء على الرعية بالاعتقال أو مصادرة الأموال أو جبيها بدون وجه حق، وذكر تفصيلات طريفة في الموضوع سأسعى ،إن شاء الله، للحصول على تفاصيلها، ولكني تذكرت ما كتبه الشيخ محمود شاكر (أبو فهر) - رحمه الله- عن أن المماليك في مصر عاثوا فسادًا ونهبوا الأموال وظلموا الرعية، فما كان من العامة إلّا أن توجهوا إلى العلماء- وهذه مكانة العلماء الحقيقية- طالبين منهم إنقاذهم من الظلم، فما كان من العلماء إلاّ أن أمروا الناس بما يشبه العصيان المدني وتوجهوا إلى قصر كبير المماليك واحتجوا على ما يقوم به هو وغيره من المماليك من ظلم الناس وسلب أموالهم، وانتهى الاجتماع إلى توقيع المماليك على حجة أو صك بأن يعيدوا المظالم إلى أهلها ويتعهدوا بعدم ظلم الرعية. ويقول محمود شاكر: إن علماء المسلمين سبقوا الإنجليز في هذا الصك أو الحُجّة.

بسام الطيبي ونوال الشعراوي وأضرابهما في المؤتمر:

لفت انتباهي في المؤتمر ذكر بسام الطيبي الأستاذ العربي في عدد من الجامعات الغربية وإيراد اقتباس طويل من كلامه حول السياسة والإسلام. كما ذكرت نوال الشعراوي وأشار عميد مدرسة الدراسات الأمريكية والدولية بكلية رامابو Ramapo في نيوجرسي الدكتور حسن مجيد (أصله من أصفهان) إلى أنهم دعوا نوال السعداوي لتحاضر عندهم. وهنا تذكرت

أنني سبق أن كتبت عن آراء بسام الطيبي التي تحاول بعض صحفنا الترويج لها ومن ذلك الاقتباس الآتي:

«وكان من الأسئلة التي أجاب عنها الطيبي (الشرق الأوسط ٢٦ شوال ١٤١٩هـ) أن اللجوء للإسلام إنما يحدث بسبب الأزمات واستشهد بما حدث في اندونيسيا حيث قال: « ففي وقت الأزمات يلجأ الناس إلى التشبث بمعتقداتهم الموروثة ويحاولون استخدامها كعلاج لأزماتهم، وطالما لم نقدم لهم بديلًا علمانيًا حداثويًا مفهومًا ومقبولًا لدى الجماهير فسيظلون ميّالين إلى الاندفاع نحو الأصوليين عند كل هزة اقتصادية أو أزمة سياسية.... وأتساءل الآن وبعد ثنتي عشرة سنة تقريبًا من تلك المقابلة ماذا يسمى بحث الغرب عن حلول لأزمتهم الاقتصادية الخانقة في القرآن الكريم حتى كان البابا في الفاتيكان طالبهم بالرجوع إلى القرآن للإفادة من تشريعاته المالية؟

ولمّا سئل الطيبي عن الإسلام والديمقراطية خلط بين الصحيح والخطأ، فمما قاله: « تقليص الإسلام إلى مجرد عقيدة سياسية ما هو إلّا تجاوز لروح رسالته فالإسلام اقتصاد وسياسة واجتماع وثقافة وكل جوانب الحياة». ويضيف الطيبي في الإجابة نفسها: « ولا ترد أي إشارة في القرآن إلى الدولة أو النظام السياسي ولكن هناك ،دون شك، ذكر لأخلاق سياسية محددة في الإسلام...» إذا كان الطيبي لم ير في القرآن الكريم إشارة إلى الدولة فماذا يسمي موقف يوسف ،عليه السلام، في مسألة اقتصادية أو الأزمة الاقتصادية التي واجهها الرئيس المصري والاحتياطات التي اتخذها وقيامه بمسؤولية المالية؟ ماذا يسمي ذكر القرآن الكريم لفرعون سبعين مرة أكثرها كان في سياق سياسي بحت مع أن الطيبي يدرك الارتباط بين العقيدة والإمامة. ألم يؤسس الرسول صلى الله عليه وسلم دولة ضمت جميع مرافق الدولة السياسية والاقتصادية والقضائية والثقافية والإعلامية

وغيرها؟ أليس نموذج الدولة في الخلافة الراشدة كافيًا لمعرفة أن الدولة أمر أساسي؟ فهل يبحث الغربيون عن نماذج تختلف عن الطيبي؟؟»

الأمة هي الأصل:

كانت لنا في المؤتمر جلسة نقاش شاملة لأوراق المؤتمر وتقديم أفكار لمؤتمرات قادمة، فقلت: لقد اطلعت على كتيب صغير للدكتور أحمد الريسوني من المغرب بعنوان (الأمة هي الأصل) ورسم على غلاف الكتاب مثلثين أو هرمين أحدهما مستو والآخر مقلوب، وقال: إن الأمة كانت تقوم بمعظم شؤونها مما يمثل ثلثي الهرم المستوي ولم يكن للدولة عمل سوى الأمن والجيش والعلاقات الخارجية والمالية. وكانت الأمة تقوم بشؤونها في التعليم والثقافة والصحة والتجارة وسوى ذلك وذلك من خلال قيام الأثرياء بالإنفاق على العلم والأعمال الخيرية ومن خلال مؤسسة الوقف التي سيطرت عليها الحكومات إلى أبعد درجة فأفرغتها من حقيقتها. ثم قُلِبَ الهرم فأصبحت الدولة تسيطر على ثلثي الهرم فتتدخل في التعليم وفي الصناعة والتجارة والمجتمع فكيف يستطيع العلماء في العصر الحاضر أن يعيدوا للأمة مكانتها في تدبير شؤونها. وهذا هو عين ما قصده الدكتور عبد الوهاب المسيري في عبارته (تغول الدول القومية)، فرد الدكتور حسن مجيد بأن الموضوع حقيق بالدراسة وسأسعى ليكون هو موضوع المؤتمر القادم إن شاء الله.

قضايا فكرية وسياسة من المؤتمر:

تقدمت باحثة بولندية تعيش في البحرين لتتحدث عن قضية المرأة والسياسة في البحرين، وقد سبق لها أن اشتركت في مؤتمر عقد في تايبيه بالصين الوطنية في شهر نوفمبر ٢٠١٠م وربما تحدثت عن البحرين هناك، ويبدو لها أن البحرين هي العالم كله بالنسبة لها، ولا أستصغر البحرين أو أي دولة ولكن لا بد من اعتبار الحجم الحقيقي والمكانة وإلّا فإن سنغافورة

أصبحت في مصاف الدول من العالم الأول. وكان مما قالته في المؤتمر أن الوطنية أو الانتماء للوطن في البحرين يتطلب الآن أن تكون مخلصًا لآل الخليفة وتعتقد أنهم الأحق بالحكم وأنه لا وجود للبحرين دونهم. فتعجبت من أين أتت بهذه الأفكار ولكن نظرًا لأنها تعيش في البحرين فقد يكون كلامها صحيحًا وهنا تذكرت أن أستاذًا إنجليزيًا في مؤتمر جامعة إكسترExeter قبل أربعة أعوام (٢٠٠٧) قال متعجبًا: لا أستطيع أن أتخيل الجزيرة العربية بدون الحكم الفلاني أو الأسرة الفلانية، ثم التفت إلي سائلًا: أليس صحيحًا؟ قلت: لا، ليس صحيحًا فهذه الأسرة أو غيرها ليس لديهم صك أن يحكموا إلى الأبد، فقد حكم بنو أمية، ثم جاء بعدهم العباسيون ثم السلاجقة فالمماليك وغيرهم كثير، وفي التاريخ القريب ذهب الشاه وذهب السادات وعبد الناصر وغيرهم كثير.

كان الحديث كثيرًا أو أساسًا عن الثورات العربية ومن العبارات التي وردت: ديمقراطيات الخبز العربية، وأكد أحدهم أنه لا ضرائب بدون تمثيل بينما الواقع أنه هناك ضرائب ولكن دون تمثيل. ولكن في أماكن كثيرة من العالم العربي تحولت الحكومات إلى حكومات جباية؛ فما أكثر الرسوم والغرامات والضرائب وأحيانًا الضرائب على الضرائب! حتى إن بعض الدول حتى إن كان ليس هناك ضرائب معلنة فما أكثر الرسوم هنا وهناك، وبالإضافة إلى الرسوم فقد ابتدعوا أنواعًا من الغرامات وبعض تلك الغرامات يتم تحصيلها والبعض الآخر يتم التنازل عنه إن دفعت المعلوم. وهذا يذكرني حينما أرسل أحد الولاة إلى عمر بن عبد العزيز، رحمه الله، ورضي عنه، يقول له إن أهل الذمّة يسلمون وهذا يقلل موارد الدولة، فرد عليه الخليفة العظيم: إنما بُعِث محمدٌ صلى الله عليه وسلم هاديًا ولم يبعث جابيًا.

السلطة الدينية والسلطة السياسية في السعودية:

يهتم الباحث الفلسطيني الدكتور محمد العطاونة منذ مدة بالشأن السعودي حتى إنه نشر كتابًا لدى دار بريل عن الوهابية والتحديث، ولعلي أكتب له عرضًا قريبًا، إن شاء الله. وفي هذا المؤتمر تناول العلاقة بين العلماء والمؤسسة السياسية وكيف أن العلماء كانت لهم الكلمة وكانوا المرجع في معظم قضايا الدولة، وهناك آراء أن المكانة السياسية للعلماء قد تجاوزتها الدولة منذ زمن بعيد ولكن بقي العلماء قريبين من الدولة تستشيرهم وتحترم آراءهم كما أنها تلجأ إليهم في كثير من الأزمات السياسية التي تتعرض لها ومنها الفتوى الأخيرة لهيئة كبار العلماء في تحريم المظاهرات، حينما صدرت مناشدات ومطالبات للتظاهر للمطالبة بالإصلاح السياسي والاجتماعي. وأشار الباحث إلى أنه ليس هناك اتفاق بين الباحثين حول البناء السياسي الموجود بين العلماء والحكام. وأضاف أن الباحثين انقسموا إلى قسمين أحدهما يرى أن العلماء لم يعودوا يشكلون بناء متجانسًا واحدا ولكنهم لا يزالون يحضون ببعض المكانة لدى الحكام، على حين يرى الفريق الآخر أن العلماء فقدوا مكانتهم سواءٌ في الجانب السياسي أو الديني. أما الباحث فيرى أن هذه العلاقة لا تزال مبنية على توافق مستمر يرعى مصالح الطرفين حيث يقدم العلماء غطاءً لشرعية الحكم مقابل استشارة العلماء في قضايا معينة.

ولكن ما فات الباحث وهو الذي لم يزر السعودية مرة واحدة أن العلماء المرتبطين بالدولة بالوظيفة أو العضوية في هيئة كبار العلماء لم يعودوا يؤلفون سوى فئة قليلة على الرغم من الوظائف غير المحدودة والمصالح والامتيازات التي لا يزال يحصل عليها نسبة من هؤلاء العلماء، ولكن ظهر أن المملكة فيها الآلاف من العلماء الذين لهم أثر كبير في المجتمع ولكنهم غير مؤثرين في العملية السياسية.

الإسلاميون والمشاركة السياسية:

تناول أحد الباحثين قضية مشاركة الإسلاميين في السياسة بالرجوع إلى مرحلة سقوط جدار برلين ووجود بعض الانفتاح في الدول العربية وشمالي أفريقيا وتردد الإسلاميون بين المشاركة في العملية السياسية أو مقاطعة الانتخابات. وظل الغرب يعارض مشاركة الإسلاميين في العملية السياسية حيث كان فوز حماس عام ٢٠٠٦م مزعجًا للغرب كما كان الأمر في الجزائر قبل ذلك، حيث تداعى العالم ضد فوز الإسلاميين في انتخابات الجزائر. وحاول الباحث تحليل التحولات الجديدة داخل الحركات الإسلامية في موقفها من المشاركة السياسية من خلال بحث ميداني قام به من خلال المركز الأمريكي للدراسات الشرقية في عمّان بالأردن في المدّة من أبريل ويونيه ٢٠١٠م. ويشير الباحث إلى عدد من الحركات الإسلامية التي دخلت العملية السياسية ولكنها لم تصل بعدُ إلى التأثير في القرار السياسي في أنظمة شمولية كما في اليمن والمغرب والأردن. وأشار الباحث إلى العوامل الخارجية وأن الغرب لا يرى في سياسته الخارجية أن يؤيد التحول الديمقراطي أو دخول الإسلاميين إلى السلطة؛ خوفًا من أنموذج حماس في فلسطين.

وأوضح الباحث أن الحركات الإسلامية تقدم إلى الجمهور الغربي أنها متخلفة وتعود إلى ما قبل العالم الحديث أو كما قال جوزيف كيششيان في محاضرة حضرتها في القنصلية الأمريكية في جدة: العصور الوسطى المظلمة. ولكن الحركات الإسلامية حاولت جادة أن تتأقلم وتتلاءم مع التطورات الحديثة والعولمة حيث استخدمت وسائل الاتصال الجماهيرية الحديثة فلديهم قنوات فضائية كما أنهم يستخدمون الإنترنت وغير ذلك من الوسائل. ومن مظاهر وجود الحركات الإسلامية في الإنترنت صفحة الإخوان المسلمين الشباب بعنوان (أنا إخوان)(Ana Ikhwan) كما أشار إلى وجود مدونات باللغة العربية وباللغة الإنجليزية أيضًا.

العقد الاجتماعي في سياسات غير ديمقراطية في الشرق الأوسط:

لفت انتباهي باحث شاب من جامعة جاقيلونيان Jagiellonian يعمل أستاذًا مساعدًا في قسم دراسات الشرق الأوسط؛ بجديته وحرصه على إتقان اللغة العربية وقراءاته الواسعة في الثقافة العربية والإسلامية، وقد تناول في بحثه قضية مهمة حيث أشار إلى مقاومة دول الشرق الأوسط للديمقراطية فيمكن أن تصنف سبع عشرة دولة من دول المنطقة على أنها استبدادية وتشترك فيما بينها وهي : تعددية محدودة لا حساب لها وقوة واسعة مجتمعة في يد الحاكم الفرد أو النخبة الصغيرة، وثالثة تحرك سياسي منخفض للمجتمع، وغياب الإيديولوجية المرشدة. وركز الباحث على العلاقة بين المجتمع والأنظمة وقد ركز في دراسته على كل من اليمن وسورية.

الفرس وكراهية الإسلام الدين العربي:

شاهدت وقرأت للدكتور عبد الله فهد النفيسي عن المخاطر التي تواجه دول الجزيرة العربية فأكد أن أكبر خطر هو الخطر الإيراني أو الفارسي وأكد معرفته العميقة بهذه البلاد منذ أن أعد رسالته للدكتوراه قبل أربعين سنة حول الشيعة والتشيع في المشهد السياسي العراقي، وزار إيران مرات عديدة وألقى محاضرات سياسية في أكبر مراكز البحوث فيها. أكد الدكتور النفيسي أن التشيع لدى الإيرانيين إنما هو حصان طروادة وأنّه لا يهمهم من التشيع شيء وإنما هي نزعة فارسية تحلم بالعودة إلى ملك فارس الذي انتهى بانتصار الإسلام عليه. بل إن النظرة الشعوبية -وهي كره العرب- هي المحرك الأساس لسياسة إيران ونزعتها لامتلاك القوة؛ فإيران لا تعادي إسرائيل أو أمريكا بقدر ما تعادي العرب والمسلمين والإسلام.

وفي هذا المؤتمر أكد الباحثان الإيرانيان علي جرانماية وحسن مجيد ظهور نزعة فارسية بل نزعة كارهة للدين الإسلامي وأن هذا الدين إنما هو دين

العرب فهم يكرهون حتى الالتزام بهذا الدين. ولكن ثمة من يقول إن الملالي لا يكرهون الإسلام بل يتمسكون به وإنما هم العامة والجماهير التي كرهت الملالي وحكمهم وولاية الفقيه وكل ما يربطهم بالإسلام والدين. وهذه النزعة تنطلق كذلك من حرص على الحياة العصرية الشبيهة بالحياة الغربية من ارتداء الجينز وخلع الحجاب وتعاطي الخمور وغير ذلك.

طرائف ولطائف من رحلة بولندا:

لا تخلو رحلة من الرحلات من لحظات ومفارقات وصعوبات وتنغيصات، ولكن إذا عظم المطلوب قلّ المساعد، وهل أعظم من طلب العلم. وسأبدأ في هذه الصفحات ببعض المعلومات الطريفة من الرحلة

العودة من كراكوف إلى وارسو:

عندما يكون موعد انطلاق القطار على الخامسة وثلاث وخمسين دقيقة صباحًا وتكون الحقيبة جاهزة وليس أمامك سوى ارتداء الملابس فالأمر لا يحتاج وقتًا طويلًا، ولكن قاتل الله القلق أو قلق السفر وهو ما قصده سيد الخلق صلى الله عليه وسلم « يدع نومه وفراشه» فوضعت منبه الهاتف على الثالثة وطلبت من الفندق إيقاظي على الرابعة فاستيقظت قبل المنبهين. ولكن من الممكن أن يكون الإنسان جالسًا ويغفو حتى تفوته كل المواعيد. وهنا تذكرت عجوزًا كويتية اشتكى ابنها من التأخر عن مواعيده فقالت له قولة حكيمة: «يا وليدي اللي تهمّه الصلاة يقوم لها».

خرجت لركوب السيارة الأجرة إلى محطة القطار، فأخذ طريقًا أطول لتصل الأجرة إلى ست عشرة زوتًا على حين لم يكن المشوار يستحق أكثر من عشر، ولكن هل الأمر متأصل في معظم سائقي السيارات الأجرة أو هي جزء من ثقافة المجتمعات حين يغيب الوازع الديني ويحل محله الجشع والطمع؟ فقد يغش الأستاذ الجامعي وقد يغش الوزير ومَنْ فوق الوزير ومَنْ هو دونه. فلا يزعمنَّ أحد أن الأوروبيين أصدق، فالمسألة نسبية فهم

إن خافوا العقوبة انضبطوا ومع ذلك قد تكون هناك أخلاق في التعامل أفضل مما عندنا إلى حد ما. وقد وجدت بالقرب من موقف الحافلة زجاجات خمر مكسورة وملقاة في الشارع، وكم كنت أرى أكوامًا من النفايات يخلفها مَنْ يخرج من الحانات والمراقص في أكسفورد فأتعجب أهذا هو الشعب الأوروبي الراقي؟ ولكن مرة أخرى قاتل الله الخمر وصانعي الخمر ومروجيها والساكتين عنها.

وصل قطار وارسو قبل موعده بعشرة دقائق أو ربع ساعة وركب الركّاب وعلى الساعة الخامسة وثلاث وخمسين دقيقة انطلق في طريقه إلى العاصمة، وقد كان القطار جديدًا نظيفة مقاعده وأسقفه وجدرانه والتكييف فيه جيد. أما مقاعد الدرجة الثانية فهي ستة في كل جهة ثلاثة في المقصورة الواحدة. وكان بجواري فتاتان أمريكيتان من أصل بولندي ولكن حديثهما كان باللغة الإنجليزية ولاحظت أن واحدة تكتب مذكرات، وقبل أن أنزل من القطار أخبرتها عن أهمية هذه المذكرات لأنها قد تصبح كتبًا في يوم من الأيام حيث إنه صدر لي ثلاثة كتب وهناك ثلاثة أو أربعة كتب أخرى في الرحلات من هذه المذكرات التي قد لا نعبأ بها اليوم فيصبح لها قيمة في يوم من الأيام. ولكن الغريب أنها تكتب باللون الأحمر وفي دفتر بلا سطور. وقد أخبرني أحدهم أن اللون الأزرق أكثر راحة للعين، ولكن قاتل الله العادة. لم يكن في الرحلة ما يلفت الانتباه؛ حيث لم يَدُرْ أي حديث في مقصورتنا فكان الوقت مبكرًا والجميع يرغب في مواصلة النوم، ولكن قبيل نهاية الرحلة تحدثتْ إحدى الراكبات إلى الفتيات بالبولندية فعرفت أنها متخصصة في علم الاجتماع ولها رغبة في العمل الاجتماعي أو الخدمة الاجتماعية وهو تخصص ابنتي أسماء التي تحب هذا النوع من العمل. وسبحان الله، فهناك أناس قَيَّضهم الله لخدمة الآخرين ولمساعدتهم يتحملون من أجل ذلك كثيرًا من المتاعب ولكنهم يرون في ذلك متعة ولذة.

وعند أبواب محطة وارسو جرى تفاوض بيني وبين بعض سائقي التاكسي على الأجرة إلى المطار فقال أحدهم: ستون، ثم قبل الخمسين، وكدت أقبل بالخمسين فوجدت أنه ثمة سيارات أجرة في مكان آخر فذهبت إليهم وسألت أحدهم فقال خمسة وخمسون، فقلت له أربعون. وركبت السيارة فوجدت تكلفة المشوار لا تزيد على ثلاثة وثلاثين زوتا بالسير العادي يوم الأحد صباحًا حيث الطريق شبه خاو. ورغم ذلك لم يأخذ مني سوى سبعة زوتات زيادة. فربما لو فاوضته على ثلاثين؛ لقبل لقلة الحركة، ولأنّ الثلاثين أفضل من الصفر ولكن ليس لدي المواهب التجارية أو الصبر.

سلوكيات غير محمودة :

بدأت تركيا مع عهد أردوغان وعبد الله قول الدخول في عالم التقدم الصناعي والمهني والعلمي، ولكن يبقى أن يترقوا في الأخلاق والسلوك، ففيما أنا حامل حقيبتي إلى كاونتر الحصول على بطاقة الصعود إذ بشاب تركي يركض بسرعة ليكون أمامي فنظرت إليه متعجبًا ثم نظرت إلى زميل له مازال خلفي، فقلت: ألا تريد أن تتقدم أنت الآخر، فقالا: نحن معًا، قلت: تقدما بل كانوا ثلاثة. وشاء الله أن أنهي إجراءاتي حتى إجراءات الأمن قبلهم. وقد حدث الأمر نفسه معي في الرياض مع بعض الأتراك. ومع ذلك فإنهم حتى في السلوكيات العامة قد سبقونا، فالشعب الذي يشعر بالحرية وأن حقوقه في اختيار حكامه مصونة لا بد أن يكون أرقى سلوكًا وألطف، لأنه لا يعيش تحت الضغط والاستعباد والاستبداد. ويشذ عن القاعدة من يشذ.

مطار وارسو:

ليس مطار وارسو من المطارات الضخمة أو المتميزة، فإنه يكاد يشبه كثيرًا من المطارات وربما نسخوا تصميم مطار آخر ولكنه عملي، فصالة

المغادرة تضم كل شركات الطيران بما فيها الناقلة الوطنية. وهناك الكثير من الممرات وفي كل ممر عدد من المكاتب على الجانبين حتى يصل عدد المكاتب لأكثر من خمسمائة أو يزيد؛ لكل شركة أربعة أو خمسة بحسب حجم طائراتها وقد يتناوب على المكتب أكثر من شركة لأن بعض الشركات ليس لها سوى رحلتين في الأسبوع. وسقف المطار من الأنابيب الحديد، وفي الأعلى نوافذ زجاجية تدخل الضوء فيتم توفير الطاقة في أثناء النهار أو عندما تكون الشمس ساطعة. أما أرضية المطار فهي من الرخام الأسود أو الرمادي المنقط ولا أعرف أيهما أغلى الرخام الأبيض الذي صرف منه الكثير والكثير جدًا في مطار جدة أو الرخام (البيج) في مطار الرياض؟ ولكن أتوقع أن رخام مطار الرياض أغلى. وجدران مطار وارسو في معظمها من الزجاج. فالمطار عملي وليس مزدحمًا مقارنة بمطار اسطنبول الذي أزعم أنه مطار عالمي وأنّ زائري تركيا حتى العابرين منها وإليها أصبح عددهم في اليوم الواحد بقدر عدد ركاب مطارات المملكة في شهر.

الشرطة في بولندا:

لاحظت كثرة وجود سيارات الشرطة وأفرادها في الميادين العامة في كراكوف، وعلى الرغم من أن الشعب في مظهره العام مُسالم ولكن يبدو أن الشرطة لا تريد أن تترك الأمور للصدف. أو من طبيعة الشباب وهو في سن الحيوية أن تقع بينه المخاصمات والمشاجرات وبخاصة أن القوم يتعاطون الخمور وربما اقتربوا من تعاطي الروس لها؛ فقد خضعوا للحكم الشيوعي مدة طويلة فلا بد أنهم تأثروا بالحياة الثقافية الروسية. والعجيب أن بولندا كانت ضمن الدولة العثمانية فلا تكاد ترى أثرًا لمساجد أو معالم تركية إلّا إن كانت بعض المباني لها طابع عثماني ولم ألاحظ هذا. وأتساءل إن كان العثمانيون أمضوا زمنًا يحكمون بولندا فهل (الكباب) فهو الشيء الوحيد الذي تركوه؟ أعتقد أنه لا بد أن تكون اللغة البولندية قد دخلها كثير من المفردات التركية وربما العربية من تركيا، وعجيب أمرنا نحن

المسلمين يذموننا وانظروا إلى أننا لم نمسخ هوية ولم نلغ لغة ولا تراثًا ولم يسرق العثمانيون آثارًا كما سرق الأوروبيون ولا يزالون يسرقون آثارنا وثرواتنا وأبناءنا.

مهرجان سينمائي في كراكوف:

كان لأبي – رحمه الله – نصيحة وهي: « إن رأيت ورقة ملقاة فالتقطها ولا تقرأ كل ما فيها ، إن لم يكن لديك وقت أو لم يعجبك الموضوع، اقرأ ثلاثة أسطر بل اقرأ الكلمة الأولى من كل سطر فربما خرجت بفائدة أو مفردة جديدة أو جملة أو معلومة ». وأتردد أحيانًا في أخذ الكتيبات الدعائية في أي مكان ولكن يغلبني أحيانًا حب الاستطلاع ففي المبنى الذي عقد فيه المؤتمر، كان يعقد فيه أو قريبًا منه مهرجان كراكوف الحادي والخمسين للأفلام؛ فوجدت الكتيب الذي يقدم برنامج المهرجان. ومهرجان كراكوف للأفلام معترف به عالميًا في تقديم الأفلام الوثائقية والأفلام القصيرة. وينقسم إلى قسمين: أحدهما يعتمد على التنافس، والآخر ليس تنافسيًا. ويتضمن الفيلم القصير الفيلمَ الوثائقي والكرتوني والقصة الخيالية، على حين يقوم القسم الثاني على التنافس بين المنْتِجِين البولنديين للأفلام التي أنتجت في السنة الأخيرة.

أما القسم غير التنافسي فينقسم إلى اثني عشر موضوعًا لتمثيل الإنتاج السينمائي العالمي والمحلي ويجتمع فيه الإنتاج الجديد والقديم إلى حد ما.

ومن الأفلام الوثائقية العالمية: فيلم عن استغلال القساوسة للأطفال جنسيًّا، وهي بالفعل قضية خطيرة في الكنيسة الكاثوليكية التي تحرِّم على قساوستها الزواج؛ مما يؤدي إلى ارتكابهم تلك الجرائم، والسؤال: ما داموا لا يستطيعون كبح جماح غرائزهم فعليهم ألّا يلتحقوا بهذا السلك.

أماكن تاريخية وسياحية في بولندا

لم تكن هذه زيارتي الأولى لمدينة كراكوف ولكن الفرق بين الزيارتين أني لم أكن حرًّا للتحرك والمشاهدة والتجول كما أشاء في الرحلة الأولى، كما أنه كان للرحلة برنامج مرتب للضيف المهم الذي كنت أرافقه. ولكن هذه المرة كنت حرًا طليقًا والحمد لله- والحرية مطلب غال- فكان أبرز ما لفت انتباهي في أثناء السير في كراكوف الكم الكبير من المباني الأثرية التي يحتاج الإنسان وقتًا طويلًا للوقوف عند كل مبنى منها وتأمله ومعرفة تاريخه وما يوجد بداخله أو حوله. وهذه العناية جعلت المنظمة الدولية للتراث والثقافة تعد كراكوف من التراث الإنساني العالمي بحق دون جهد من كراكوف وكان ذلك عام ١٩٧٨م في حين تتقدم دول أخرى للمنظمة باحثة عن أي شيء لديها لتعده تراثًا إنسانيًا وما هي إلاّ النقود وفي الأمثال الشعبية: (لبّس البوصة تصير عروسة) على حين تضيع الآثار الحقيقية أو تدمر.

وفيما يأتي تعريف ببعض هذه المعالم الأثرية:

ميدان كراكوف الرئيس المسمى ميدان السوق Market Square

لقد صمم هذا الميدان في القرن الثالث عشر وقد كان دائمًا هو قلب مدينة كراكوف ومكان تواعد الناس للقاء سواءٌ كانوا من أهل كراكوف أو من الزائرين والسياح. وقد شاهدت في هذا الميدان أنواعًا من المظاهرات الطريفة التي كان بعض المتظاهرين فيها يحمل علم الثورة الليبية وآخرون يحملون علم فلسطين، كما وجدت من يرتدي الثوب والعقال بطريقة مضحكة، ولكن بما أنه ليس من أزيائهم فيتوقع أن يظهروا بمظهر مضحك كما يظهر بعضنا إن ارتدى البذلة، وكم رأيت مناظر مضحكة من تنافر الألوان أو حجم البنطال أو المعطف أو غير ذلك!

المسرح القديم:

يعد هذا المسرح الذي يسمى بالبولندية (تيتر ستاري Teatr Stary)أقدم المسارح في مدينة كراكوف حيث لا يزال يعمل منذ أكثر من مائتي عام عندما افتتحت أبوابه في نهاية القرن الثامن عشر، وقد أجري الكثير من التحديثات له والتعديلات، ويتبع المسرحَ متحفٌ صغير.

قلعة فافل Wawel Castle

كانت هذه القلعة منذ بداية القرن السابع عشر هي مركز البلاد وظلت القلعة الملكية هي الرمز الأيقوني لدولة بولندا الحديثة وليحل محل القصر الملكي الأصلي الذي بني في القرن الحادي عشر والذي دمر تدميرًا كبيرًا بحريق حدث في عام ١٤٩٩م. ومن أبرز الغرف التي تستحق الزيارة في القصر هي قاعة النواب وقاعة التاج.

كاتدرائية العذراء مريم :

لهذه الكاتدرائية صومعتان عاليتان (منارتان)، وتختلف الواحدة عن الأخرى ويصل طول إحداهما إلى ثمانين مترًا حيث توجد قبة من الذهب في أعلاها يشع بوضوح عندما تكون الشمس مشرقة. وقد بنيت في القرن الثالث عشر على الطراز القوطي. وفي داخلها بعض اللوحات الفنية النادرة. ومنذ القرن التاسع عشر يتم قرع أجراسها كل ساعة.

جامعة جاقيلونيان Jagiellonian University

وهي جامعة عريقة يعود تاريخها إلى القرن الرابع عشر وقد عقد المؤتمر الذي أقامه معهد دراسات الشرق الأوسط في واحد من أقدم مباني الجامعة وترى صورته والجامعة العريقة التي يرجع تاريخها إلى القرن الرابع عشر. ويقول أحد المواقع السياحية في الإنترنت عن الجامعة: ومن المفيد زيارة الجامعة الواقعة في شارع القديسة آنا القريب من الساحة الرئيسية. وتبهر بناية الكلية الكبيرة Collegium Maius الناظر، لما تمثله من روعة في العمارة،

فباحتها الداخلية وبئرها التي تتوسطها وأعمدتها الرشيقة المحيطة بها، تستحق الزيارة لجمالها. وتحوي مكتبة الجامعة كنزًا من الكتب يصل إلى أربعة ملايين ونصف المليون من العناوين، بينها ١١ ألفًا من المخطوطات (تضم ٢٥٠٠ مخطوطة من القرون الوسطى)، و٩٢ ألفًا من نفائس الكتب المطبوعة (بينها ٢٤٠٠ كتاب طبع قبل سنة ١٥٠١م).

منجم الملح ومتحفه:

لا يكتمل الحديث عن معالم كراكوف دون الحديث عن هذا المنجم ومتحفه الآن: يقع المنجم على بعد خمسة عشر كيلومتر إلى الجنوب الشرقي من كراكوف في مدينة صغيرة تسمى وايلزكا Wieliczka وهو كما يقال أقدم منجم ملح في العالم حيث يزيد عمره على ألف عام.ويضم المنجم الآن متحفًا، ويسير السواح داخل المنجم عدة كيلومترات ليشاهدوا معالم المنجم الذي أهم ما فيه - في نظر الغربيين- المعابد المختلفة المنحوتة في الملح والتي أهم واحدة منها معبد سينت أنتوني الذي نحت عام ١٦٨٩م.

ومن الطرائف أن إدارة المنجم أبقت على مصعد قديم ولكنه يعمل بكفاءة؛ وإن كان يسير ببطء، وقد كنت مع مجموعة من زملائي في مركز الملك فيصل فأسندت ظهري إلى جدار المصعد وأخبرتهم أنني سأغفو قليلًا، وإن لم أغف حقيقة ولكن طول المسافة وبطء المصعد يجعل عند الإنسان الرغبة في النوم. وأذكر أن عمق المنجم ثلاثمائة متر ويتوفر فيه الماء والهواء وجميع وسائل الراحة. ولا يفوت أهل السياحة توفير عدة متاجر لبيع التحف والخزعبلات وغيرها.